مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الخامسة والعشرون . العدد ٢٧٢ . ربيع الآخر ١٤٣١ هـ . أبريل ٢٠١٠ م

الانتخابات في العراق:
صراع واجهات احتلالية وإقليمية

الكوارث بين المنح والمحن

الحرب الصليبية الباردة

لا بديل عن القراءة

البقع السوداء

لغة الداعية



سعر العدد:السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . مصر ٥ جنيهات . المغرب ١٢ درهماً . قطر ١٠ ريالات . اليمن ٢٠٠ ريالاً . السودان ١٥٠ دينار . سلطنة عُمان ٨٠٠ بيزة . الأردن ٧٥ فلسُ . الإمارات العربية ١٠ دراهم . البحرين دينار واحد . فلسطين نصف دولار أمريكي

DISCOVER ISLAM

انتظرونا في مونديال ٢٠١٠

We Well meet in the 2010 World Cup South Africa

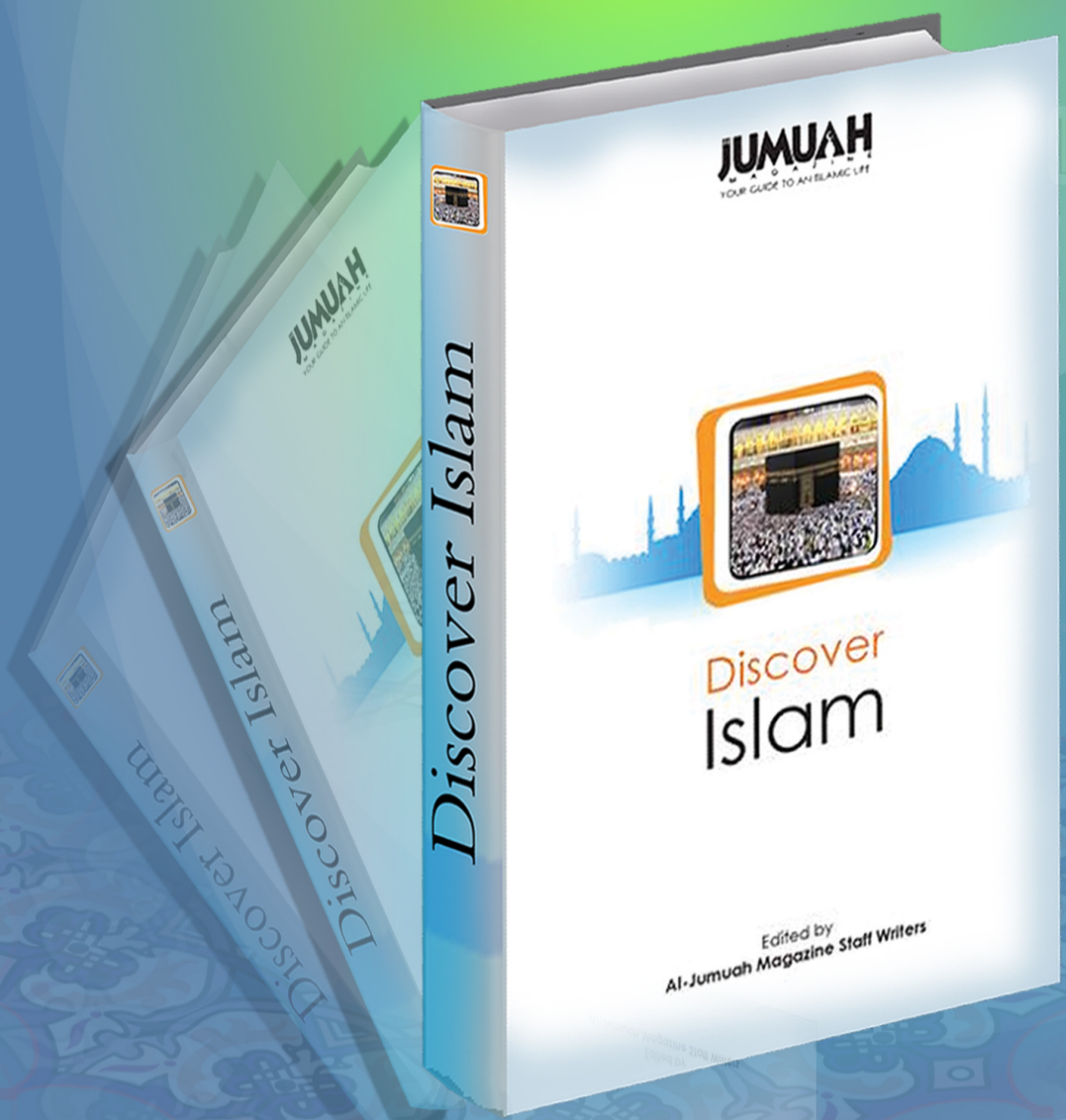

www.aljumuah.com

للاتصال ..هاتف /٤٧٨٧١٠٠-٤٧٨١٧٠٠ - فاكس/٤٧٨٦٤٠٠ -جوال/٠٥٠٢٢١٠٩٢٠
رقم حسابنا بمصرف الراجحي باسم دار الجمعة للنشر والتوزيع /٢١٦٦٠٨٠١٠٣٦٨١٥٧



الافتتاحية

٤ **الحرب الصليبية الباردة** — التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **الكوارث بين المِنَح والمحن** — محمد بن شاكر الشريف

١٢ **المَحْرَم في سفر المرأة كشف الغلَط وموضع الشبهة** — إبراهيم عبد الله الأزرق

٢٠ **السخرية بالدين وأهله وخطورة ذلك على الأمة** — د. محمد بن سعيد القحطاني

الغرب: قراءة عقدية

٢٢ **رَهبنة و «إرهاب»** — فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٢٤ **مجالس المسلمين بين الغُنْم والغُرم** — د. أحمد العمراني

٣٠ **الوعي بالواقع الأهمية والشروط** — محمد خيري المصري

قضايا تربوية

٣٦ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا** — د. هشام عبد القادر عقدة

تأملات تربوية

٤٠ **لا بديل عن القراءة** — د. محمد بن عبد الله الدويش

النجاح: إدارة

٤١ **حرب التوقعات** — إبراهيم بن سليمان الحيدري

الإسلام لعصرنا

٤٢ **السودان: اتصال أم انفصال؟** — أ. د. جعفر شيخ إدريس

معركة النَّص

٤٤ **البقع السوداء** — فهد بن صالح العجلان

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

نص شعري

٤٦ رباعيات من هذا العصر — يحيى بشير حاج يحيى

المسلمون والعالم

٤٨ الانتخابات في العراق صراع واجهات احتلالية وإقليمية — حارث المفرجي

٥٢ الخلاف الأمريكي ـ الباكستاني حول الحرب على «الإرهاب» — عصام زيدان

٥٦ منتدى أمريكا والعالم الإسلامي: هل يتجاوز الأقوال؟ — السنوسي محمد السنوسي

٥٨ اليهود: سؤال الهوية ومأزق الانتماء — هشام منور

٦٠ مرصد الأحداث — جلال الشايب

خاطرة أدبية

٦٦ العائدات — يس عبد الوهاب نبيه مسعد

عين على العدو

٦٨ كيف تحول الموساد من «البطل والأسطورة» إلى «الفاشل ووصمة العار» بعد اغتيال المبحوح؟ — د. عدنان أبو عامر

فكرية

٧٠ أمن الإنسان العربي... بين التباس المفهوم وغموض المقصود — مصطفى شفيق علام

قراءة في كتاب

٧٦ قلب الأدلة على الطوائف المخالفة» للقاضي — د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

دراسات تاريخية

٨٠ لمحاتٌ يسيرة... من تاريخ غرب إفريقيا... النيجر أنموذجاً — سلاَّم الموجري

متابعات

٨٦ حرب دموية بمظلة توراتية — يوسف فرحات

في دائرة الضوء

٨٨ ظهور المرجعية الشيعية وعوامل التجاذب والتنافر فيها — فرست مرعي

الورقة الأخيرة

٩٣ لغة الدعاية — أحمد بن عبد الرحمن الصويان



[كلمة صغيرة]

عُمَّار المساجد... أمل الأمة!

التطاول اليهودي على المسجد الإبراهيمي ومسجد بلال بن رباح – رضي الله عنه – حَلْقة من سلسلة طويلة من العدوان المنظم لتهويد الأرض المباركة، وتغييب هويتها الإسلامية.

وفي السياق نفسه تتواصل الحفريات اليهودية تحت المسجد الأقصى، ويتواصل تطاوُل المنظمات اليهودية على المقدسات الإسلامية، ويتواصل مسلسل التهجير والتهويد وتغيير المعالم التاريخية في مدينة القدس خصوصاً.

واستمرار هذا التطاول، بل تصاعده يوماً بعد يوم، يدل على عدة أمور:

الأمر الأول: أنَّ عملية السلام مع العدو الصهيوني لا يمكن أن تحفظ الحقوق والمقدسات، ودوامة المفاوضات العبثية واللقاءات الدبلوماسية، لن تثمر إلا مزيداً من الخسائر والاستسلام والخنوع والرضى بالأمر الواقع.

الأمر الثاني: الصراع مع اليهود ليس صراعاً قومياً أو وطنياً، ولم يكن في يوم من الأيام صراعاً على الأرض، أو المصالح السياسية والاقتصادية، بل هو صراع ديني، تتجلى فيه بوضوح جذور وأبعاد العقيدة اليهودية المنحرفة التي تُعَدُّ البوصلة الحقيقية لتحريك مواقف الأحزاب اليهودية السياسية.

وعلى الرغم من وضوح هذه العقيدة في الجانب اليهودي واستحضار ساستهم لها، إلا أن أدعياء العروبة يتحرجون أشد التحرج من إبراز الوجه الديني للصراع، ويسعون بكل ما استطاعوا من قوة لتغييب الإسلام وإبعاده عن ساحة الصراع!

الأمر الثالث: الصمت العربي المريب إزاء انتهاك حرمات المساجد والمقدسات الإسلامية، ليس له تفسير إلا استمراء الضعف والخزي والمهانة.

الجدير بالتأمل أن الهبَّة الفلسطينية لمواجهة العدوان في مدينتي الخليل وبيت لحم وغيرهما، تدل دلالة واضحة على أن الشعب الفلسطيني يزداد قوة وحيوية، ولم يستسلم لمشاريع الاستسلام والتهويد، وعُمَّار المساجد هم الأمل الحقيقي لاستنقاذ الأمة ومقدساتها من طغيان التهويد وخزي الخيانة.

الحرب الصليبية الباردة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا محمد الصادق الأمين، أما بعد:

فعلى الرغم من ارتباط الكنيسة الرومية الكاثوليكية الوثيق بالحروب الصليبية التي تُعد أُولى محاولات الغرب الرومي لاستعمار ديار المسلمين، إلا أن كثيراً ممن يكتب حول الحراك الكنسي في بلاد الإسلام يصور البابوية في صورة راهب يخفي في كُمِّه نسخة من إنجيله المحرَّف ليبلِّغها إلى البسطاء من الأطفال والعجائز، وينسى هؤلاء صورة ذلك الفارس الرومي الذي لبس لأَمَتَه وشهر سيفه وقد خط على صدره صليباً؛ علماً بأن الباحثين في ميدان التنصير يكادون يُجمعون على أن التنصير في العالم العربي إنما لجأت إليه الكنيسة بعد فشل الحروب الصليبية في أن تحقق للبابوية ما كانت تصبو إليه من نفوذ.

إن الكنيسة الرومية الكاثوليكية تنهج سياسة فريدة يمكن تسميتها بـ: «الاستعمار الخفي» أو «الحرب الصليبية الباردة». تتلخص هذه السياسة في تغيير الخريطة السكانية عن طريق تشجيع أتباعها الكاثوليك على الهجرة إلى البلاد التي يراد زعزعة الولاء فيها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما حدث في الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بعد أن لجأ إليها البروتستانت المضطهدون في أوروبا؛ فكان هؤلاء البروتستانت يشكِّلون أغلبية ساحقة، لكن الأمر تغير بعد مشروع الاستعمار الخفي الذي خطط له الرهبان الكاثوليك في «بَلَو» عام ١٨٥٢م، والذي أعلنوا فيه:

«لقد عزمنا على الاستيلاء على الولايات المتحدة وحكمها، لكننا لا نستطيع صنع ذلك دون العمل سراً وبكل حِكمة... وبسرية وصبر علينا أن نحشد أتباعنا من الروم الكاثوليك في المدن الكبرى بالولايات المتحدة... ولِندَعُ فقراءنا المؤمنين من الكاثوليك الإيرلنديين من كل أنحاء العالم»[1].

وفعلاً توالت على أمريكا أمواج من المهاجرين الإيرلنديين الكاثوليك حتى قال الرئيس الأمريكي «أبراهام لنكولن»: «إن القساوسة والراهبات والرهبان الذين يحُطُّون على شواطئنا كل يوم تحت ستار الدعوة إلى دينهم، ليسوا سوى رسلٍ للبابا ونابليون الثالث...»[2].

لقد تمكَّن الكاثوليك - تدريجياً عن طريق الهجرات المتتابعة من أوروبا وأمريكا اللاتينية - من قلب الخريطة الديمُغرافيَّة في أمريكا الشمالية بشكل مثير للقلق؛ ففي عام ١٩٠٠م كانت نسبة البروتستانت في أمريكا الشمالية ٤٦,١ ٪ بينما كانت نسبة الكاثوليك لا تتجاوز ١٤,٢ ٪، والآن تتباهى الكنيسة الرومية الكاثوليكية بأنها تفوق الكنائس البروتستانتية أتباعاً؛ فهم يشكِّلون في أمريكا الشمالية ٢٢,٦ ٪ بينما لا يتجاوز البروتستانت ١٩,٠ ٪؛ بمعنى أن الولايات المتحدة التي تبلغ نسبة الكاثوليك فيها ١٩,٦ ٪ مقابل ١٨,٦ ٪ لصالح البروتستانت لم تَعُد بروتستانتية «إصلاحية» كما يُظَن، بل هي الآن دولة كاثوليكية بابويَّة[3].

وفي محاولة لتثبيت أقدام أتباع الكنيسة الكاثوليكية في العالم العربي أكد البابا - وَفْقاً لمقال نشره موقع «زينيت» الخاص بأخبار الكنيسة الكاثوليكية بعنوان: «البابا (يقول): النصارى ثروة للدول المسلمة» - على أن النصارى يُضفُون بُعداً خاصاً على الدول ذات الأقليات النصرانية في الشرق الأوسط، ويرجو أن يكون الشرق الأوسط «أرضاً للتعاون الأخوي والاحترام والسلام المتبادل بفضل إسهامات كل المؤمنين الذين يعيشون فيه».

لكن هذا الكلام المتزلِّف يناقض الوثيقة التي أصدرها «مجمع عقيدة الإيمان» الكنسي عام ٢٠٠٧م، والتي كُتب

(1) Chiniquy, Charles. *Fifty Years in the Church of Rome*, p. 668.
(2) Fifty Years in the Church of Rome, p. 699.
(3) *Encyclopedia Britannica Almanac 2010*, p. 467.



ما يصبو إليه البابا، هو أن يكون للكاثوليك ثقلٌ يسمح لهم بالمطالبة بكنائس ورهبانيات في بلاد الإسلام؛ علماً بأن سياسة الكنيسة الكاثوليكية إقصائية للمنافسين؛ حتى من النصارى

في ذيلها: «إنَّ الحَبر الأعظم «بندكت السادس عشر» قد أقرَّ هذه المذكِّرة العقائدية».

تقول هذه المذكرة: «إن الربَّ يسوع المسيح نفسَهُ الحاضرَ في كنيسته، يسبقُ عمل المُبشِّرين، يُرافقهُ ويتبعهُ؛ ليجعَلَ تَعبَهم يُثمِرُ؛ **فما حدثَ في العصور الأولى يستمرُّ طيلةَ التاريخ**... يُقالُ بأنه يكفي أن نساعدَ الناسَ على أن يكونوا أكثرَ إنسانيةً أو أكثرَ أمانةً لديانتهم، **وأنه يكفي أن نبني جماعةً قادرةً على العملِ في سبيلِ العدلِ والحرية والسلام والتعاون**... أمامَ هذه الإشكاليات، قد ارتأى مجمع عقيدة الإيمان ضرورةَ نشْرِ هذه المذكِّرة...»[1].

فالهدف من إقحام العنصر الكاثوليكي إذن ليس بناء «جماعة قادرة على العمل في سبيل العدل والحرية والسلام والتعاون». بل ما يصبو إليه البابا، هو أن يكون للكاثوليك ثقلٌ يسمح لهم بالمطالبة بكنائس ورهبانيات في بلاد الإسلام؛ علماً بأن سياسة الكنيسة الكاثوليكية إقصائية للمنافسين؛ حتى من النصارى؛ فهي لا تسمح برواج أي شكل من أشكال النصرانية يخالف ما عليه الكنيسة الأم إلا أن يكون ممهِّداً لها، والخلاف (الكاثوليكي - الأرثوذكسي) في مصر مثال حي على ذلك؛ فعندما بدأ الرهبان الكاثوليك يتوافدون إلى مصر لم يخضعوا لسلطان الطائفة الأرثوذكسية، بل حاولوا كسب نصارى الأقباط إلى الكاثوليكية وتمكنوا من إقامة «كنيسة الأقباط الكاثوليك».

إننا نجد تزايداً كاثوليكياً ملحوظاً ومقلقاً في الدول العربية على وجه الخصوص، يقابله - بالطبع - تراجع في نشاط الطوائف النصرانية الأخرى؛ فوَفْقاً لإحصاء عام ٢٠٠٥م يشكِّل النصارى الوافدون في قطر - مثلاً - ١٠ ٪ من السكان، ٦ ٪ منهم يتبعون الطائفة الكاثوليكية. وفي الكويت تبلغ نسبتهم ١٣ ٪، ٩ ٪ منهم من الكاثوليك. أما في الإمارات وعُمان والبحرين فالكنائس الكاثوليكية - على الإطلاق - أكثر الكنائس تابعاً. أما في السعودية (التي استعصت على المنصرين) فيشكل النصارى الوافدون ٣,٥ ٪، ٣ ٪ منهم من الكاثوليك[2]!

وقد طالب البابا علناً بمنح ما يسميه حقوقاً لأتباع ملَّته من الكاثوليك في تلك البلاد. وفي مقابلة مع الأسقف بول هِندَر (المسؤول عن طائفة الكاثوليك في الجزيرة العربية) صرح الأسقف بأن «أهم ما نود الحصول عليه هو إمكانية الاجتماع في جوٍّ حرٍّ آمنين على شعائرنا وقُدَّاساتنا وأنشطتنا».[3]

وكما قال الكاتب الألماني المسلم «أحمد فون دِنفَر» في كتابه «**التغلغل الصليبي في منطقة الخليج**»: «ليس هناك أيُّ شك في أن هؤلاء العاملين أو المغتربين (في دول الخليج) **يشكِّلون عدداً لا يستهان به من الطابور الخامس** الذي يمكن استخدامه للتبشير النصراني بين المسلمين، وبشكل خاص في المناطق التي تكون مغلقة في وجه العمل التبشيري التقليدي المعروف عادة»[4].

إن الكنيسة الكاثوليكية تعيش مرحلة ذهبية من مشروع الحرب الصليبية الباردة في عهد «بندكت السادس عشر»؛ ففي مقالة نشرتها مجلة the Trumpet الأمريكية بعنوان: «الحملة التنصيرية الخاطفة لبندكت»[5] يبدأ الكاتب «رون فريزر» بقوله: «إن أي مراقب حاذق لـ «جوزيف راتسنجر» (بندكت السادس عشر) يدرك أجندته المتعمَدة والمحسوبة

(1) http://198.62.75.1/www1/ofm/1god/documenti/dottrina-e-fede/nota-sul-evangelizzazione/index.htm

(2) *Encyclopedia Britannica Almanac 2010.*

(3) http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/7080327.stm

(٤) أحمد فون دنفر. التغلغل الصليبي في منطقة الخليج. ترجمة: د. سالم المولى (سلسلة الدراسات الاستراتيجية، ١٤٠٤هـ)، ص ١٣.

(5) http://www.thetrumpet.com/index.php?page=article&id=3215

لإعادة عقارب الساعة أثناء فترته البابوية... (إنه) يريدها (أي: الكنيسة الكاثوليكية) أن تعود إلى مكانتها التي تمتعت بها يوم كانت في أوج قوَّتها»، ثم يقول: «لقد أنجز راتسنجر الكثير في أجندته بالتعاون مع البابا يوحنا بولس الثاني. إن حميمية العلاقة التي تمتع بها البابا البولندي والكاردينال البافاري تجلَّت في التزامهما المتدين بلقاءاتهما الأسبوعية السرية كل أسبوع، كما أن «راتسنجر» كان الكاردينال الوحيد الذي يُسمح له بمخاطبة البابا بلسانه الألماني. إن المنبر البابوي السياسي الذي بناه «راتسنجر» بالشراكة مع «فويتيوا» (يوحنا بولس الثاني) أسس قاعدة الانطلاق المثالية للأجندة البابوية الحالية من أجل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي تهدف إلى تنصير شرسٍ متسارع».

ثم يؤكد المقال على أن من دلائل استعجال البابا في تنفيذ أجندته الصليبية أنه أعلن حرباً ضد أربع جبهات في عامين فقط:

الجبهة الأولى: داخلية؛ فقد غيَّر عدداً من أعضاء فريقه؛ فهو يبني فريقاً في روما يعينه على أجندته.

الجبهة الثانية: – على حد تعبير «جورج فريدمان» (الرئيس التنفيذي لمؤسسة «ستراتفور») – «رميُه قنبلةً يدويةً» داخل الحلبة الإسلامية. ولكن كما يقول المقال؛ فإن «الجلبة التي حدثت من جراء كلمات البابا المنتقاة عمداً في هجومه على الإسلام أضحت تاريخاً غابراً؛ لقد كانت – كما أشار فريدمان – «نقلة رشيقة؛ لقد عزز قاعدته السياسية وربما مَنَح شرعية لردٍ أقوى على الجدل المعارض للكاثوليكية في العالم الإسلامي، وقد قام بهذا بتمويه بارع. إن خياراته مفتوحة». ا هـ.

يعلق «رون فريزر» بقوله: «هذه هي طريقة البابا؛ إنه يصل إلى حبل الوريد ولكن ببراعة تجعل خياراته قائمة؛ إنها سمةُ دِبلوماسيٍ محترف».

الجبهة الثالثة: العَلمانية الأوروبية؛ حيث استغل الذكرى الخمسين للاتحاد الأوروبي «ليهاجم قادة الاتحاد الأوروبي في عجزهم – عند إعلان المبادئ الأساسية – عن الاعتراف بالديانة التقليدية لأوروبا، والتي خرجت من روما»؛ فالبابا يدرك تماماً أن أوروبا التي كانت تزخر بأتباع البروتستانتية من اللوثريين والكالفنيين، أصبحت ذات أغلبية كاثوليكية بعد أن قامت الحربان العالميتان والحرب الباردة بدورها خير قيام.

إن تعداد أتباع الأديان الذي أُجري عام ٢٠٠٩م يشير إلى أن عدد البروتستانت في أوروبا أقل من ٦٨ مليوناً، بينما يربو عدد الكاثوليك على ٢٧٥ مليوناً، وهو يفوق عدد الأرثوذكس في أوروبا بما في ذلك أوروبا الشرقية[1].

يستمر الكاتب قائلاً: «لقد خط البابا خطاً رابعاً على الرمل في حملته الصليبية العالمية أثناء رحلته الأخيرة إلى البرازيل». وهذه هي:

الجبهة الرابعة: فقد حث أساقفة أمريكا اللاتينية على «التعبئة لحملة صليبية تنصيرية على مستوى القارة (أمريكا الجنوبية؛ «قارة الأمل» كما يدعوها)؛ لدحر الطوائف غير الكاثوليكية التي اخترقت أمريكا اللاتينية»؛ فالكنيسة الرومية الكاثوليكية لا تأذن للمنافس النصراني المخالف في بلد لها فيه مُكنةٌ؛ فضلاً عن أن تتعايش يوماً مَّا مع ألَدِّ أعدائها من المسلمين.

ثم يضيف الكاتب: «لكن أجندة البابا أوسع من أن تُحصَر في دعوة للمتخلفين من الكاثوليك أن يلحقوا بركابها: إنها ذات نبرة سياسية حتمية، وطبيعة عالمية... إن هذا البابا جدير بالمراقبة... إن هنا أحد البابوات العازمين على تنصير العالم مستخدماً الدين، والاقتصاد العالمي، والقضايا الاجتماعية، والسياسة الدولية، أو أي سلاح يختاره مهما كان؛ ما دام يلائم الزمان والمكان والرأي العام... إن «بندكت السادس عشر» لن يَقِرَّ له قرار حتى يحقق هدفه»[2].

إنها حرب صليبية باردة يوشك أن يحمى وطيسها بعد أن تَقلِب الكنيسةُ موازين القوى بتغيير الخريطة السكانية كما صنعت في «فيتنام» البوذية من قَبْل؛ إذ علق «فلتشَر براوتي» على هذه الإستراتيجية الماكرة في «فيتنام» قائلاً: «لا شيء مما حدث أثناء الثلاثين عاماً من هذه الحرب ١٩٤٥ – ١٩٧٥م كان أكثر فتكاً من نقل الـ ١,١٠٠,٠٠٠ كاثوليكي من الشمال إلى الجنوب في وقت لم تكن قد وُجدت فيه حكومة الجنوب تقريباً[3]».

أليس من حقنا إذن أن نقلق من تزايد الكاثوليك وكنائسهم في أراضي المسلمين باسم حرية الدين؟

---

(1) *Encyclopedia Britannica Almanac 2010*, p. 508.

(2) http://www.thetrumpet.com/index.php?page=article&id=3215

(3) Prouty, Fletcher. *J.F.K.: The CIA, Vietnam, and the Plot to Assassinate John F. Kennedy* (New York: Carol Publishing Group, 1992), pp. 66, 67.

دار التدمرية

للنشر والتوزيع

الجديد

والمخفض

دائماً



tadmoria@hotmail.com

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ جنوب مخرج ١٥ مقابل جامع الراجحي

الجديد هاتف : ٤٩٢٤٧٠٦/٤٩٢٥١٩٢ فاكس : ٤٩٣٧١٣٠ بريدة ـ طريق

الشاحنات ـ حي الصفرا ـ هاتف ٣٢٦٢٢٦٢

الكوارث بين المِنَح والمحن

■ محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

إن الله - تعالى - الخلّاق العليم الفعال لما يريد، يُقدِّر بعلمه ما يريد، ويمضيه بقوّته تحقيقاً لما أراده من الحكمة في ذلك. وما قَدّره الله وأمضاه: منه ما تظهر وتُعلَم حكمته، ومنه ما لا تُعلَم حكمته. وما تُعلَم حكمته: منه ما تُعلَم بعضها ويخفى بعضها الآخر، ومنه ما لا تتبيّن الحكمة منه إلا بعد آماد طوال.

والمسلم الموقن بدينه الراضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، يقبل ما قَدّره الله ويسلّم بذلك تسليماً على أي وَضْع ونَحْوٍ جاءه.

من الأمور المقدّرة المكررة ما يقدّره الله - تعالى - من الكوارث لحِكَم أرادها. والكارثة هي: النازلة العظيمة الشاقة التي تترل بالأقوام: كنقص الأموال والأنفس والثمرات، وجريان السيول العظيمة، ووقوع الحروب المهلكة وتغلُّب العدو، ونحو ذلك. قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

قال القرطبي في بيان أسباب ما يقدِّره الله على العباد من المصائب أو الكوارث: «هي: إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصي، وإما ابتلاء واختبار، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]، وإما تمحيص للذنوب، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٤١]، ولله أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء»[1]. والمسلم في ذلك كله يتقلب بين نظرين: الإيمان بالقدر، والعمل بالشرع:

- فإيمانه بالقدر يجعله يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيستقر قلبه ويهدأ خاطره، كما قال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١]. قال ابن جرير في تفسير ذلك: يقول - تعالى ذكره -: لم يصب أحداً من الخلق مصيبةٌ «إلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ». يقول: إلا بقضاء الله وتقديره ذلك عليه، «وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ». يقول: ومن يصدِّق بالله؛ فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك، (يَهْدِ قلبه): يقول: يوفِّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - تعالى -: «وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ». يعني: يهدي قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وكذلك قال الله - تعالى -: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

والمحنة والبليَّة والكارثة تظل كما هي؛ إذا لم ينتفع بها المسلم ويجعلها وسيلة للتغيير، كما أنها تتحول إلى منحة وعَطيَّة ربانية؛ إذا حملت المسلم على النظر في ما حوله وفي نفسه وسارع بالتغيير على وَفْق البلاء النازل؛

(١) تفسير القرطبي: ٥ / ٣١٠.

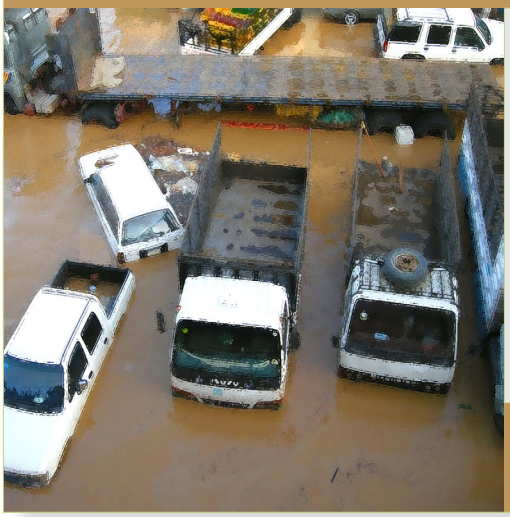

البلايا والرزايا إنما تصيب الناس على قَدْر شِدّة دينهم وصلابتهم فيه، حتى يثبت الإيمان في القلوب وتتمايز أقدار المؤمنين ويظهر ذلك واقعاً ملموساً كما هو معلوم لدى رب العالمين؛ فشدة البلاء قد تكون دليلاً على صلابة الدين ومتانته.

فيعود أفضل مما كان في أول أَمْره، فما تُحْدثه الكارثة أو المصيبة للعبد - إذا وفَّقه الله، تعالى، للانتفاع بها - من الذل والخضوع والإنابة، والحذر والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، والإقرار بفضل الله العظيم، كل ذلك: يجعلها في حقه رحمة ومنحة؛ لأنها سلكت به طريق الرشاد؛ فإنها عرَّفته قَدْره، وأشهدته فَقْره وضرورته إلى حَفْظ مولاه له.

- وعمله بالشرع يجعله من المسارعين بالأخذ بالأسباب ومدافعة القَدَر بما شرعه الله - تعالى - وأقدر عليه من الأسباب؛ فلا يحمله الإيمان بالقَدَر على التواكل والإهمال وتَرْك الأخذ بالأسباب التي شرعها الله، تعالى، والتي تترتب عليها مسبباتها على وَفْق الناموس الذي أراده الله، تعالى. كما لا يحمله الأخذ بالأسباب على التوكل عليها وتعليق القلب بها وإناطة تحقيق المراد بالأخذ بها، حتى يغرَّه الشيطان بها فيظن أن بإمكانه - إذا أخذ بتلك الأسباب - أن يسيِّر الحياة وَفْق مراده، وأن شيئاً من خارجه لا يملك التصرف فيما يريده، على حد قول القائل:

إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيبَ القَدَرْ

والأمران لا يتعارضان عند المسلم أبداً، بل يسيران جنباً إلى جنب، وهو يتصرف في أموره على مقتضاهما؛ فتستريح نفسه ويطمئن قلبه، ويسعى في تحقيق مصالحه الأخروية والدنيوية بجدٍّ وحيوية، من غير كلل وهو قرير العين رائق البال. إن لله - تعالى - فيما يقدِّره من النوازل الشديدة والكوارث العظيمة حِكَماً كثيرة، ومن الخطأ أن نحصر الحكمة في أمر واحد؛ إلا أن يدل على ذلك دليل صريح؛ فالحكمة قد تتعدد، وقد يكون في الحدث الواحد حِكَم كثيرة؛ لكل فرد أو طائفة ممن أصابتهم الأحداث أو الكوارث حكمة تخصهم. والسعيد من فَقِه ذلك وعمل على وَفْقِه وانتفع بالحكمة المرادة من الكارثة بخصوصه، كما أن الكوارث تكشف عن أمور كثيرة ليس من السهل الكشف عنها إلا في ظروف العسرة والشدة. ولو ذهبنا نتصفح الأدلة الشرعية وأَعْمَلنا الفكر، أمكننا أن نتبين كثيراً مما يمكن أن تكشف عنه الكوارث والشدائد؛ فمن ذلك:

١ - بيان شدة الإيمان ورسوخه عند بعض المسلمين:

وذلك أن البلايا والرزايا إنما تصيب الناس على قَدْر شِدَّة دينهم وصلابتهم فيه، حتى يثبت الإيمان في القلوب وتتمايز أقدار المؤمنين ويظهر ذلك واقعاً ملموساً كما هو معلوم لدى رب العالمين؛ فشدة البلاء قد تكون دليلاً على صلابة الدين ومتانته، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، كما قال - تعالى -: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]، وقال أيضاً: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقَّة ابتلي على قَدْر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[1]. فكانت الكوارث التي تحل بعباد الله - على ما فيها من ألم وشدة وفراق الأحباب وهلاك الأموال - تستبطن مِنَح العفو والمغفرة والقرب من الله - تعالى - رب السموات والأرضين.

(١) أخرجه أحمد وغيره، وقال الألباني: صحيح. انظر حديث رقم: ٩٩٢ في صحيح الجامع.

٢ - **بيان شؤم الذنوب والمعاصي على أهلها:** فالكوارث تبيِّن جانب العقوبات التي يُنْزِلها الله - تعالى - بالعصاة الذين عتوا عن أمر ربهم واتبعوا خطوات الشيطان؛ فكانت عقاباً دنيوياً قبل العقاب الأخروي، وذلك حتى يحذر الناس من معصية ربهم وطاعة الشيطان، أملاً في التوبة حتى يَقْدموا على ربهم مغفوراً لهم، وفي ذلك منحة أيضاً لمن عقل واتعظ بما حدث؛ فإن نزول البلاء بالعباد قد يحملهم على مراجعة أنفسهم ومعرفة أوجه التقصير أو تجاوز الحدود، فَيُحدِث لهم ذلك توبة وأوبة قد ترفعهم إلى أعلى عليين؛ فيكون العاصي المقرُّ بذَنْبه وخطئه وخطيئته التائب لربه، أعلى مقاماً من العابد المعجَب بعبادته المدِلِّ بها أو المترفع بها عن خَلْق الله. قال الله - تعالى - في بيان الحكمة من العذاب الدنيوي: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وكما قال: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]؛ فكان الأحرى بهم؛ إذ نزلت بهم الكوارث والشدائد أن يتضرعوا ويرجعوا إلى ربهم ويستغفروه ويتوبوا إليه.

لكن العصاة في هذا المقام نوعان:

أحدهما: المباشِر لارتكابها والمتقحم فيها.

والنوع الآخر: لا يباشرها بنفسه، لكنه يترك الإنكار على الواقعين فيها مع قدرته على الإنكار، وكأن هذا الصنف من الناس نسي أن المجتمع المسلم كتلة واحدة متضامنة يحض بعضها بعضاً على فِعْل الخيرات وتَرْك المنكرات، وقد بيَّنت النصوص ما ينال التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرتهم على ذلك، فقال الله - تعالى -: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٥]. فما ذكر الله - تعالى - نجاة أحد غير القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الواقعون في المعصية والساكتون عن إنكارها، فقد عمَّهم عقاب الله، تعالى.

وقد دلَّت السُّنة على مثل ما دلَّ عليه القرآن؛ فقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيِّروه إلا عمَّهم الله - تعالى - منه بعقاب»(١)، وفي رواية: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي يَقْدرون أن يُغَيِّروا عليهم ولا يُغَيِّروا؛ إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا». وعندما دخل الرسول ﷺ على زوجه زينب بنت جحش فزعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب؛ فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه؛ وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زوجه السيدة زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم! إذا كثر الخبث»(٢). فإذا كثر الخبث ولم ينكر الصالحون على الخبيثين خبثهم أو يسعوا في التغيير، عمَّهم العقاب: الطالح منهم والصالح. وما يقدِّره الله - تعالى - على الساكتين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس فيه ظلم لهم؛ فإن كان الأولون استحقوا العقوبة بظلمهم وارتكابهم المعصية، فإن الساكتين يستحقون العقوبة بظلمهم أيضاً وسكوتهم عن العصاة مع قدرتهم على التغيير، وفي هذا بيان منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعقوبة المتقاعس عن القيام به، وهو ما يحمل الناس على الحرص على القيام بهذا الواجب الذي تصلح به المجتمعات في أمور الدين والدنيا.

وغير المباشِرين للمعصية الذين تدركهم عقوبة الله في الدنيا يأبى الله بعدله أن يعاملهم في الآخرة كما يعامل المباشِرين للمعصية، حتى وإن كانوا مصاحبين لهم؛ فعن عائشة - رضي الله تعالى عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «يغزو جيش الكعبة؛ فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم. قالت: قلت: يا رسول الله! كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: يُخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم»(٣)؛ فبين ﷺ أن العذاب الدنيوي يعمُّ الجميع، وأما الحساب في الآخرة فبحسب عمل كل شخص ونيَّته، وفي هذا أبلغ التحذير من مصاحبة المفسدين أهل الشر أو الاجتماع معهم في صعيد واحد، حتى وإن كانوا يكرهونهم ويخالفونهم، بل عليهم أن يهجروهم ويهجروا أماكن وجودهم حتى لا يصيبهم ما أصاب القوم الظالمين.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. قال الشيخ الألباني: صحيح. انظر حديث رقم: ٥٧٤٩ في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه البخاري.

٣ - **تبليغ المؤمن درجات عليا ليس عنده من العمل ما يؤهله لها:** أعد الله لبعض الناس - لِمَا قام بقلوبهم من حقائق الإيمان، أو فضلاً منه ونعمة - من المنازل والدرجات العليا ما قد علم أن أعمالهم التي أسلفوها لا تُبلِّغهم ذلك؛ فيكون البلاء النازل والصبر فيه وعدم الجزع والرضى عن الربِّ مقدِّر المقادير، عوضاً عن الأعمال ومبلِّغاً لهم المنازل التي جعلها الله لهم.

٤ - **ظهور عبودية الناس لرب العباد:** من خصائص الأمور الشديدة والأحداث الكبيرة أن تدفع الناس إلى الشعور بضآلة أنفسهم وقلة حيلتهم؛ وهو ما يحملهم على إظهار العبودية لله - تعالى - وإخلاصهم في صدق اللَّجأ إليه والتضرع والاستكانة بين يديه؛ وهو ما ينقل العبد في مراتب عالية - إذا استمر على ذلك - لم يكن من السهل الوصول إليها بغير ذلك الطريق.

٥ - **ترهيب الطغاة وتأمين الضعفاء:** هذه الكوارث الشديدة التي تحدث في فترات وجيزة جداً لم يتوقعها أحد، فيها بيان لعظمة الله وقدرته على أن يفعل ما يشاء كيف شاء وأن قُدْرَته لا تحدُّها النواميس أو القواعد الكونية؛ لأن الكل مخلوق لله، تعالى. والمسلم يوقن بذلك بلا ريب؛ إلا أن رؤيته ذلك محقَّقاً في واقع الأمر له وَقْع إيماني خاص به، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن ما يراه الإنسان من السرعة المذهلة في وقوع الكارثة التي لا تخطر لأحد على بال، تحمل الظَلَمة والطغاة على الخوف من بطش الله وعقابه، وهو ما قد يكون سبباً في توبتهم وإنابتهم، كما تبعث في نفس المؤمن اليقين في أن الله - تعالى - حَكَم عدل وأن أحداً من الطغاة الظلمة لن يفلت من عقابه، وأن الله - تعالى - لا يعجزه شيء؛ فتطمئن قلوبهم إلى قرب نصر الله وإعانته لهم.

٦ - **بيان تضامُن المسلمين مع بعضهم ووقوفهم في صف واحد لمواجهة الأخطار:** كما جاء في الحديث: «مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1]. والله قادر على أن يدفع عن عباده ما يسوؤهم، لكنه يحب أن يرى عطف المسلم على أخيه؛ بحيث من لا يقوم بذلك في مثل هذه المواقف العصيبة التي تمر بجماعة المسلمين، فكأنه ليس عضواً من أعضاء تلك الجماعة.

إن الكوارث والابتلاءات التي تحل بالمسلمين لها حِكَم متعددة كما رأينا، وتكشف عن أمور كثيرة، والمطلوب منا أن لا تمر هذه الكوارث علينا من غير أن نوظفها أعظم التوظيف في الاستفادة من جميع جوانبها

٧ - **الكشف عن الإهمال الواقع من بعض المسؤولين أو الخيانة في القيام بما يجب عليهم القيام به:** إن الحياة لا تخلو من بعض جوانب الفساد في إدارة المجتمعات وفي التصرف في الأموال المخصَّصة لصلاح تلك المجتمعات؛ فتكشف الكارثة حجم الزور الذي يتبيَّن معه أن جُلَّ النفقات على مرافق المجتمع ذهبت سدىً لم ينتفع الناس منها بشيء.

إن إهمال الأسباب والتواكل أو التكاسل يُنتِج تلك الكوارث وما يستتبعها من مِحَن وآلام، وهذا ربما دفعهم إلى المسارعة والأخذ بالأسباب ورَتْق الخروق؛ فيمنع ذلك من كارثة أشد وأقوى إذا جاءت بمعدلات أقوى من سابقتها، فكانت تلك المصيبة على ما فيها من آلام درءاً لمصيبة أعظم وكارثة أفدح.

إن الكوارث والابتلاءات التي تحل بالمسلمين لها حِكَم متعددة كما رأينا، وتكشف عن أمور كثيرة، والمطلوب منا أن لا تمر هذه الكوارث علينا من غير أن نوظفها أعظم التوظيف في الاستفادة من جميع جوانبها؛ فيُحدِث ذلك لدينا عظة وتذكُّراً وخوفاً من الله ورغبة في المسارعة في عمل الخيرات، كما تُحدِث لدينا الرغبة الأكيدة في الأخذ بالأسباب التي كان إهمال العمل بها مدعاة لزيادة الدمار الحالِّ بمجتمعات المسلمين بمعدلات غير مقبولة ولا منتظرة، وإن من أكبر الأخطاء التي يقع فيها كثير من الناس هو النظر إلى أن تلك الكوارث لا علاقة لها من قريب أو بعيد بعلاقة العباد برب العباد، كما أن من الأخطاء الظن أن الأخذ بالأسباب وعدمه سيان، وأن المقدَّر واقع لا محالة مع أن الأسباب جزء من القَدَر.

نسأل الله - تعالى - أن يحفظ الأمة من الشرور كلها والحوادث أجمعها، كما نسأله أن يرزقنا الفقه في التعامل الصحيح مع هذه الحالات، وأن ينجي المسلمين وديارهم من الكوارث والشرور.

(١) أخرجه مسلم وغيره.

المَحْرَم في سفر المرأة

كشف الغلَط وموضع الشبهة

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد، فقد دلت النصوص الشرعية والآثار السلفية، على لزوم المحرم للمرأة في السفر، ونقل الإجماع على عدم جواز سفر المرأة بغير محرم عدد من أهل العلم(١)، ونوزع في صحة الإجماع بأقوال ينازع في خرق مثلها له إما لشذوذها أو تأخرها عنه، وهذا ظاهر في السفر المباح، وأياً ما كان فإن جماهير علماء الأمة على تحريم سفر المرأة بغير محرم إلاّ لضرورة، واختلفوا في حج الفريضة والنافلة، وعدّى الخلاف بعضهم إلى كلّ سفر طاعة(٢)، وقالت طائفةٌ من الفقهاء بجواز سفرها بغير محرمٍ للمباح مطلقاً(٣)، وهم قِلّةٌ وإن كان الحق يعرف بالدليل.

(١) كالقاضي عياض كما في الفتح الرباني ص ١٧٠، والبغوي كما نقل ابن حجر في الفتح ٤/ ٧٦.
(٢) انظر الموسوعة الفقهية ٢٢/ ٣٠٠، والفواكه الدواني على رسالة القيرواني للنفراوي، وكذا قال بعض الشافعية خلافاً لنص الإمام، انظر الغرر البهية في شرح البهجة الوردية لزكريا الأنصاري ٢/ ٢٧٠، ووجهه شيخ الإسلام في موضع ونقضه في آخر انظر الفتاوى الكبرى ٥/ ٣٨١، وشرحه على العمدة ٢/ ١٧٢ وما بعدها.
(٣) ينظر الحاوي الكبير للماوردي ٤/ ٩٢٤.

إبراهيم عبد الله الأزرق



والواجب عند الخلاف - إجماعاً - الرَّدُّ إلى الكتاب والسُّنة، والتزامُ ما ظهرت دلالتهما عليه، وليس لأحد أن يقدِّم على ذلك قولَ أحدٍ من العالمين كائناً من كان. قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، وتأمَّل قوله - سبحانه -: «ذلك خير» تعلم أن الخير في الرد إلى الكتاب والسُّنة والمصلحة في ذلك، وإن توهم متوهم خلافه. قال الشوكاني: «اتفق المسلمون سلفهم وخَلَفهم من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا (وهو القرن الثالث عشر منذ البعثة المحمدية) على أن الواجب عند الاختلاف في أيِّ أمر من أمور الدين بين الأئمة المجتهدين؛ هو الرَّدُّ إلى كتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنَّة رسوله ﷺ؛ النَّاطقُ بذلك الكتاب العزيز: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ومعنى الرد إلى الله - سبحانه -: الرد إلى كتابه، ومعنى الرد إلى رسوله ﷺ: الرد إلى سُنته بعد وفاته، وهذا مما لا خلاف فيه بين جميع المسلمين»[١].

«فما جاء به الكتاب والسُّنة من الخبر والأمر والنهي وجب اتِّباعه، ولم يُلتفَت إلى مَنْ خالفه كائناً من كان، ولم يجز اتباع أحدٍ في خلاف ذلك كائناً من كان، كما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة من اتِّباع الرسول وطاعته»[٢].

قال الإمام الشافعي: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سُنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[٣].

فإذا كان الأمر كذلك؛ فقد دلَّت النصوص الشرعية على حرمة سفر المرأة بغير محرم ولو للحج ولو مع رفقة، مع أن الخلاف في الأخير سائغ، والقائل به معذور في ترك قول الرسول ﷺ؛ إن اشتبه عليه - بعد البحث - الدليل؛ إلا أن الشأن الكبير مع من ينادي بإسقاط المحرَم؛ فلا هو يشترطُه ولا يندب إليه في كلِّ سفر، بل ربما حارب الأنظمة الملتزمة به، ونَبَذها بالألقاب؛ فهذا هو المفارق لسبيل المؤمنين، وأما إن كان يقول بمجرد الجواز ويزعم أن ما ندبت إليه الشريعة فضيلةٌ تنبغي مراعاتها بَيْد أنه يسوغ تركها لأدنى حاجة؛ فهذا قائل بقول شاذٍّ، مخالفٌ للدليل، مستندٌ إلى شبهات لا مستمسك له فيها، وفي ما يلي البيان والله المستعان.

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور: من صدر مقدمته.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/٣٨٣.
(٣) انظر الروح لابن القيم: (ص٣٩٦)، ورسالة السيوطي: الاحتجاج بالسُّنة.

من أدلة لزوم المحْرَم للمرأة في سفرها:

جاء في الصحيحين عن جمع من الصحابة - منهم أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وابن عمر وابن عباس، رضي الله عنهم - النهي عن سفر المرأة بغير محرم:

١ - فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً، إلا ومعها أبوها أو ابنها أو زوجها أو أخوها أو ذو محرم منها»[٤].

٢ - وعن قَزَعَةَ مولى زياد قال: سمعت أبا سعيد وقد غزا مع النبي ﷺ ثنتي عشرة غزوة قال: «أربع سمعتهن من رسول الله ﷺ، أو قال: يحدثهن عن النبي ﷺ فأعجبنني وآنَقْنَني: أن لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم...» الحديث[٥].

فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والأمر والنهي وجب اتّباعه، ولم يُلتفت إلى من خالفه كائناً من كان، ولم يجز اتباع أحدٍ في خلاف ذلك كائناً من كان

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم»[٦]، وفي رواية لمسلم: «لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو محرمة منها».

٤ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم»[٧].

٥ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»، فقال رجل: يا رسول الله! إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج، فقال: «اخرج معها»[٨].

(٤) رواه مسلم: (١٣٤٠).
(٥) رواه البخاري: (١٧٦٥)، ومسلم: (٨٢٧). آنقنني: أعجبنني.
(٦) رواه البخاري: (١٠٣٨)، ومسلم: (١٣٣٩).
(٧) رواه البخاري: (١٠٣٦)، ومسلم: (١٣٣٨).
(٨) رواه البخاري: (١٧٦٣)، ومسلم: (١٣٤١).

وقد جاءت هذه الأحاديث بألفاظ أخرى صحيحة في غير الصحيحين: كقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «لا تسافر امرأة بريداً إلا ومعها ذو محرم»[1].

دلالة اختلاف مدة المنع من السفر في ألفاظ الأحاديث:

«قال العلماء: اختلاف هذه الألفاظ لاختلاف السائلين واختلاف المواطن، وليس في النهي عن الثلاثة تصريح بإباحة اليوم والليلة أو البريد. قال البيهقي كأنه ﷺ سئل عن المرأة تسافر ثلاثاً بغير محرم، فقال: لا، وسئل عن سفرها يومين بغير محرم، فقال: لا، وسئل عن سفرها يوماً، فقال: لا، وكذلك البريد؛ فأدى كلٌّ منهم ما سمعه.

وما جاء منها مختلفاً عن رواية واحد فسَمِعَه في مواطن، فروى تارة هذا، وتارة هذا، وكله صحيح، وليس في هذا كله تحديد لأقل ما يقع عليه اسم السفر، ولم يُرِد ﷺ تحديد أقل ما يسمى سفراً؛ فالحاصل أن كل ما يسمى سفراً تُنهى عنه المرأة بغير زوج أو محرم، سواء كان ثلاثة أيام أو يومين أو يوماً أو بريداً أو غير ذلك؛ لرواية ابن عباس المطلقة، وهي آخر روايات مسلم السابقة: «لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم»، وهذا يتناول جميع ما يسمى سفراً، والله أعلم»[2].

وقد ذكر ابن حجر أن على هذا عمل أكثر العلماء[3]، وهو اختيار جَمْع من المحققين[4].

وههنا نكتة يَحْسُن التنبيه عليها تُعِين على الفهم والترجيح، وهي: أن المطلق إنما يُحمَل على المقيد عند الجمهور؛ لأن ذلك يفضي إلى العمل بالدليلين، فإذا أفضى الحمل إلى إلغاء أحد الدليلين كان التقييد محل نظر.

بيان ذلك: إذا قال صاحب الشرع: أعتقوا رقبة، ثم قال في موطن آخر: رقبة مؤمنة، فمدلول قوله الأول (رقبة) مطلق، شامل شمولاً بدلياً كل رقبة يصح الامتثال بأي منها، فمن أعتق رقبة مؤمنة فقد وفَّى مقتضى اللفظين؛ فتعين حَمْله المطلق على المقيد ههنا جمعاً بين الدليلين.

أما إذا قال صاحب الشرع: لا تعتقوا رقبة، ثم قال: لا تعتقوا رقبة كافرة، لم يجز حمل الأول على الثاني؛ لأن في ذلك تخصيصاً للرقاب المؤمنة بجواز العتق مع أن عموم النهي في اللفظ الأول يشملها؛ فالحَمل هنا إلغاء لمقتضى العموم، وقد بسط التنبيه على هذا القرافي في الفروق فليُنظَر[5].

وهكذا قوله في حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لا تسافر امرأة إلا مع ذي محرم»، فيه نهي عن كل ما يسمى سفراً[6]؛ فلا يلغي ذكر ثلاثة الأيام أو اليومين أو اليوم، شمول لفظ حديث ابن عباس لما عدا ذلك مما يسمى سفراً. يعزز هذا المعنى الاختلاف في عدد الأيام القاضي بمنع التخصيص بالمفهوم، على أن مسلك تخصيص المنطوق بمفهوم المخالفة ضعيف أصلاً عند الأصوليين، بل لو لم يَرِد منطوق يعارض المفهوم، فحجية مفهوم المخالفة مختلَف فيها عندهم، ومثال هذا الذي يوضحه: لو قلت لك: لا تُهِن زيداً، ثم قلت لك: لا تُهن زيداً بضربه، لا تهن زيداً بشتمه، لم يكن لك أن تهينه بشيء مطلقاً: لا بالبصق عليه ولا بإلقائه من شاهق ولا بضربه أو شتمه... وغاية ما استفدناه من النهي عن الضرب والشتم أن الضرب والشتم داخل قطعاً في مرادك بالإهانة، وكذلك ما أفاده ذكر اليوم والليلة والثلاث هو دخول تلك المسيرة في مسمى السفر لا إخراج ما عداها.

الحكم المقصود تقريره:

من الأحكام التي تدل عليها الأحاديث المذكورة لزوم المحرم للمرأة في سفرها (ولو لواجب) وتحريم سفرها بدونه إلا لضرورة؛ لصريح النهي، وصريح الأمر، وصريح منع الحِل: «لا تسافر»، «اخرج معها»، «انطلق فحج مع امرأتك»، «لا يحل لامرأة»، وقد دلَّ حديث ابن عباس على لزوم المحرم للمرأة وإن كانت في رفقة مأمونة، كمن كانت في رفقة خير الأمة من الصحابة والصحابيات، رضي الله عنهم أجمعين؛ وذلك لأنه أَمَرَ الرجلَ والأمْرُ يقتضي الوجوب، وعضد أصل دلالة الأمر الإذنُ للرجل بعد تعيينه في الغزوة، كما دلت على هذا المعنى بقية الأحاديث؛ إذ جاءت عامة تشمل كل امرأة في كل سفر كما قرر، ولم تستثنِ غير صاحبة المحرم، ولم يثبت نص

(١) رواه ابن خزيمة: (٢٥٢٦)، وابن حبان: (٢٧٢٧)، والحاكم:(١٦١٦).
(٢) شرح النووي على مسلم: ٩/١٠٣.
(٣) ينظر الفتح: ٦/٨٨، ومناقشة صاحب تحفة الأحوذي لمن قيد بالثلاثة: ٤/٢٧٩.
(٤) ومن جملتهم علماء اللجنة الدائمة، كالشيخ عبد العزيز بن باز، وعبد العزيز آل الشيخ، وعبد الرزاق عفيفي، وعبد الله بن غديان، وابن قعود، وابن منيع، وبكر أبوزيد، وصالح الفوزان، وانظر فتاوى اللجنة بالأرقام: (١٢١٣٩)، (١١٧٣)، (٧٨٥٤)، (٢٠٣٩٥)، (١٨٨١٨)، وفتاوى اللجنة كثيرة في هذا الصدد تتناول الكبيرة والصغيرة والحاجة (نفلاً أم فريضة) والمحتاجة لمرض ولم تستثن إلا حال الضرورة.
(٥) انظره في: (الفرق الحادي والثلاثون بين قاعدة حمل المطلق على المقيد في الكلي وبين قاعدة حمل المطلق على المقيد في الكلية، وبينهما في الأمر والنهي والنفي): ١/١٩٠ وما بعدها من كتابه أنوار البروق في أنواع الفروق.
(٦) وقد جاءت إشارة إلى هذا المسلك في الاستدلال في فتاوى اللجنة انظر - مثلاً -: (٢٠٣٩٥)، (١٦٠٤٢).

يفيد الترخيص عند التمحيص، اللهم إلا لضرورة، يقررها أهل الشأن.

هل مقاصد الشريعة تقتضي الترخيص لها في السفر مع رفقة مأمونة بدون محرم؟

أخطأ من ظن أن مقاصد الشريعة لم تبصرها جماهير فقهاء الأمة القائلون بمنع سفر المرأة بغير محرم، ومنشأ غلطه توهُّمه أن الشريعة قصدت فقط إلى حماية المرأة ممن أراد الفجور بها قسراً. وهذا تصور قاصر، بل قصدت الشريعة إلى حماية المرأة من الفاحشة وأسبابها، وإلى صيانتها عن الابتذال الذي يُحْوِجُها للغريب، ويأطرها إلى طلب حاجاتها خاضعة، بل حفظتها من أسباب الخواطر والظنون الفاجرة الكاذبة؛ حتى لا يجد مريض القلب أدنى شبهة يشيع بها قالة السوء، وأي قالة تؤمَن بعد حادثة الإفك، وقوله ﷺ: «على رِسْلِكما إنها صفية»[1]. وقصدت الشريعة إلى حفظ المرأة (ولو كانت متجالة كبيرة) من ظلم الإنسان، قصدت الشريعة إلى حفظ النساء من تطاول الأعناق، ومن منَّة الغريب الآسرة، قصدت إلى تكريم المرأة الحرة المسلمة؛ ولها في هذا القصد من الحِكَم في تشريعاتها ما تقصر دون استيعابه بأجمعه العقول البشرية القاصرة.

مما يستدل به من قال بجواز سفرها في رفقة مأمونة مطلقاً:

أظهرُ ما قد يشتبه على بعضهم فيتشبث به خبران:

الأول: خبر الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله.

والثاني: حجة أزواج النبي ﷺ زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهن وعنه.

وفيما يلي الأجوبة عمَّا استدلوا به:

أما من استدل على الجواز بخبر الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله[2]، فما أصاب؛ إذ ليس في الخبر المحفوظ أنها ترتحل وحدها، والأصل في الظعينة عند العرب المرأة في الهودج كما ذكر ابن الأنباري ثم أُطلق على زوجة الرجل[3]، ولا تسمى كل امرأة راكبة: ظاعنة من حيث الأصل الوضعي؛ إلا إذا ركبت ما ترحل فيه عادة وهو الهودج، بل قالوا: الظعائن: الهوادج كان فيها نساء أو لم يكن، وهذا أصح القولين[4]، وما ورد في بعض الروايات من قوله: في غير جوارٍ (أي: خفارة أو حماية ولو بعهد) لا يلزم منه عدم وجود رفقة؛ فالرجل قد يُجار والمرأة قد تُجار والقافلة قد تحتاج إلى جوار.

فإذا تبيَّن هذا عُلِم أن الحديث المحفوظ لم يذكر سفرها وحدها دون محرم، وعُلم أن لفظ الظعينة نفسَه يلزم منه وجود سائق مرشد للطريق؛ لكون أصله اللغوي (وهو ارتحال المرأة في هودجها) أَوْلى بالحمل عليه من غيره، ومِن لازِمِه أن يكون سائقٌ لها.

ثم لو سُلِّم جدلاً بأن دلالته الظاهرة إنما هي على سفرها وحدها؛ فهو إخبار عن واقع قد عُلِم إنكاره والنهي عنه بنص آخر؛ وليس الإخبار بوقوع شيء دليلاً على جوازه، كما أن الخبر بوقوع كثرة الهرج والزنا آخر الزمان لا يدل على جوازهما، ولا يصح حمل حديث عدي على وجه يناقض نهياً ثبت ليُصرف به مقتضاه. قال ابن رجب: «وهذه قاعدة مطَّردة، وهي: أنَّا إذا وجدنا حديثاً صحيحاً صريحاً في حكم من الأحكام، فإنه لا يُردُّ باستنباطٍ من نَصٍّ آخر لَمْ يُسَق لذلك المعنى بالكلية؛ فلا تُرَدُّ أحاديث تحريم صيد المدينة بما يستنبط من حَدِيث النُّغير، ولا أحاديث توقيت صلاة العصر الصريحة بحديث: «مَثَلُكم فيما خلا قبلكم من الأمم كمثل رَجُلٍ استأجر أجراء...»[5]، الحديث، ولا أحاديث: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة» بقوله: «فيما سقت السماء العشر»[6]

هذا مع أنه لا يُتصَوَّر سفر المرأة ذات الزوج (الظعينة) في العهد الأول - الذي أدركه عدي بن حاتم - رضي الله عنه - وشهد على تحقُّق ما أخبر به الرسول ﷺ - وحدها إلا لضرورة، وإن لم تَخَفِ العدوان؛ للمشقة واحتياجها إلى من يخدمها؛ فكيف وسفر المرءِ وحده؛ ولو كان رجلاً شديداً مُنَفَّرٌ عنه عند أهل العلم؟

ثم إن القائل بظاهر الحديث - إن سُلِّم له بأن الظاهر ما زعم - يلزمه القول بإقرار سفر المرأة دون محرم مطلقاً لحج أو عمرة؛ مع رفقة مأمونة أو بدونها، ولا يدل على جواز سفرها المباح.

---

(١) إشارة للحديث المتفق عليه، وتأمَّل كيف أن الرفقة النبوية عند باب المسجد في ليالي العشر لم يأمن معها ﷺ أن ينقذف ظن السوء في نفوس الصحابة.

(٢) ينظر صحيح البخاري: (٣٤٠٠).

(٣) لسان العرب: ١٣ / ٢٧٠.

(٤) صححه ابن فارس، انظر معجم مقاييس اللغة، مادة (ظعن)، ص٦١٦.

(٥) أخرجه البخاري بلفظ: « مثلكم ومثل أهل الكتابين...»

(٦) فتح باري ابن رجب: ٤ / ١٥٤.

وأما استدلال بعضهم بحج أزواج النبي ﷺ زمن عمر دون نكير، ودعوى بعضهم أن ذلك بمثابة الإجماع، فدعوى اشتملت على أغلاط، منها: أن بعض أزواج النبي ﷺ ما حججن أصلاً كسودة وزينب، رضي الله عنهما. ذكره ابن سعد[1] وغيره، وقد قالت زينب وسودة: لا تحركنا دابة بعدما سمعنا رسول الله ﷺ، تريدان الحديث: «هذه ثم ظهور الحصر»[2].

ومنها كذلك أن افتراض سفرهن دون محرم افتراض مرفوض، لمخالفته نهي المرأة عن السفر إلا مع ذي محرم؛ فالأصل التزامهن بالأمر والنهي، ولا تقيَّد دلالة الأمر والنهي بفَرَض محتمل لم يثبت، ثم إن أفعال الملتزِم بالشرع ينبغي أن تُحمَل على مقتضى دليل الشرع؛ فلا تعطَّل دلالة دليل ولا يرمى صحابي بمخالفة لم تثبت، وهذا مقتضى حُسْن الظن الواجب بأولئك القوم، رضي الله عنهم.

وبكل حال لا يسوغ تأويل دليل الشرع بالمحتمل من أفعال الخلق، ومَنْ صرف الدليل الشرعي الثابت عن وجهه بمحتمل فما أصاب.

ولا يصح أن يزعم زاعم أنه لم يحج من محارم فلانة من أزواج النبي ﷺ أحد تلك الحجة؛ لأنه لم يُنقَل؛ فالمتقرر أن عدم النقل ليس نقلاً للعدم، وعدم العلم ليس علماً بالعدم، والجهل لا يلغي إطلاق النص؛ فكيف وقد جرت العادة بسفر النساء مع محارمهن إلا من ضرورة ولا سيما في ذلك العهد؟ وهذه العادة المستقرة في غير حال الضرورة أصل يجب أن يُستصحَب.

فكيف وقد عُلِم معها أن بعض محارم أزواج النبي ﷺ لم يكونوا يتخلفون عن خير نسائهم؟ فمعاوية - مثلاً - إبَّان إمرة الشام أواخر خلافة عمر ربما جاء فحج مع عمر - رضي الله عنهما -[3] وهو أخو أم حبيبة رملة، رضي الله عنها.

وكان في حجة عمر - رضي الله عنه - الأخيرة التي كانت فيها حملة أمهات المؤمنين الزبير بن العوام - رضي الله عنه -[4] ويَبْعُد أن يتخلف عنه ابنه وعائشة - رضي الله عنها - خالته، وكذلك محارمها من آل أبي بكر متوافرون، وكذلك ابن عمر - رضي الله عنهما - يبعد أن يتخلف عن أبيه وأخته حفصة، ولا سيما مع ما قيل في ترجمته: «كان كثير الحج؛ لا يفوته الحج كل عام»[5]، وكذلك محارم صفية من أهل الإسلام كانوا معها بالمدينة من أمثال رفاعة بن السموأل القرظي خالها، والربيع ابن أخيها وغيرهما، ويبعد تخلُّفهم عنها، وكذلك جويرية كان ثمة من إخوتها عمرو بن الحارث، وعبدالله، وابن أخيها الطفيل وغيرهم.

هل ثبت حجهن دون محارم؟

أورد بعض أهل العلم خبر حجهن بلفظ: ومعهن أولياؤهن ممن لا يحتجبن منه، ولم يثبت سنده؛ غير أن معناه صحيح في الجملة؛ فقد علمنا يقيناً بأن مع بعض أمهات المؤمنين في تلك الحَجة بعض محارمهن؛ إذ كانت تلك الحَجة آخر حَجة[6] حجها عمر، رضي الله عنه. وثبت حج بعض محارمهن مع عمر - رضي الله عنه - في آخر حجة حجَّها؛ فحفصة من محارمها عمر - رضي الله عنه - وميمونة من محارمها ابن عباس - رضي الله عنه -[7] وذكر بعض من ترجم للحسن بن علي - رضي الله عنهما - أنه حج ماشياً من المدينة حجات كثيرة قال بعضهم: خمساً وعشرين حجة[8] وذكر بعضهم خمس عشرة حجة، وذكر بعضهم عشرين حجة[9]، ولم يُعرَف انقطاعه إلاَّ عند ذهابه للكوفة عام خمسة وثلاثين، وكذا الحسين ذكروا في ترجمته أنه كان كثير الحج، وذُكر أنه قُتِل معه يوم قُتِل سبعة عشر رجلاً كلهم من ولد فاطمة، وكلهم كان بالمدينة؛ فيبعد مع ما ذُكِر ألا يكون في الحج مع عمر - رضي الله عنه - منهم أحد، وهم محارم لأمهات المؤمنين على الأصح الظاهر.

ما كل النساء يجدن محرماً؛ فماذا يصنعن؟

إذا لم تجد المرأة محرماً، فلا يخلو سفرها من أن يكون لضرورة، أو لغيرها من المباحات أو المندوبات أو الواجبات بالنذر أو أصل الشرع:

فأما سفر الضرورة، فقد تقرر أن الضرورات تبيح المحظورات؛ بَيْدَ أن الضرورة تقدَّر بقدرها ويُرجَع في تقديرها إلى أهل العلم الذين يعرفون حد الضرورة المعتبر شرعاً.

وأما السفر المباح والمندوب والنذر فليس لها أن تأتي شيئاً من ذلك بمعصية الله. وقد مضى تقرير دلالة الأحاديث على

(١) في طبقاته: ٨/٢٠٩.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد: ٦/٣٢٤، ورواه غيره جَمْعٌ، وقد حسنه الأرنؤوط وصحح إسناده غير واحد من أهل العلم، وانظر فتح الباري: ٤/٧٤، وفي رد تعليل مَنْ علله بحث ليس هذا موضعه، وهو يدل على أن سودة وزينب كانتا لا تستأذنان في الحج، وموت زينب - رضي الله عنها - قبل تلك الحجة لا يغير رأيها، والأقوال لا تموت بموت أصحابها.

(٣) الزهد لابن المبارك: ١/٢٠٣، وانظر الإصابة: ٦/١٥٤.

(٤) انظر فتح الباري: ١/٣٣٨.

(٥) انظر ترجمته في تاريخ دمشق: ٣١/١٢٢.

(٦) صحيح البخاري: (١٧٦١).

(٧) حج ابن عباس تلك الحجة ثابت في البخاري: (٣٧١٣).

(٨) انظر طبقات المحدثين بأصبهان: ١/١٩٣، وتاريخ دمشق: ١٣/٢٤٢.

(٩) انظر - مثلاً - معرفة الصحابة لأبي نعيم: ٢/٦٥٤.

نهي المرأة عن السفر بغير محرم؛ فلا يجوز أن تأتي مباحاً أو مندوباً بالوقوع في النهي الصريح، ولا أن تَنْذُر ما يتضمن فعل ما نهى الله عنه.

وأما الواجب بأصل الشرع فمن نحو سفر الحج والعمرة الواجبتين، والسفر لطلب علم واجب، أو صلة رحم واجبة، ومتى كان السفر وسيلة لواجب؛ فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذا من حيث الأصل؛ بيد أن الشرع دل على أن المرأة لا يجوز لها السفر مطلقاً بدون محرم؛ فكان الصحيح اعتبار المحرم شرطاً في وجوب سفرها للحج جمعاً بين مقتضى النصوص، وإعمالاً لها كلِّها ووقوفاً عندها، ولا سيما أن ظاهرها يقضي بأن الرفقة المأمونة لا تسد مسد المحرم في السفر لركن الإسلام ولو في عصر الصحابة؛ كما في حديث: «انطلق فحج مع امرأتك»، وليس للمرء أن يأتي طاعة من طريق مُحَرَّم؛ فلا يتحصل على المال من طُرُق منهي عنها ليتصدق به، أو ليحج به فرضه؛ لأن ذلك منهي عنه، وإن كان الحج مفروضاً عليه إذا تحقق شرطه، ولا يقال: إن المحْرَم شرط يسقط بتعذره؛ لأنه شرط للوجوب نفسه كما أن النصاب شرط لوجوب الزكاة، وليس شرطاً للصحة كالطهارة للصلاة، بدليل أنها لو حجت دون محرم وكان بوسعها أن يحج معها فحجها صحيح مجزئ مع الإثم، بخلاف ما لو صلى بغير طهارة مع القدرة عليها فصلاته باطلة؛ فتبين من هذا أن المحرم شرط للوجوب لا للصحة.

وإذا تبيَّن هذا؛ فمن لم تجد محرماً فلا يجب الحج عليها، و ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق: ٧]، والنية تبلغ ما لا يبلغ العمل، والحمد لله رب العالمين.

والعجب ممن يحتج بحديث الزهري أن عائشة أُخبرت أن أبا سعيد الخدري - رضي الله عنهما - يفتي أن المرأة لا تسافر إلا مع محرم، فقالت: (ما كُلُهنَّ من ذوات محرم، أو ليس كل النساء تجد محرماً؟)[1]. ثم لا يُستَدل بخلاف أبي سعيد لما فهمه المستدل من قولها. وأبو سعيد أسعد بالحديث. قال أبو جعفر الطحاوي - رحمه الله -: «وقد قال قوم: لا بأس بأن تسافر المرأة بغير محرم، واحتجوا في ذلك بما حدثنا يونس. قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس، عن ابن

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٤/٤٧٨ (١١)، وابن حبان في صحيحه: ٦/٤٤٢ (٢٧٣٣) والذي بعده، والبيهقي في السنن الكبرى: ٥/٢٢٦ (٩٩١٨)، وانظر الاستذكار: ٤/٤١٢.



شهاب، عن عَمْرة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها سمعتها تقول في المرأة تحج وليس معها ذو محرم، فقالت: ما لكلهن ذو محرم؛ فإن الحجة عليهم في ذلك ما قد تواترت به الآثار التي قد ذكرناها عن رسول الله ﷺ؛ فهي حجة على كل من خالفها»[2]، ولو استدل مستدل على أمرٍ الأصلُ فيه المنع بقول صحابي خالفه صحابي آخر لكان استدلاله قبيحاً؛ فعمرك الله: كيف إذا استدل بقول صاحبي خالفه صحابي آخر ونص نبوي؟ فكيف إذا كان لا يوجد تعارض أصلاً بين قولي الصحابيين وإنما توهَّم التعارضَ بعض أهل العلم؟ وإلا فقد قرر بعض الأئمة أنه ليس بين خبر أبي سعيد وعائشة تعارض أصلاً ولا فيه مستمسك للمخالف أبداً، بل قول عائشة مُعْضِد قول أبي سعيد، رضي الله عنهما.

قال أبو حاتم ابن حبان - رحمه الله - بعد أن روى الحديث في صحيحه: «لم تكن عائشة بالمتَّهمةِ أبا سعيد الخدري في الرواية؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كلهم عدول ثقات، وإنما أرادت عائشة بقول: (ما لكلهن ذو محرم)، تريد: أن ليس لكلهن ذو محرم تسافر معه؛ فاتقين الله ولا تسافر واحدة منكن إلا بذي محرم يكون معها»[3]، وقد ساق ذلك بعد أن قال: «ذكر البيان بأن المرأة ممنوعة عن أن تسافر سفراً قلَّت مدته أم كثرت إلا مع ذي محرم منها»[4]، ثم ساق حديث أبي هريرة: «لا يحل لامرأة أن تسافر إلا مع ذي محرم»، ثم قال: «ذكر لفظة تُوهِم غير المتبحر في صناعة العلم أن عائشة - رضوان الله عليها- اتهمت أبا سعيد في هذه الرواية»[5]، وساق أثر عائشة المذكور، ثم قال: «ذكر البيان بأن هذا الزجر زجر حتم لا زجر ندب»[6]، وذكر خبر عائشة وفيه التفاتها للنساء تخاطبهن. قالت عمرة: «فالتفتت إلينا عائشة: ما كلهن لها ذو محرم»، ويشهد لما قاله

(٢) شرح معاني الآثار: ٢/١١٤ - ١١٥ (٣٢٥٧) والذي قبله.
(٣) صحيح ابن حبان: ٦/٤٤٢ عند الحديث رقم: (٢٧٣٣).
(٤) صحيح ابن حبان: ٦/٤٤١.
(٥) صحيح ابن حبان: ٦/٤٤٢.
(٦) صحيح ابن حبان: ٦/٤٤٣.



ابن حبان أن عائشة نفسها - رضي الله عنها - روي عنها قولها: «وجد في قائم سيف رسول الله ﷺ كتابان: ... وفي الآخر ... ولا تسافر المرأة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم»[1].

ومن طلب النَصَفة علم أن العبارة الآنفة التي يتشبث بها المخالف عن أم المؤمنين لا تساوي قولها: من لم تجد المحرم أو لم يكن لها محرم فلْتسافر لوحدها.

فعليك أخا الإسلام باتباع البَيِّن المحكم الحجة، وترك المتشابه المشكل؛ فتلك سبيل الراسخين.

إن حجتهن مع عمر دليل على استفراغ الجهد في صيانة المرأة وأن ذلك من إكرامها:

قال ابن سعد: «كانت الحجة التي حج فيها عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين، وهي آخر حجة حجها عمر، أرسل إليه أزواج النبي ﷺ يستأذِنَّه في الخروج فأذن لهنَّ، وأمر بجَهازِهن؛ فحُمِلن في الهوادج عليهن الأكسية الخضر، وبعث معهنَّ عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان؛ فكان عثمان يسير على راحلته أمامهن؛ فلا يدع أحداً يدنو منهن، وكان عبد الرحمن يسير على راحلته من ورائهن؛ فلا يدع أحداً يدنو منهن، ينزلن مع عمر كل منزل.

عن عبد الرحمن قال: أرسلني عمر وعثمانَ بأزواج رسول الله ﷺ السنة التي توفي فيها عمر يحججن؛ فكان عثمان يسير أمامهن؛ فلا يترك أحداً يدنو منهن ولا يراهن إلا من مد البصر، وعبد الرحمن بن عوف خلفهن يفعل مثل ذلك، وهنَّ في الهوادج وكانا ينزلان بهنَّ في الشعاب فيقيلانِهنَّ في الشِّعْب وينزلان في فيِّ الشعب ولا يتركان أحداً يمر عليهن»[2].

وقال: «عن أم معبد بنت خالد بن خليف قالت: رأيت عثمان وعبد الرحمن في خلافة عمر حاجاً بنساء رسول الله ﷺ؛ فرأيت على هوادجهن الطيالسة الخضر، وهن حجرة من الناس، يسير أمامهن ابن عفان على راحلته، يصيح إذا دنا منهن أحد: إليك إليك؛ وابن عوف من ورائهن يفعل مثل ذلك»[3]، وقال: «كان عثمان ينادي: ألا لا يدنُ إليهن أحد، ولا ينظر إليهن أحد، وهنَّ في الهوادج على الإبل، فإذا نزلن أنزلهن بصدر الشعب، وكان عثمان وعبد الرحمن بذنَب الشعب فلم يصعد إليهن أحد»[4]، وقال: «عن المسور ابن مخرمة قال: ربما رأيت الرجل ينيخ على الطريق لإصلاح رحل أو بعض ما يصلحه من جهازه، فيلحقه عثمان وهو أمام أزواج النبي ﷺ؛ فإن كان الطريق سعة أخذ يمين الطريق أو يساره فيبعُد عنه، وإن لم يجد سعة وقف ناحية حتى يرحل الرجل أو يقضي حاجته، وقد رأيته يلقى الناس مقبِلين في وجهه من مكة على الطريق، فيقول لهم: يمنة أو يسرة فينحِّيهم؛ حتى يكونوا مد البصر حتى يمضين»[5]...

فعمرك الله لو حظيت امرأة بمثل هذه الصيانة، يقوم على شؤونها طائفة من العشرة المبشرين بالجنة، هم أركان الدولة أصحاب شوراها وولاة أمرها، وهنَّ بتلك المثابة المعلومة عند المؤمنين، أكان ينكر أحد أمرهم وإن قال بخلافهم؟ وهل شأن أولاء من قبيل ما نحن فيه اليوم؟

فكيف وقد علمت أن المحارم والأرحام والخدم والحشم لا يمكن أن يتخلفوا عن أمهات المؤمنين، ولو وضع الفاضل المخالف نفسه مكان أولئك القوم لأدرك بشعوره وحسه أنه لا يمكن أن يتخلف عن مثل أمهات المؤمنين اللائي خرجن بعد طول احتباس، فكيف يرمي جميع محارم أمهات المؤمنين - رضي الله عنهم ورحمهم - بما يأنف أن يُنسَب إليه هو لو كان في عير القوم أو نفيرهم؛ فكيف بتلك الثلة وهم أنخى وأزكى وأحمى، وأحرص على البر والتقوى؟ هذا لا يكون أبداً.

واللهَ أسأل أن يفتح علينا فهماً وعلماً، وأن يهدينا لشرعه، وأن يفقهنا في دينه، والحمد لله أولاً وأخيراً وصلى الله على نبينا وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده: ٨/١٩٧ (٤٧٥٧)، والبيهقي في الكبرى: ٥/٢٩ (١٥٦٩٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/٢٩٥: «رجاله رجال الصحيح غير مالك بن أبي الرحال وقد وثّقه ابن حبان ولم يضعفه أحد»، وقد حسَّن حسين سليم أسد إسناده، ولعل في طريقه ضعفاً بادي الرأي.

(٢) الطبقات الكبرى: ٨/٢٠٩، وانظر سنن البيهقي: ٤/٣٢٦ (٨٤٠٤)، والأصل في البخاري: ٢/٦٥٨ (١٧٦١).

(٣) المصدر السابق: ٨/٢٠٩ - ٢١٠.

(٤) السابق ٨/٢١٠.

(٥) السابق ٨/٢١١.

الآن..



" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢-٠٥٠٢٢١٠٩٢٠- ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦- ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥-٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

السخرية بالدين وأهله
وخطورة ذلك على الأمة

د. محمد بن سعيد القحطاني(*)

إن من خصائص هذا الدين وهو يُعرض في الكتاب والسنَّة بكل أركانه وفروضه وواجباته وسننه ومستحباته، أنه لم يهمل بيان ما ينقضه ويعارضه، بل كانت نصوص الكتاب والسنَّة واضحةً جليةً في بيان كل نواقض الإسلام وهديه، وعَرْض كل ما يهدم الشريعة ويحارب السنَّة؛ ليكون المسلم على بيِّنة من أمره، وليهتدي من يهتدي عن بيِّنة، ويَضِلَّ من يضل عن بيِّنة؛ ولهذا فإن من يلقي نظرة على نصوص التحذير من الشرك أو خطورة النفاق، أو ضلال البدعة، فإنه يدرك أن روعة ونصاعة عرض الحق في النصوص الشرعية لا يقل عن ظهورها وتمام بيانها في عرض نواقض الشرع، وقوادح العقيدة.

وإن من النواقض الخطيرة التي تتكرر في حياة الناس عبر القرون والأزمان: ظاهرة الاستهزاء والسخرية بالدين وأهله... تلك الآفة التي قد تُخرج صاحبها من الملة وهو لا يعلم؛ وهنا مكمن الخطر.

انظر - مثلاً - إلى غزوة تبوك (غزوة العسرة)؛ حيث خرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة النبوية في فصل الصيف، وشدَّة الحر قاطعين مسافة لا تقل عن سبعمائة كيلو متراً إلى تبوك، وفي عرض الطريق جلس نفر من الجند يتحدثون، ويمزحون، ويضحكون، فقالوا: ما رأينا مثل قرَّائنا أرغب بطوناً ولا أجبن عند اللقاء؛ يريدون بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فنزل فيهم الوحي مباشرة في سورة براءة: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]؛ فهل شفع لهم الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد؟ لا! هل تَرْكُهم للأهل والأولاد والأوطان شفع لهم؟ لا! هل خروجهم في فصل الصيف وشدَّة الحر والجوع والعطش الذي كابدوه شفع لهم؟ لا! هل رسول الله ﷺ (وهو أرحم الناس بالناس، وأقبل الناس عذراً للناس) قَبِل عذرهم؟ لا! هل قولهم لرسول الله ﷺ: إنما كنا نخوض ونلعب قُبِل منهم؟ لا! لقد تعلقوا بنسعة مركب رسول الله ﷺ، وطلبوا العذر، وحلفوا أنهم لم يقصدوا إلا اللعب، فلم يأبه بهم رسول الله ﷺ؛ وإنما أخذ يقرأ عليهم قوله - تعالى - : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

وإن الناظر اليوم إلى حال أمتنا لَيَجِد ما يفطِّر قلبه؛ فهذا شاعر حداثي أصيب بالإسهال العقلي المسمى شعراً يهزأ بالله بعبارات كفرية قذرة. وذاك صحفي أراد أن يتحدث الناس عن مقاله في الجريدة الفلانية، فسخر بأمور الشريعة، وهزأ بآيات الله وسُنة رسوله ﷺ. وذاك مهرج اتخذ «الفن» مأدبة لإضحاك السفهاء، وهذا رسام كاريكاتير جعل من رسمه المشين مادة سخرية برسول الله ﷺ وزوجاته. وتلك امرأة عَلمانية باعت نفسها للهوى والشيطان، تسخر بالحجاب، وتعدُّد الزوجات، بل وصل بها البجح إلى المطالبة بتعدد الأزواج.

أما السخرية بالناس: في أنسابهم وخِلقَتهم ووظائفهم، وفقرهم وضعفهم وسذاجتهم وكبر سنِّهم، فحدث عن البحر تجد المزيد مما لا يحده حصرٌ ولا عدٌّ.

فما هي بواعث الاستهزاء بالدين يا تُرَى؟

(*) أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى سابقاً.

أقول: إن من أهمها الأمور التالية:

١ - خوف الملأ على مكانتهم ورتبتهم:

اســـمعْ إلـى عاد مـا قالـوه لنبـي الله هــود - عليـه السلام -: ﴿وَإِلَـى عَادٍ أَخَاهُـمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَـا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَـفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٥ - ٦٦].

وتأمَّل حال لوط - عليه السلام - مع قومه لَـمَّا نهاهم عن الفاحشة القذرة: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٢].

٢ - من بواعث الاستهزاء: الكبر، والنظر للنفس بالعجب، وللغير بالمهانة والاحتقار:

والدليل على ذلك قصة الرجلين الواردة في سورة الكهف؛ حيـث قال المتكبر لصاحبـه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَـزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. وفرعون قال في حق نبي الله موســى - عليه الســلام -: ﴿أَمْ أَنَـا خَيْرٌ مِّنْ هَـذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَـكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وقد بـيَّن الحافظ ابن كثيـر - رحمه الله - أن: «مـا قاله فرعون كذب واختلاق، حمله عليه الكفر والعناد؛ لأنه ينظر إلى موســى بعين كافرة شـقية، ولقد كان موسى - عليه الســلام - من الجلالة والعظمة والبهاء؛ في صورة تبهر أبصار ذوي الألباب، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد، وفرعون هو المَهين الحقير؛ خِلقَة وخُلُقاً وديناً»[1].

٣ - ومن بواعث الاستهزاء: الفراغ، وحب إضحاك الآخرين:

يقول معلم البشـرية الخيرَ ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من ســخط الله - تعالى - ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»[2].

وقـال ﷺ: «ويل للذي يحدِّث فيكذب؛ ليضحك القوم، ويل لـه، ويل له»، وقال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساؤه؛ يهوي بها أبعد من الثريا»[3].

وهناك بواعث أخرى للاستهزاء، لكنني اكتفيت بهذه الثلاثة؛ لشهرتها وخطورتها، وديمومتها عبر الأجيال والأعصار.

صور من السخرية المعاصرة بالله ورسوله ودينه وشرعه:

لقد ولـغ عدد: مـن الشـعراء، والكتَّاب، والرسـامين، والفنانين... وغيرهم في هذا المسـتنقع بما لا يشكُّ مسلم أنه كُفْر بواح وزندقة مخرجة من الملة:

١ - هذا شاعر شيوعي عربي يقول: «الله في مدينتي يبيعه اليهود، الله في مدينتي مشرد طريد...» إلخ ما قاله، تعالى الله عمَّا يقول المجرمون علواً كبيراً.

٢ - وزنديق آخر يقول: «نامي فعين الله نائمة عنا، وأسراب الشحارير». وهذه الكلمات الكفرية منشورة في دواوين شعرية لملاحدة عرب معاصرين.

٣ - أما رســولنا ﷺ فقد تجرأ عليه من تجرأ من زنادقة الكفر ودعاة الزندقة؛ حتى إن أحد الرسامين العرب رسم رجلاً بدوياً يرمز به لرسول الله ﷺ وهو راكب حماراً بالمقلوب، وفي أرضية الصورة ديك وتســع دجاجات، يعنون لها هذا الزنديق بعبارة: «محمد أفندي جوز التسعة»!

٤ - وكاتب ســاخر يهزأ بالصحابي الجليل أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - فيقول: «عــادل إمام مثل أبي ذر الغفاري، يمشــي وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده»، هكذا يشبِّه رموز العفن والسقوط الأخلاقي والسَّفِلة بأصحاب رسول الله ﷺ، وهم البررة الأخيار؛ فالله المستعان.

٥ - وموتورة من سَــفِلة النساء تهزأ بحجاب المرأة المسلمة فتقول: «عجبت لفتيات مثقفات؛ يلبسن أكفان الموتى وهنَّ على قيد الحياة».

والأمثلة يصعب حصرها في هذا المجال، ويكفي أن الله سمَّى المستهزئين بالمجرمين، فقال - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، وتوعـد الله وهدَّد المسـتهزئين بالعذاب الأليم، فقال - سـبحانه -: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْـخَرُونَ مِنْهُمْ سَـخِرَ اللَّـهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩]، وقال - سبحانه -: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨].

أيها الأخ المسلم المبارك! إن دينك حرَّم الاستهزاء، وجعله صفة بــارزة من صفات الكفار والمنافقــين، وتوعد عليه بالنار والعذاب الأليــم؛ فلا بد أن تكون على حذر مــن هذه الآفة التي قد تُخْرِج صاحبها من الملــة وهو لا يعلم، وكن معتــزاً بدينك، عاضّاً عليه بالنواجذ، لا تجالس الذين يخوضون ويلعبون بآيات الله، وشريعة رسول الله، حتى تكون غداً - إن شاء الله - من أصحاب الدرجات العلا، والمقامات الحميدة عند رب الأرض والسماء.

ولْتكن علــى بصيرة من أمر عقيدتــك، وأن من نواقضها الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وشريعته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: (٧/٢١٨).

(٢) انظر مسند أحمد: (٣/٤٦٩)، وابن ماجه: (٣٩٦٩)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني: (٨٨٨)، وصحيح الجامع: (١٦١٥).

(٣) انظر مسند أحمد: (٥/٥) و(٢/٤٠٢).



رهبنة و «إرهاب»

فيصل بن علي الكاملي
popedia@windowslive.com

حينما كانت الروح الصليبية قد أخذت في الانتشار في الغرب الرومي، ظهرت في القرنين: الخامس والسادس من الهجرة (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) تنظيمات رهبانية كاثوليكية لخدمة الأغراض التي تنطوي عليها «الصليبية»: من قتال أهل الإسلام واغتصاب الأراضي المقدسة. وبدأ عملهم في هذا الميدان يشمل خدمة الحجاج المزعومين إلى بيت المقدس وتأمينَ طرقهم ورعاية شؤونهم: من تقديم الطعام والدواء والمأوى.

ونظراً لأن هؤلاء الرهبان الفرسان جمعوا في تنظيماتهم بين الدين والحرب؛ فقد كانت مراسيم الالتحاق بهم أشبه ما تكون بالانضمام إلى جماعة سرية، بل إن المحققين من الباحثين يرون أن هذه المرحلة كانت بالفعل منشأً للجماعات السرية الباطنية التي سيأتي الحديث عنها في مقالات قادمة، بإذن الله.

كان الملتحقون بتلك التنظيمات يؤدون ثلاثة نذور:

- نذر الفقر.
- ونذر التبتُّل (الامتناع عن النكاح).
- ونذر الطاعة (للكنيسة البابوية وقائد التنظيم). ومن أشهر التنظيمات الكاثوليكية الرومية التي كان لها دور كبير في تعزيز الجيوش الرومية، بل في قيادتها خمسة تنظيمات:

١ - تنظيم فرسان مالطة المعروف بـ «الإسبتارية».
٢ - تنظيم فرسان الضريح الأقدس في القدس.
٣ - تنظيم فرسان الهيكل المعروف بـ «الداوية».
٤ - تنظيم فرسان القديس «إليعازر».
٥ - تنظيم الفرسان التيوتون (الألمانيون).

وسأكتفي بالحديث عن تنظيمين فقط من هذه التنظيمات الخمسة؛ لأهميتهما وورود ذكرهما في بعض المصادر الإسلامية وهما: «الإسبتارية» و «الداوية».

تنظيم فرسان مالطة «الإسبتارية»:

في عام ١٠٩٤م شن البابا «أوربان الثاني» الحملة الصليبية الأولى التي كان هدفها الأول الاستيلاء على الأرض المقدسة. وقبل استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩م تأسَّس «تنظيم القديس يوحنا» الذي أصبح يُعَرف بـ «تنظيم مالطة العسكري المستقل» أو «فرسان مالطة» اختصاراً. وبناءً على المرسوم الكنسي الذي أصدره البابا «باسكال الثاني» عام ١١١٣م انضوى التنظيم رسمياً تحت راية الكنيسة ومَنَح صلاحية اختيار رؤسائه خلفاً لـ «جيرارد المبارك»، كما أُعفي من دفع رسوم وضرائب كانت تدفعها التنظيمات الأخرى. وكانت مهمة التنظيم الأُولَى رعاية المرضى والجرحى؛ ولذا عُرِف باسم «الإسبتارية» (يعني «المتطبِّبة» أو «أصحاب المَشافي»)؛ وهي تسميته في كتب التاريخ الإسلامي.

وبعد أن أصبح «فرا [1] ريموند دو بوي» رئيساً و «سيداً» للتنظيم توجه التنظيم إلى السلك العسكري؛ ليكون حامياً للأراضي التي كان الصليبيون قد استولوا عليها؛ وبهذا جمع التنظيم بين الأعمال الإغاثية والعسكرية. وكان «فرا ريموند دو بوي» هو الذي اختار للتنظيم شعاره الذي يدعى «صليب مالطة».

وفي عام ١٢٩١م وبعد أن خسر الصليبيون «عكا» استقر فرسان مالطة مؤقتاً في قبرص. لكن الصلاحيات التي منحت للفرسان من قِبَل البابا، والتي كان منها استقلالهم عن جميع الدول باستثناء الكرسي الرسولي، وكذا السماح لهم بتكوين قوة عسكرية وشنِّ الحروب، كل ذلك جعل من فرسان مالطة كياناً مستقلاً. وفي ١٣١٠م استولوا على جزيرة «رودس» وكان رئيسهم إذ ذاك «فرا فولك دي فيلاريه»، فأصبح فرسان مالطة يُعرَفون كذلك باسم: «فرسان رودس» نسبة إلى الجزيرة. ثم قُسم أعضاء التنظيم الذين توافدوا من أقطار أوروبا إلى سبع مجموعات (ثم ثمانٍ) حسب اللسان الذي يتحدثه العضو وكل مجموعة كان لها «أديرة» و «أديرة عظمى» و «إمارات». ثم أصبح لهم أسطول كبير في البحر المتوسط شارك في كثير من المعارك ضد المسلمين.

وفي عام ١٥٢٢م هزمهم السلطان سليمان القانوني وفقدوا

(١) فرا Fra: لقب كنسي مختصر عن الكلمة الإيطالية frate، وتعني: «أخ».

سيادتهم، فتنازل لهم الإمبراطور «تشارلز الرابع» عن بعض الأقاليم. وفي عام ١٥٣٠م استولى سيدهم الأعظم «فرا فيليب دي فيلييه» على مالطة التي أصبحت وطناً لهم، وعرفوا منذ ذلك الحين باسم: «فرسان مالطة».

وفي عام ١٦٠٧م ثم ١٦٢٠م اجتمع لزعيم التنظيم لقبا «السيد الأعظم» و«أمير الإمبراطورية الرومية المقدسة». وبقي بهم الحال كذلك حتى نفاهم «نابليون بونابرت» عام ١٧٩٨م وهو في طريقه إلى مصر، فآواهم القيصر الروسي «بولس الأول» وجعل نفسه «السيد الأعظم» لهم، وبقوا في ضيافة بلاطه منذ ١٧٩٨م. وفي عام ١٨٠١م تحالف «فرسان مالطة» مع التنظيم اليسوعي ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا.



تنظيم فرسان الهيكل «الداوية»:

بعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس عام ١٠٩٩م بدأ «حجاج» النصارى - على حد دعواهم - يتوافدون على «بيت المقدس» لكن السبل إليه لم تكن تخلو من مخاطر؛ فكان لا بد من تأمين طريق الحجاج إلى بيت المقدس. عندها اجتمع عام ١١١٩م اثنان من المحاربين الصليبيين: أحدهما: الفارس الفرنسي «هيوز دي بايان»، والآخر: قريبه «جودفري دي سان أومير» واقترحا إيجاد «تنظيم» لحماية الحجيج. وافق الملك «بولدوين الثاني» على الاقتراح واقتطع لهم من أرض «المسجد الأقصى» لبناء قاعدة لهم. ولتسميتهم المسجد الأقصى «هيكلاً» عُرفوا باسم: «فرسان المسيح وهيكل سليمانَ الفقراء» أو «فرسان الهيكل»[١] اختصاراً، كما يُعرفون في المصادر العربية باسم «الداوية» ويُذكَرون غالباً إذا ذكر «الإسبتارية» (فرسان مالطة).

لكن فقر فرسان الهيكل لم يَطُل؛ فقد أسهم القديس «برنارد دي كليرفو» (الذي كان ذا مكانة في الكنيسة) في حصولهم على اعتراف رسمي من قِبَل الكنيسة في مجمع «تروي» عام ١١٢٩م. وبهذا حصل لتنظيم فرسان الهيكل من الامتيازات ما يشبه تلك الامتيازات التي حظي بها فرسان مالطة، خصوصاً أن هذا التنظيم كان تنظيماً عسكرياً منذ نشأته؛ فكان بمثابة الخط الأول للدفاع عن البقاع المقدسة بعد أن استولى عليها النصارى. لكن فرسان الهيكل امتازوا كذلك بالاشتغال بما يشبه الصرافة وأصبحوا يمتلكون ثروة كبيرة بالإضافة إلى التبرعات التي كانت تعطى لهم؛ حتى إنهم أسسوا شبكة من الصيارفة وأرباب المال في أوروبا كلها.

ولكن بعد أن هيأ الله لأهل الإسلام من يذب عن حياضه وأذل النصارى على يد صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - في معركة حطين عام ١١٨٧م خسر الفرسان قاعدتهم في بيت المقدس فترددوا بين «عكا» ثم «طرطوس» بالشام ثم «ليماسول» بقبرص؛ حيث انتقلت قاعدتهم.

لكن نفوذ فرسان الهيكل كان أقوى من أن يبدِّده انتقال القاعدة من مكان لآخر؛ فقد شكلت الحروب الصليبية بالنسبة لهم مصدر ابتزاز من عامة الشعب المتعاطف مع فرسانه. تقول «نستا وبستر» نقلاً عن الكاتب الماسوني «بارون تشودي» **Baron Tschoudy**:

(إن الحرب التي كانت بالنسبة لأكثرية المحاربين مصدر إعياء وخسائر ومصائب، أصبحت بالنسبة لهم (فرسان الهيكل) مجرد فرصة للغنائم والتعالي. ولئن كانوا ميزوا أنفسهم بأعمال باهرة قليلة، فإن الدافع لهم لم يعد أمراً مشتبهاً فيه بعد أن رُؤوا يغتنون بغنائم حلفائهم، ويزيدون رصيدهم بقدر ما أمكنهم، ويتعالون لدرجة تضاهي الملوك ذوي التيجان في الأبهة والعظمة... وأخيراً يتحالفون مع ذلك الزعيم الفظيع المتعطش للدماء المدعو شيخ الجبل، زعيم الحشاشين[٢].

عُرف هؤلاء الفرسان بعبادة إله يدعى «بافوميت» وهو روح إله الشمس «أوزيريس» وهو «كبش منديس» المعروف في الكتابات الباطنية؛ فهو بهذا إله شمس مطابق لـ «بعل» أو «لوسيفر» إله الباطنيين.

أخيراً: في عام ١٣٠٧م أمر ملك فرنسا «فيليب الرابع» باعتقال آخر قادتهم «جاك دي موليه» ومن معه من الفرسان المقيمين في فرنسا، وتبعه البابا «كلمنت الخامس» فأصدر مرسوماً في العام نفسه يدعو ملوك أوروبا إلى اعتقالهم ومصادرة ممتلكاتهم. وفي عام ١٣١٢م في «مجمع فيان» **Council of Vienne** صدر مرسومان بابويان:

أحدهما: **Vox in excelso** «صوت من العلي» جاء فيه «**بقلوب تملؤها المرارة والأسى** نلغي تنظيم الهيكل... ونحرِّم إعادته».

والآخر، هو: **Ad providam** الذي قضى بمنح ممتلكات «فرسان الهيكل» لـ «فرسان مالطة»[٣].

هنا انتشر الفرسان في أوروبا وبدؤوا يعملون في الخفاء إلى أن أعيد تنظيمهم ثانية من قِبَل أسرة «ستيوارت» الكاثوليكية في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر تحت اسم: «الماسونية»، ولهذا مزيد بيان إن شاء الله.

---

(١) وأما تسميتهم بـ «فرسان المعبد» فهو من الخطأ في ترجمة الكلمة الإنجليزية (والفرنسية) Temple.

(2) Webster, Nesta. Secret Societies and Subversive Movements (BiblioBazaar, LLC, 2008), pp. 73 – 74.

(٣) لقراءة نصي المرسومين انظر:
http://www.piar.hu/councils/ecum15.htm#BULL2

مجالس المسلمين
بين الغُنْم والغُرم

د. أحمد العمراني(*)



يقول المولى – عز وجل – في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١].

إنها آية من آيات الله، تُحدِّثنا عن أمر قد يعدُّه الكثيرون أمراً بسيطاً وهيناً، ولكنه في شريعتنا عظيم، إنه أمر مجلس المسلم وارتباط العمل الصالح به، وتعلُّق الجزاء الحسن به يوم القيامة؛ فالفسحة في المجلس للمسلم في الدنيا يرزق الله بدلاً منها يوم القيامة؛ (فالجزاء من جنس العمل) وهلمَّ جراً في كل عمل صالح.

(*) أستاذ الفقه المقارن والتفسير، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب.

إن مجلس المسلم ليس كغيره من المجالس، بل هو مجلس لـه خصوصياته وآدابه: من مجالسة ومخالطة ومعاملة... وهو مجلس مسؤول عنه من مبتدئه إلى منتهاه، وثمة فرق بين مجلس يباهي الله به ملائكته وتغشاه رحمته، أو مجلس يغشاه الشيطان.

ولكي يحصل المؤمن على المجلس الذي يرتضيه الإله، وتتحقق فيه الأوصاف المحمودة، لا بد من استقراء نصوص الشريعة الغراء المبيِّنة لهذا المطلب.

ولعل أهم نص تطالعنا به كتب السُّنة، من حيث علاقته بالموضوع، ما ذكره الحسن بن علي - رضي الله عنه - وقد سأل أباه عن مجلس رسول الله ﷺ كيف كان؟ فقال: «كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكر، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك. يعطي كل جلسائه بنصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه...

مَن جالسه أو قاومه في حاجة صابَره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطُهُ وخُلُقه؛ فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة؛ لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحُرَم، ولا تثنى فلتاته (أي: لا تشاع زلاته وهفواته؛ لا فلتات في مجلسه) متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير، يُؤْثِرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب»[1].

فمن خلال هذا النص الرائع يتبين لنا أن مجلس المسلم يستلزم شروطاً وآداباً لا بد منها، قَبْله وأثناءه وبعده.

فالمؤمن وهو قاصد مجلسه يستحضر قوله - تعالى -: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ حيث إن خطوات المسلم ليست حرة طليقة، أو مرسلة يعبث بها كيف شاء، بل هي خطوات محسوبة معدودة، إما عليه وإما له، وأول الآداب وأول عمل يجدر بالمسلم القيام به حين حضوره أيَّ مجلس ما يلي:

أولاً: آداب المجلس:

١ - مصافحة من يلتقي بهم في المجلس: لقول رسول الله ﷺ: «أيما مسلمين التقيا فأخذ أحدهما بيد صاحبه فتصافحا وحمدا الله - تعالى - جميعاً، تفرَّقا وليس بينهما خطيئة»[2]. وفي رواية: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا»[3].

٢ - الجلوس في المكان الذي يخصصه صاحب البيت: لقول رسول الله ﷺ: «ومن دخل دار قوم، فلْيجلس حيث أمروه؛ فإن القوم أعلم بعورة دارهم»[4].

٣ - الجلوس في محاذاة الناس لا في وسطهم: وهذا أدب اجتماعي كريم؛ لأنه إذا جلس في الوسط استدبر بعض الناس بظهره فيؤذيهم ذلك. ورسول الله ﷺ حذَّر من هذا، بل روي عنه: «أنه لعن من جلس في وسط الحلقة»[5] وهذا طبعاً محمول إن كان في المجلس سعة، وإلا فيجوز لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]؛ إذ الحرج مرفوع في كل شيء؛ لأن التشريع لم يأتِ إلا بما في استطاعة الإنسان؛ إذ لا تكليف بما لا يطاق.

٤ - أن لا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما: لقوله ﷺ: «لا يحل لرجل أن يفرِّق بين اثنين إلا بإذنهما»[6].

٥ - أن يجلس القادم حيث ينتهي به المجلس: كما قال جابر بن سمرة: كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي»[7]. وهذا طبعاً محمول على العادة، وإلا فإن كان القادم ذا علم ومكانة فلا بأس بوضعه في المكان المناسب له؛ فقد فعل الرسول ﷺ ذلك مع كبراء القبائل والوفود. وفي رواية الطبراني: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فإن وُسِّع له فليجلس وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يرى فلْيجلس»[8]؛ لهذا السبب جعل الرسول الكريم خير المجالس أوسعها في قوله: «إن خير المجالس أوسعها»[9].

ثانياً: مجالس الغُنْم:

تلكم جملة من الآداب يَحسُن بالمسلم الالتزام بها قبل

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٢٢/١٥٨و١٦٢/٢٢، وطبقات ابن سعد: ١/٤٢٤. وهو في مختصر الشمائل للترمذي مع اختلاف في بعض الألفاظ: ١/٢٤ بتحقيق الشيخ الألباني.

(٢) صحيح الجامع، رقم: ٢٧٤١، والجامع الصغير وزيادته: ١/٤٥١/٤١٨٧.

(٣) سنن أبي داود، رقم الحديث: ٥٢١٢. انظر مشكاة المصابيح: ٣/٢/٤٦٧٩، وأخرجه أيضاً ابن ماجه والترمذي.

(٤) المعجم الأوسط: ٦/٣٣٣، والصغير: ٢/١٦٥/٩٦٥.

(٥) سنن أبي داود: ٢/٦٧٤/٤٨٢٦ وضعفه الألباني، وسنن البيهقي: ٣/٢٣٤/٥٦٩٩، ومسند أحمد: ٥/٣٨٤/٢٣٣١١ وضعفه الأرنؤوط. وهو في ضعيف الترغيب والترهيب: ٢/١٤٩/١٧٩٨.

(٦) سنن أبي داود: ٢/٦٨٧/٤٨٤٥، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٧) سنن أبي داود: ٢/٦٧٣، رقم: ٤٨٢٥، وصححه الألباني.

(٨) المعجم الكبير: ٧/٣٠٠، ٧١٩٧، وزوائد الهيثمي: ٢/٨٦١/٩١٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٣٩٩، وفي الجامع الصغير وزيادته: ١/٤٠/٤٠٠، وانظر الصحيحة: ٣/٣١٢/١٣٢١.

(٩) مسند أحمد رقم: ١١١٩٤ و١١٧٢٣، وسنن أبي داود رقم: ٤٨٢٠، والصحيحة: ٢/٤٨٥/٨٣٢، وصحيح الترغيب والترهيب: ٣/١٠٤/٣٠٧٤.

انعقاد المجلس وأثناء الاستعداد له، وهناك آدابُ القصدِ للمجلس الذي يسعى المسلم للذهاب إليه؛ فالمجالس كثيرة. ومجالس الغُنْم هي دَيْدَن المسلم ورغبته وإليها قصده وذهابه وعليها سعيه، سواء تعلق ذلك بمجلس تحصيل العلم أو الدعوة أو التربية والتعليم أو الذكر أو للتحدث في شؤون المسلمين والتفكر في أمورهم.

١ - مجلس العِلْم:

وهو مطلوب دنيا وأخرى؛ لقول رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة»[١] وفي الآية المصدَّر بها هذا الموضوع: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] فطلاَّب العلم لهم الدرجات العلا عند ربهم؛ فكيف لا يسعى الإنسان لمثل هذه المجالس، وتحصيل العلم مطلوب في كل وقت؛ لأن حَمَلة العلم كالنجوم التي يُهتدى بها في الظلمات؟ فعن أيوب عن كاتب أبي قلابة قال: «مَثَل العلماء مَثَل النجوم التي يُهتدى بها والأعلام التي يقتدى بها إذا تغيبت عنهم تحيروا وإذا تركوها ضلوا»[٢]، وقال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في جوف البحر ليصلُّون على معلم الناس الخير»[٣].

والعلم أيضاً مطلوب؛ لأنه طريق العمل؛ فلا عمل دون علم، والله لا يُعبَد بالجهل وهو القائل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، والرسول ﷺ يقول: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٤].

والعلم إذا لم يكن له ثمرة في القلب والجوارح والمعاملات فكأنْ لم يكن، وقديماً قالت أم سفيان لابنها: «يا بني! خذ هذه عشرة دراهم وتعلَّم بها عشرة أحاديث، فإن رأيت أنها تغيِّر في مشيتك وحديثك وأخلاقك فتوكل على الله وأنا أعينك بمِرْجَلِي وإلا فاتركه؛ فإني أخشى أن يكون وبالاً عليك يوم القيامة»[٥].

وقد رفض الشارع الحكيم أن يُجعل العلم طريقاً لاختيار المجالس، فقال ﷺ: «لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس؛ فمن فعل ذلك فالنار النار»[٦]. وهو حديث ورد في رواية الدارمي منسوباً إلى لقمان الحكيم؛ حيث قال شهر بن حوشب: «بلغني أن لقمان الحكيم كان يقول لابنه: بُنَيَّ! لا تعلَّم العلم لتباهي به العلماء أو لتماري به السفهاء أو ترائي به في المجالس ولا تترك العلم زهداً فيه ورغبة في الجهالة، يا بني! اختر المجالس على عينيك وإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم؛ فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك وإن تك جاهلاً يعلِّموك، ولعل الله أن يطَّلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم؛ فإنك إن تك عالماً لا ينفعك علمك وإن تك جاهلاً زادوك غياً أو عياً؛ ولعل الله يطَّلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم»[٧].

ومجالس العلم لا تخلو من فقه ودعوة وتربية؛ إذ هي مطلوبة، سواء للتكوين أو للتربية، أو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... أو غيرها.

فهي مجالس خير؛ لأن أبسط شيء قد يتحقق فيها هو إبعاد الانسان عن أهون الشر أو هدايته إلى أقل الخير، ورسول الله ﷺ يقول في وصيته لعلي بن أبي طالب ومن خلاله لنا: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النَّعَم»[٨]، وقال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه»[٩].

والدعوة إلى الله وإلى الخير رسالة الأنبياء والمرسلين ورسالة الدعاة الصالحين. وأبناء هذه الأمة هم أفضل من يتحمل هذا الأمر من غيرهم؛ فيجب أن تأخذ من وقتهم ومالهم وجهدهم وعاطفتهم وأنفسهم نصيبها؛ لكي تنتشر الدعوة ويسود الإسلام ويعم الخير المجتمع.

ولعل تلك الجلسة الإيمانية التي أشارت إليها كلمة الصحابي الجليل معاذ بن جبل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»[١٠] أو نبَّه إليها حديث أنس الذي قال فيه: «كان عبد الله إذا لقي الرجل من أصحابه يقول له: تعالَ نؤمن بربنا ساعة، فقالها ذات يوم لرجل فجاء إلى النبي، فقال: يا رسول

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، رقم: ١٠، وصحيح مسلم، رقم: ٧٠٢٨.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٧/١٨٥/٣٥١٧٨.
(٣) سنن الترمذي: ٥/٥٠/٢٦٨٥ وصححه الألباني، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٨/٢٣٤/٧٩١٢.
(٤) سنن أبي داود: ٢/٣٤٢/٣٦٤٣ وصححه الألباني، وأخرجه: الترمذي: ٥/١٩٥/٢٩٤٥، وابن ماجه: ١/٨٢/٢٢٥، وأحمد: ٢/٢٥٢/٧٤٢١، وابن حبان: ١/٢٨٢/٨٤.
(٥) سير أعلام النبلاء: ٨/٤٠٨. وانظر كتاب تاريخ جرجان: ١/٤٩٢، لصاحبه محمد ابن يوسف أبي القاسم الجرجاني بتحقيق: عبد المعيد خان.
(٦) مسند أحمد، رقم: ١٦٥٦، وصحيح ابن حبان: ١/١٦١/ ٧٧، وسنن ابن ماجه: ١/٩٣/ ٢٥٤ وصححه الألباني، والمعجم الكبير: ٢٠/٦٦، وسنن الدارمي: ١/١١٧، والمستدرك للحاكم: ١/١٦١/٢٩٠.
(٧) سنن الدارمي: ١/١١٧
(٨) صحيح البخاري: ٣/١٠٩٦/٢٨٤٧، وصحيح مسلم: ٤/١٨٧٢/٢٤٠٦، وسنن أبي داود: ٢/٣٤٦، رقم: ٣٦٦١، وسنن ابن ماجه، رقم: ٢٢٥. والمستدرك: ٣/٦٩٠/٦٥٣٧. و مسند أحمد: ٥/٣٣٣/٢٢٨٧٢.
(٩) سنن ابن ماجه: ١/٧٥/٢٠٦.
(١٠) صحيح البخاري، كتاب الإيمان: ١/٧.

اللـه! ألا ترى في رجل يرغب عن إيمانك إلى إيمان ســاعة، فقــال ﷺ: «يرحمه الله إنه يحــب المجالس التي تباهي بها الملائكة»[1].

إنها نماذج للمرحلة الأرقمية التي ســار عليها الرســول ﷺ في تربية الجيل الأول مــن الصحابة في دار الأرقم بن أبــي الأرقم قبل الهجرة إلى المدينة المنورة؛ حيث كان يجتمع بأصحابه بدايةً في الشعاب ســراً، وبعد حصول مواجهات بينهم وبين الكفار انتقل بهم إلى دار الأرقم.

ونجاح مثل هــذه المجالس العلميــة الإيمانية يحتاج إلى عالم فقيه رباني؛ فهو المربي وهو المحور الأساسي. والمطلوب منه العمل بعلمه وصبره وحُسْــن توجيهه وسلوكه... وقدوته في ذلك رســول الله ﷺ؛ فقد سأل الحسن بن علي أباه عن ســيــرة رسول الله ﷺ في جلســائه، فقال: «كان رسول الله ﷺ دائمَ البِشْــر، سهل الخُلُق، لين الجانب، ليس بفظٍّ (سيئ الخلق) ولا غليظ ولا سَــخَّاب، ولا فَحَّاش، ولا عيَّــاب، ولا مزَّاح، يتغافل عما لا يشتهي، لا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه، وتــرك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورتــه، ولا يتكلم إلا في ما يرجو، وإذا ســكت تكلموا، لا يتنازعون عنــده الحديث، يضحك مما يضحكون، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريــب على الجفوة في منطقه، ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونه في المنطق ويقول: إذا رأيتــم طالب حاجة يطلبها فأرفــدوه، ولا يقبل الثناء إلا مــن مكافئ، ولا يقطع على أحد حتــى يجوز فيقطعه بانتهاء أو قيام»[2].

ولا بد أن يعمل المؤمن المستمع الراغب في الخير بحضوره المتواصل والدائم وانضباطه، ورغبته وحُسْــن استماعه على إنجاح مثل هذه المجالس.

وكذلك العلم الذي يعطى للحضور، يجب أن يكون جامعاً مانعاً يخدم المسلمين، ويصحح مفاهيمهم، ويشحن إرادتهم، ويربي فيهم السلوك الجماعي للأمة، ولكي يحصل هــذا لا بد من الاعتماد على الوحيين المعتمَدَين (كتاب الله، وســنَّة نبيه ﷺ) والحرص على مدارستهما (حفظاً وفهماً وتعلماً)؛ لقول الرسول ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[3]. وقوله: «عليكم بســنتي وسنَّة الخلفاء الراشــدين المهديين؛ عضوا عليها بالنواجد»[4].

٢ - مجلس الذكر: وهو من المجالس الغانمة التي يحبها اللــه؛ فعن النبي ﷺ أنه قال: «إن للــه ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر؛ فإذا وجدوا قوماً يذكــرون الله - تعالــى - تنادوا: هلموا إلى حاجتكم فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيســألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قــال: يقولون: يســبحونك ويكبرونك ويمجدونك، فيقــول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، والله ما رأوك! فقال: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشــد لك عبادة وأكثر لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: وما يسألونني؟ قالوا: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوهــا؟ فيقولــون: لا والله يــا رب! ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد حرصاً عليها وأشد لها طلباً وأشد فيهــا رغبة، قــال: فمِمَّ يتعوَّذون؟ فيقولون مــن النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ فيقولــون: لا، والله! ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد منها فِراراً وأشــد لها مخافة، فيقول الله - تعالى -: «أُشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم إنما جاء لحاجته، قال: هم الجلســاء لا يشقى جليسهم»[5] وربنا يقول في كتابه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولهذه الجِلْسَــة وغيرها من الجلسات الخيرة آداب أثناء انعقادها مما له علاقة بأدب الحديث والاســتماع، وقديماً قيل: «من لم يُحسِن الاستماع لم يحسن القول».

ثالثاً: كيف تؤتي مجالس الغُنم ثمارها؟

تؤتي هذه المجالس ثمارها من خلال:

١ - التكلم باللغة العربية: وهي لغــة القرآن، من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٢ - التمهُّل بالكلام أثناء الحديث: لِمَا أخرجه أبو يعلى عن عروة بن الزبير قال: جلس رجل بفِناء حجرة عائشة فجعل يتحدث. قال: فقالت عائشة: لولا أني كنت أسبِّح لقلت له: ما كان رسول الله يسرد الحديث كسردكم إنما كان حديث رسول الله ﷺ فصلاً تفهمه القلوب»[6].

٣ - المخاطبة على قَدْر الفهم: حيث روي عن علي

(١) مسند أحمد: ٣/ ٢٦٥/ ١٣٨٢٢ تعليق شعيب الأرنؤوط، إسناده ضعيف: عمارة بن زاذان وزياد بن عبد الله النميري متكلَّم فيهما وقد تفردا بهذا الحديث بهذه السياقة ولم يتابعهما عليه أحد.

(٢) شعب الإيمان: ٢/ ١٥٤/ ١٤٣٠.

(٣) صحيح البخاري فضائل القرآن، باب ٢٥ رقم: ٢٠٢٧.

(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ١٥، رقم: ٤٢، وسنن الترمذي: ٥/ ٤٤، رقم: ٢٦٧٦، والمعجم الكبير: ١٨/ ٢٤٦، ومسند أحمد: ٤/ ١٢٦/ ١٧١٨٤.

(٥) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٥٣/ ٦٠٥٤. وصحيح ابن حبان: ٣/ ١٣٩/ ٨٥٧.

(٦) مسند أبي يعلى: ٧/ ٣٥٧/ ٤٣٥٣، وصححه حسين سليم أحمد.

– رضـــي الله عنه –: «حدِّثوا الناس بما يعرفون: أتحبون أن يكذَّب الله ورســـوله؟»[1]، وقال ابن مســـعود – رضي الله عنـــه –: «ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثـــاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2].

٤ – التحدث بما لا يُخِل ولا يُمِل: لما رواه ابن مســـعود – رضي الله عنه – قال: «كان رســـول الله يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[3]، وقال ابن عباس – رضي اللـــه عنه –: «حدِّث الناس كل جمعة؛ مرة فإن أبيت فمرتين؛ فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تُملَّ الناس هذا القرآن»[4] وقال الحسن: «حدثوا الناس ما أقبلوا عليكم بوجوههم؛ فإذا التفتوا فاعلموا أن لهم حاجات»[5].

٥ – الإصغـاء التـام إلى المتحـدث: وذلك ما أكده علي – رضي الله عنه – عندما ســـئل عن مجلس النبي ﷺ؛ حيث قال: «يعطي كل جلســـائه بنصيبه... »[6]. وقديماً قيل: «من لم يُحسِن الاستماع لم يحسن القول».

٦ – إقبـال المتحـدث علـى الجلسـاء جميعـاً: وذلـك ما أكـــده علي – رضي الله عنه – عندما ســـئل عن مجلس النبي ﷺ حيث قال: «لا يحســـب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه...» وقال: «... عنده في الحق سواء»[7].

٧ – وأيضـاً لا بد من أن يكون جو مجلس العلم والفقه والذكر خاصاً:

كأن أوَّله تحريم وآخره تســـليم، تمثُّلاً بالسلف الصالح فـــي ذلك؛ فعن أحمد بن ســـنان قـــال: «كان لا يُتحدَّث في مجلس عبـــد الرحمن بن مهدي، ولا يُبرى قلم، ولا يبتســـم أحد ولا يقوم أحد قائماً، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحداً منهم تبســـم أو تحدَّث، لبس نعليه وخرج»[8].

ومن الآداب الأخرى للمجلس:

٨ – احتفاظ الخارج من المجلس بمكانه لحين عودته: لحديث النبي ﷺ: «إذا قام أحدكم من مجلســـه ثم رجع إليه فهو أحق به»[9].

٩ – قـراءة دعـاء كفـارة المجلس: لحديـث النبي ﷺ: «كلمات لا يتكلم بهنَّ أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كُفِّر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خيرٍ ومجلس ذكرٍ إلا خُتِم له بهن عليه، كما يُختَم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»[10].

بل إن الرســـول ﷺ قال: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكـــرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة»[11].

رابعاً: مجالس الغُرْم:

١ – وهي النوع الثاني مـن المجالـس، ولكنهـا مجالـس لا يرضاها الله، مثل: مجلس يُهتَك فيه عرض أو يُسفَك فيه دم، أو يُســـلَب فيه مال، كما قال النبي ﷺ: «إلا ثلاثة: سفك دم حـــرام، أو فـــرج حـــرام، أو اقتطـــاع مـــال بغير حق»[12]. وهـــو مـــا يعنـــي أنهـــا مجالـــس مشـــجوبة ولا أمـــانة لهـــا؛ لأن ما يجري ويدور فيها يخالف تعاليم الإسلام.

فهذه مجالـــس يرفضها الرحمن، ويتجنبها كل عاقل من بني الإنســـان، حذرت منها الشـــريعة بأفصح بيان وأوعدت أصحابها النيران؛ إذ المؤمن مسؤول عن وقته، وماله، وعلمه، يستحضر دائماً قوله ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن أربع: عن عُمُره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله: من أين اكتســـبه وفيما أنفقه، وعن علمه: ماذا عمل به»[13]. وهناك نهي عن بعض المجالس في بعض أحاديث النبي ﷺ، أســـوقها استئناســـاً وإن حُكم بالضعف على بعض منها من حيث أسانيدها، وكذا بعض الآثار، منها:

٢ – مجالـس أصحـاب الخصومات: وهـــو من كلام أبي جعفـــر محمد في قوله: «لا تجالـــس أصحاب الخصومات؛ فإنهم الذين يخوضون في آيات الله»[14].

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٥٩/ ١٢٧.
(٢) صحيح مسلم، المقدمة، باب ٣.
(٣) صحيح البخاري، رقم: ٦٨.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب ٢٠ رقم: ٦٣٧.
(٥) مصنف ابن أبي شية: ٥/ ٣٢١/ ٢٦٥١٤.
(٦) المعجم الكبير: ٢٢/ ١٥٨ و ٢٢/ ١٦٢
(٧) المعجم الكبير: ٢٢/ ١٥٨ و ٢٢/ ١٦٢.
(٨) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٢٠١.
(٩) صحيح مسلم، رقم: ٥٨١٨.
(١٠) سنن أبي داود: ٢/ ٦٨١/ ٤٨٥٧، وقال الشيخ الألباني: صحيح دون قوله ثلاث مرات.
(١١) سنن أبي داود: ٢/ ٦٨٠/ ٤٨٥٥، وصححه الألباني.
(١٢) شعب الإيمان: ٧/ ٥٢١/ ١١١٩٤، وسنن البيهقي: ١٠/ ٢٤٧/ ٢٠٩٥١، وأخرجه أبو داود في سننه: ٧٢/ ٦٨٤/ ٤٨٦٩وضعفه الشيخ الألباني. والشطر الأول صحيح موقوف من كلام عثمان وابن عباس. أخرجه: أبو الشيخ في التوبيخ، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٤١٠/ ٤٠٩٥ بلفظ: إنما المجالس بالأمانة.
(١٣) سنن الترمذي، رقم الحديث: ٢٤٢٣.
(١٤) سنن الدارمي: ١/ ٨٢/ ٢١٥، وقال محققه حسين سليم أسد: ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم، وأخرجه: البيهقي في شعب الإيمان بلفظ أصحاب الأهواء، كما أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٣/ ١٨٤.

٣ - **مجالس أصحاب النجوم:** لقوله ﷺ: «لا تجالس أصحاب النجوم»[١].

٤ - **الجلوس على الطرقات:** لقول الرسول ﷺ: «إياكم والجلوسَ في الطرقات، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غضُّ البصر وكفُّ الأذى وردُّ السلام، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن منكر»[٢]. وفي رواية الطبراني: سئل عن حق المجالس، فقال: «ذكر الله كثيراً وأرشدوا السبيل وغضوا الأبصار»[٣].

٥ - **الأسواق:** وهي من المجالس المشجوبة؛ فقد روى ابن عمر أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي البقاع شر؟ قال: «لا أدري حتى أسأل جبريل» فسأل جبريل، فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل فجاء، فقال: «خير البقاع المساجد وشرها الأسواق»[٤].

بالتأكيد أن المقصود ليس هو السوق لذاته، ولكن ما يجري في السوق؛ فالاشتغال بالسوق قد يلهي الإنسان عن كثير من الأعمال؛ كما روي عن عمر الفاروق قوله: «ألهاني الصفق في الأسواق»[٥].

وقد حذر النبي ﷺ أيضاً من هيشات الأسواق أثناء الصلاة بقوله: «إياكم وهيشات الأسواق»[٦] وهو ما عبَّر عنه فيما ورد من صفاته ﷺ في التوراة: «ولا سخَّاب في الأسواق»[٧] فإذا غابت هذه السلوكيات أصبح السوق مكاناً لعمل المسلمين وقضاء حاجتهم وضروراتهم، بل لذِكْر الله - تعالى - كما ورد ذلك في أحاديث صحيحة، منها:

ما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن

(١) مسند أحمد ١/٧٨/٥٨٢، قال محققه الأرنؤوط: حسن لغيره.
(٢) صحيح البخاري: ٢/٨٧٠/٢٣٣٠، وصحيح مسلم: ٣/١٦٧٥/٢١٢١، وسنن أبي داود: ٢/٦٧١/٤٨١٥.
(٣) المعجم الكبير: ٦/٨٧/٥٥٩٢، وهو في الصحيحة: ٦/٩/٢٥٠١.
(٤) صحيح ابن حبان: ٤/٤٧٦/١٥٩٩، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن. وأخرجه الحاكم: ٢/٩/٢١٤٩. بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي البقاع خير؟ فقال: لا أدري، قال: فأي البقاع شر؟ فقال: لا أدري فأتاه جبريل، فقال: سل ربك، فقال جبريل: ما نسأله عن شيء. فانتفض انتفاضة كاد أن يصعق منها محمد ﷺ، فلما صعد جبريل قال الله - تعالى - سألك محمد أي البقاع خير فقلت: لا أدري، وسألك: أي البقاع شر، فقلت: لا أدري قال: فقال: نعم! قال: فحدّثه أن خير البقاع المساجد وأن شر البقاع الأسواق». تعليق الذهبي في التلخيص: صحيح، وهو في الجامع الصغير وزيادته: ١/٥٥٩/٥٥٨٢. وقال الشيخ الألباني: حسن. وانظر حديث رقم: ٣٢٧١ في صحيح الجامع وفي صحيح الترغيب والترهيب: ١/٧٨/٣٢٥.
(٥) صحيح البخاري، رقم: ٤٩.
(٦) صحيح مسلم، رقم: ١٠٠٢.
(٧) صحيح البخاري، رقم: ٢١٢٥.



رسول الله ﷺ قال: «من دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة»[٨].

ومجالس الغُرْم المذكورة ضررها أكبر من نفعها، وشرها أوضح من خيرها، والمؤمن يبحث عن الخير ويتجنب الشر.

هذه إذن هي المجالس بأنواعها: المحمود منها والمذموم، وديدن المسلم منها ما كان فيه غُنمٌ ولم يكن فيه غُرمٌ؛ حيث قيمة الوقت، وقيمة الكلمة، وقيمة الشخص...

إنها مجالس خالية من الأمراض اللسانية العشرين[٩] «والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[١٠].

وهي أيضاً مجالس تتحقق فيها آداب الحوار والمناقشة وآداب الخلاف الفكري، مجالس تضع قواعد أمامها حتى تخرج غانمة سالمة من مثل: «ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ»[١١].

ومن أعظم ما يتعلق بهذه المجالس أنها مجالس أرقمية، يجب أن ترقى في خطابها وأدبها وفوائدها وثمارها، وأنها مجالس يتحقق فيها الغُنْم لا الغُرْم، سواء كانت مجالس خاصة أو عامة، وأن استحضار شرع الله فيها آكد، والإعراض عن اللغو فيها واجب، والحرص على التأثير فيها بالخير، والتقليل من الشر فرض، وهكذا المؤمن الفعال ينفع ولا يضر، يبني ولا يهدم.

(٨) رواه الترمذي وقال حديث غريب، وهو في صحيح الترغيب والترهيب ٢/١٤٢/١٦٩٤. وقال الألباني: حسن لغيره.
(٩) إحياء علوم الدين للغزالي، الجزء الثالث.
(١٠) صحيح البخاري رقم: ٦٤٨٤، وصحيح مسلم رقم: ١٧٠.
(١١) المدخل لمصطفى الزرقا: ١/٨٩.

الوعي بالواقع
الأهمية والشروط



محمد خيري المصري

الوعي بالواقع أو ما يمكن أن نطلق عليه: «فقه الواقع» علم أصيل، تُبْنى عليه كثير من العلوم والأحكام، وفي ضوئه تُتَّخَذ المواقف المصيرية.

فقه الواقع:

هو علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة: من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجَّهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيِّها في الحاضر والمستقبل(١).

العوامل الداعية إلى الاهتمام بفقه الواقع:

١ - دلالة كتاب الله - عزوجل - وسُنة رسوله ﷺ وصحابته الكرام عليه:

- دلالة الكتاب: يقول - عز وجل -: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ومن فقه الواقع استبانة سبيل المجرمين، ومعرفة أهدافهم ومخططاتهم؛ لهذا جاءت آيات كثيرة مفصِّلة ومبيِّنة سبيل أعداء الله، وفاضحة لمآربهم وغاياتهم.

- دلالة السُّنة: لقد حفلت السُّنة بكثير من الوقائع والشواهد، التي تدل على عناية المصطفى ﷺ بهذا الجانب؛ فها نحن نجده ﷺ يوجِّه المستضعفين من صحابته إلى الهجرة إلى الحبشة. وفي ذلك برهان ساطع على معرفته ﷺ بما يدور حوله، وبأحوال الأمم المعاصرة له؛ فلماذا لم يرسل الصحابةَ إلى فارس أو الروم أو غيرهما؟ ولماذا اختار الحبشة؟ يبيِّن ذلك ﷺ بقوله: «إن بها ملكاً لا يُظلم الناسُ عنده»(٢). وفي السيرة النبوية أمثلة كثيرة تبيِّن اهتمام النبي ﷺ بالواقع المحيط به.

وأما عن اهتمام الصحابة الكرام به، فيقول عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه -: «لست بالخِب ولا الخبُّ يخدعني»؛ أي: لست بالماكر المخادع (وحاشاه عن ذلك) ولكنه لا يمكن أن يخدعه الماكر المراوغ. ويقول عبد الله بن مسعود: «رحم الله امرأً عرف زمانه فاستقامت طريقته».

ويذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره أن فقه

(١) فقه الواقع، د.ناصر العمر، وانظر: (فقه الواقع أصول وضوابط) للأستاذ أحمد بوعود، كتاب الأمة، عدد ٧٥.

(٢) زاد المعاد لابن القيم.

المسلم لواقعه من لوازم معرفة (لا إله إلا الله) على معناها الصحيح، ولِمَ لا؛ وبفقه الواقع يكتمل مبدأ تحقيق الولاء والبراء؟ وهذا المبدأ أصل من أصول عقيدة التوحيد التي جاءت بها (لا إله إلا الله)[1].

٢ - أنه سبيل إلى تكوين فقهاء التمكين:

ذلك أننا في هذه الأيام التي لا نزال نتلمس فيها طريق النهضة وطريق التغيير، في أشد الحاجة إلى (فقهاء) بالمعنى العام لكلمة (فقه) وهو: الفهم العميق للإسلام، كما يُفهَم من دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»[2].

إننا بحاجة إلى فقهاء علماء يعرفون سنن التغيير وأمراضنا الاجتماعية وواقعنا وواقع غيرنا تمام المعرفة، وما هي الخطوات المرحلية التي يجب أن نبدأ بها؟ إن مشكلة (المسلم) لا تُحَل إلا بتحديدها تحديداً دقيقاً، والتفكير فيها، وهذا لا يؤتاه إلا (أولو الألباب) وعندما ذكر القرآن الكريم أن عشرين من المؤمنين يغلبون مائتين من الذين كفروا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]؛ ولذلك قال عبد الله بن مسعود يصف بعض المظاهر في آخر الزمان : (يكثر الخطباء ويقل الفقهاء)[3].

ولتكوين «أولي الألباب» نحتاج إلى علم ووعي بالواقع؛ ذلك أن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للفئة التي تسعى للتمكين لدين الله، عز وجل.

والفئة التي تفتقد المعرفة بفقه الواقع في عالم اليوم فئة تعيش في ما يشبه مدارس الصم والبكم.

ومن هنا نقول: إن النفرة للتخصص في شُعَب المعرفة، وإحياء الفروض الكفائية، والنزول إلى الميدان والانخراط بالمجتمع هو من فقه الدين. قال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

لذلك نقول: إن الانخراط في المجتمع، والاندماج فيه، والتعرف على مكوناته ومؤثراته، ودراسة الظواهر الاجتماعية، ومعرفة أسبابها، والمساهمة في دوائر الخير، ومحاولة التوسع فيها على هدى وبصيرة، وعدم تشكيل أجسام بعيدة عن المجتمع، منفصلة عنه، وإقامة هياكل وكيانات وخيام خارج المجتمع والحياة، أو السير خلف المجتمع ورصد تصرفاته والحكم عليها، بدل الدخول في المجتمع وإغرائه بفعل الخير، هو سبيل الخروج ومعاودة إخراج الأمة من جديد.

وكل ذلك لا يتأتَّى إلا بعلم وفقه الواقع. لقد أصبح «الوعي بالواقع»، أو «فقه المجتمع»، علماً له أدواته ووسائل قياسه، بل نستطيع أن نقول: إنه أصبح خلاصة لمجموعة علوم إنسانية واجتماعية وتاريخية، ولم تعد تنفع معه النظرة العابرة، أو الملاحظة الآنية، أو الأُمنية المخلصة.

وقد لا نكون بحاجة إلى إثبات أن علوم فقه الواقع تتقدَّم بسرعة، وتتأصل بشكل مذهل، وتتشعب إلى شُعَب تخصصية دقيقة، في محاولة لتغطية جميع مساحات الحياة؛ ففي علم الاجتماع والمجتمع بات هناك علوم اجتماع متنوعة بحسب موضوعاتها في الميادين السياسية والاقتصادية...

وعلوم الإنسان بلغت شأواً، وبدأت تضع يدها على حقائق لا يمكن تجاهلها ولا تجاوزها.. وعلم النفس يتقدم ليدخل المواقع كلها، ويحتل مكانه، ويدلي بشهادته على كل حالة، ولعلنا نقول: إنه تجاوز إمكانية قراءة الحاضر إلى محاولة صناعة المستقبل، وتحضير الناس له برفع اهتماماتهم وتشكيل أهدافهم.

حتى إنه يمكن القول: إن وسائل وأدوات سبر حقيقة المجتمع، وكشف خفاياه، ومعرفة واقعه، وتحديد وجهاته، أصبحت علوماً. فعلم الإحصاء وحصر الإمكانات

لتكوين «أولي الألباب» نحتاج إلى علم ووعي بالواقع؛ ذلك أن علوم فقه الواقع اليوم أشبه بالحواس والنوافذ العقلية للفئة التي تسعى للتمكين لدين الله، عز وجل.
والفئة التي تفتقد المعرفة بفقه الواقع في عالم اليوم فئة تعيش في ما يشبه مدارس الصم والبكم.

(١) فقه الواقع، د.ناصر العمر.
(٢) المعجم الكبير للطبراني.
(٣) صناعة الفكر، مجلة البيان، عدد ٢٨.

والاستطلاعات والمسح والبحث الاجتماعي بوسائل منهجية للتقويم والقياس لم يعد أرقاماً جامدة، وإنما يعبِّر عن مؤشرات ويحمل دلالات لا يمكن تجاهلها عند أي دراسة أو تخطيط أو تجديد أو تنمية للموارد البشرية والمادية... فلم يعد علم الإحصاء أداة ووسيلة، وإنما أصبح مقوِّماً لا يمكن تجاوزه.

حتى إن استطلاع الرأي والتعرف على التحولات الاجتماعية وأسبابها، أصبح علماً وفناً لا يقتصر على قراءة الحاضر وإنما يتجاوز إلى التأثير فيه وتوجيهه. وليست الاستبيانات وفنية وضعها وما يطرح فيها من أسئلة، وما يُتوصَّل إليه من نتائج، بأقل شأناً في فقه الواقع وامتلاك مفاتحه، والدخول إليه من أبوابه، بعيداً عن المجازفات والخبط الأعشى[1].

وفي دول الغرب الآن نجد أن السر في قوَّتها، هو: (تكامل الفكر والسياسة، واعتماد رجال التخطيط والتنفيذ في دوائر السياسة والإدارة على ما يقدِّمه رجال الفكر العاملون في مراكز البحوث والدراسات خلال اللقاءات الدورية التي تجمع بين الفريقين لمناقشة وتقويم القضايا الداخلية والخارجية؛ ففي بلد كالولايات المتحدة هناك حوالي تسعة آلاف مركز بحوث ودراسات متخصصة في بحث شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والتربية)[2].

٣ - الوعي بالواقع وفتح الملفات:

تتبنَّى حركة الإحياء الإسلامي التي تسعى للتمكين لدين الله في الأرض سياسة فتح الملفات. وسياسة فتح الملفات في الواقع، هي أننا نقوم بفتح ملفات للموضوعات الهامة والشائكة التي تواجه الأمة وتواجه الفئة المسلمة، ونترك هذه الملفات مفتوحة لاستيعاب المستجدات الطارئة والمتغيرات الحادثة في مثل هذه العقبات والتحديات، والهدف من فتح الملفات، هو «حل المغاليق المختلفة التي تواجه العمل الإسلامي واكتساب الخبرة اللازمة للعمل الإسلامي للتعاطي وَفْق المتغيرات المختلفة»؛ حتى يستطيع العمل الإسلامي مواكبة المتغيرات، وبإذن الله يكون هو البادئ بصناعة الحدث لا أن يكون المستقبل له، وحتى لا يفاجأ العمل الإسلامي بمشاكل لم تكن في الحسبان عند الوصول إلى التمكين، بإذن الله. والملفات التي ينبغي أن تفتح كثيرة ومتجددة حسب حاجة العمل الإسلامي؛ فهي ليست ملفات ورقية؛ ولذلك فإن سياسة فتح الملفات ينبغي أن تكون سياسة عملية وليست نظرية؛ وإن كان الدور النظري له بُعْد ليس بالهين، ولكن البُعد الواقعي في فتح الملفات يضفي على فتحها مصداقية ويساعد في إيجاد الحلول الصحيحة بعيداً عن التنظير الأجوف، وعلى سبيل المثال؛ فإنه ينبغي عند فتح ملف (النصارى) في البلدان التي تعلو فيها وتيرة الصراع مع النصارى والصراع الطائفي، مثل: مصر والسودان ولبنان... وغيرها من الدول أن نكون متابعين لآراء وشبهات النصارى من خلال مواقعهم الإلكترونية، ومن خلال غرف البالتوك المختلفة والتعرف على شبهاتهم التي يثيرونها بين الفينة والأخرى، والتعرف على مؤسساتهم وحضورهم في الأحزاب وتسليحهم ودرجة استفزازهم للمسلمين.

ومثل ذلك الخطاب العَلماني والتطور الحادث فيه ونوعه: إن كان خطاباً واضحاً غير ملتبس أو خطاباً ملتبساً مموَّهاً غير واضح، وذلك حتى لا تنخدع الفئة المسلمة وهي لا تدري أو يُسرَق كفاحها، نتيجة غفلة أهل الحق عن تدبير أهل الباطل وسوئهم.

وما دام أن مثل هذه الأبحاث لم تُطبَع فلا فائدة من الإحالة عليها، وقس على ذلك باقي الملفات التي ينبغي أن تُفتَح، ولا شك أن هذا يتطلب من العاملين للإسلام (امتلاك القدرة على التعامل مع المجتمعات، والانفتاح المتزن أكثر، وفتح منافذ جديدة للدعوة، وامتلاك قَدْرٍ أكبر من المرونة، مع الإبصار الكامل والدقيق والأمين للأهداف، والتقدير للإمكانيات...

ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن يكون دعاة الإسلام دماً جديداً في قوة الباطل أو أن يوظَّف الإسلاميون لغير الأهداف الإسلامية، وإنما يعني: النزول إلى الساحة، وفَهْم واقع الناس؛ حتى يجيء الأخذ بيدهم ثمرة لهذا الفهم؛ ذلك أن الناس هم محل الدعوة، وهم جديرون بالشفقة والإنقاذ[3].

ويحتاج علم الوعي بالواقع وفقهه إلى شيئين مهمين:

١ - سعة الاطلاع:

نظراً لتشعُّب هذا العلم وشموله؛ فقد يحتاج المتخصص

(٣) د.محمد محمد بدري، (تحت رأية أهل السنَّة والجماعة).



إن هـذا العلم يحتاج إلى قـدرة فائقة على المتابعـة، والبحث في كل جديد؛ فهـو يختلـف عن كثير من العلوم كما بينتُ آنفاً؛ لـذا يلزم المتخصص أن يكون لديه دأب لا يَكِلُّ من متابعة الأحداث، ودراسة أحوال الأمم والشعوب

فيه إلى كثير من الفنون، سـواء العلوم الشـرعية: كالعقيدة والفقـه، أو العلوم الاجتماعية كالتاريـخ، أو العلوم المعاصرة: كالسياسـية والإعلام... وهلمَّ جراً. وإذا قصَّر في أي علم من هذه العلوم أو غيرها مما يحتاج إليه، فسـينعكس ذلك سـلباً على قدرته على فقه الواقع، وتقويم الأحداث، والحكم عليها.

٢ - التجدد والاستمرار:

إن هذا العلم يحتاج إلى قدرة فائقة على المتابعة، والبحث في كل جديـد؛ فهو يختلف عن كثير مـن العلوم كما بيَّنتُ آنفـاً؛ لذا ينبغي للمتخصص أن يكون لديه دأب فلا يَكِلُّ من متابعة الأحداث، ودراسة أحوال الأمم والشعوب؛ فلو انقطع عـن ذلك فترة من الزمن أثَّر ذلك على تحصيله وقدرته في فَهْم مجريات الأحداث وتقويمها؛ فهو أشـبه بالطبيب الذي عليه أن يتابـع كل جديد في مهنته؛ فلو أن طبيباً تخرَّج في الجامعة منذ عشـر سـنوات، وكان يعالج الناس من خلال دراسـته الماضية، دون النظر لما اسـتجد من مخترعات في وسـائل العلاج، وما اكتُشِف من أدوية، لأصبح طبيباً متخلفاً عن الرَّكْـب؛ فجديد اليوم يصبح قديماً فـي الغد وهكذا. ولا أبالغ إذا قلت: إن الذي ينقطع عن متابعة الأحداث بضعة أشـهر يحتاج إلى فترة مكثفة ليتمكن من ملاحقة الأحداث من جديـد، وبخاصة في عصرنا الحاضر، الذي أصبح فيه العالـم كقرية واحدة صغيرة؛ ما يقع في شـرقه يؤثر يومياً في غربه، وإذا وقع حادث ذو بال في أمريكا أثر على أسواق اليابان في اليوم نفسـه، وارتفاع الأسهم في (وول ستريت) بلندن، يؤثر على قيمة الفول في البرازيل[١].

الآثـار المترتبـة علـى تجاهـل فقـه الواقـع:

إذا تجاهلتَ الواقع تماماً فربما فاتك:

١ - سد الذرائع:

وهي قاعدة أصيلة وركن ركين من أركان الشريعة[٢]، فقد تقع في كثير من الزلل بسبب عدم النظر في المآلات. والنظر في المآلات معتبر شرعاً وبه تصح الفتوى[٣].

٢ - اعتبار المناط الخاص:

فكل رسـول يدعـو إلى عبادة الله وحده لا شـريك له وإيجاب الفرائض والنهي عـن المحرمات. وهناك محرمات أبدية خالدة لا تختلف من رسالة إلى أخرى، وهناك فرائض لا تخلو منها رسـالة، ومع ذلك نجـد أن القرآن يركز على قضايا معينة في رسالات معينة.

والرسول ﷺ في سـبيل بيان القواعد الشـرعية يتناول كل المحرمـات وكل الفرائـض ويضعها فـي مكانها الصحيح في نطاقها الديني. وفي معالجة الانحرافات الواقعية ينشـغل بقضايا معيَّنة هي الانحرافات القائمة بالفعل لا غيرها؛ بحيث تكون هـي ودعوة التوحيد صلب حواره معهـم، وذلك في مثل قوله - تعالى -: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـعَيْبًا قَالَ يَا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُـوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُـم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَـوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْـطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْـيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّـتُ اللَّـهِ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَـا أَنَا عَلَيْكُـم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]، ومثـل هذا مع قوم لوط، مـع اختلاف الانحرافات. يقول الشاطبي في «الموافقات»: «فمن ذلك أن النبي ﷺ سئل في

(١) فقه الواقع للشيخ ناصر العمر، وهو على الرغم من كونه مبحثاً صغير الحجم إلا أنه يحوي فوائد كثيرة جداً.

(٢) انظر إعلام الموقعين لابن القيم.

(٣) انظر الموافقات، الجزء الرابع.

أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال وخيرها، وعرَّف بذلك في بعض الأوقات من غير سؤال؛ فأجاب بأجوبة مختلفة، كل واحد منها لو حُمِل على إطلاقه أو عمومه لاقتضى مع غيره التضاد في التفضيل؛ ففي الصحيح أنه ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان بالله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»، وسئل ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها». قال: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وفي النسائي عن أبي أمامة: أتيت النبي ﷺ، فقلت: مُرْنِي بأمر آخذه عنك، قال: «عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له»، وفي الترمذي: أيُّ الأعمال أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، وفي البزار: أي العبادة أفضل؟ قال: «دعاء المرء لنفسه»، وفي الترمذي أيضاً: «ما من شيء أفضل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَن»، وفي الصحيح: «وما أُعطي أحد عطاءً هو خير وأوسع من الصبر»، وفي الترمذي كذلك: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»، وفيه: «أفضل العبادة انتظار الفَرَج»... إلى أشياء من هذا النمط، جميعها يدل على أن التفضيل ليس بمطلق، ويُشعِر إشعاراً ظاهراً بأن القصد إنما هو بالنسبة للوقت أو إلى حال السائل؛ وقد دعا ﷺ لأَنَس بكثرة المال فبورك له فيه، وقال لثعلبة: «قليل تؤدي شُكْرَه خير من كثير لا تطيقه»[1]، وقال لأبي ذر: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمَّرَنَّ على اثنين ولا تولَّيَنَّ مال يتيم»[2]. ومعلوم أن كِلا العملين من أفضل الأعمال لمن قام فيه بحق الله، وقد قال في الإمارة والحكم: «إن المُقْسِطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن»[3]، وقال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة»[4]، وفي الصحيح: «أن أناساً جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم! قال: «ذلك صريح الإيمان»، وفي حديث أخر: «من وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله»، وعن ابن عباس في مثله قال: «إذا وجدت شيئاً من ذلك، فقل: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]» فأجاب بأجوبة مختلفة والعارض كله واحد.

(١) المعجم الكبير للطبراني.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) سنن أبي داود.

> تجاهل الواقع ربما أدى إلى تقديم الإسلام للناس في صورة نظرية مجردة لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة والسلوك اليومي

وقَبِل ﷺ من أبي بكر ماله كلَّه، وندب غيره إلى استبقاء بعضه وقال: «أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك»[5]، وجاء آخر بمثل بيضة من الذهب فردَّها في وجهه. وعن أبي رجاء العطاردي قال: قلت للزبير بن العوام: ما لي أراكم - يا أصحاب محمد - من أخف الناس صلاة ؟ قال: نبادر الوسواس. هذا مع أن التطويل مستحب ولكن جاء ما يعارضه»... إلخ[6].

ويعرِّف الشاطبي هذا المناط الخاص، فيقول: «هو نظر في كل مكلَّف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفية؛ بحيث يتعرف منه مداخل الشيطان ومداخل الهوى والحظوظ العاجلة؛ حتى يلقيها (يقصد التكاليف) هذا المجتهد على ذلك المكلَّف مقيدة بقيود التحرز من تلك المداخل، هذا بالنسبة إلى التكليف المنحتم وغيره، ويختص غير المنحتم بوجه آخر: وهو النظر فيما يصلح بكل مكلَّف في نفسه بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص؛ إذ النفوس ليست في قبول الأعمال الخاصة على وزن واحد كما أنها في العلوم والصنائع كذلك»[7].

٣ - تجاهل الواقع ربما أدى إلى تقديم الإسلام للناس في صورة نظرية مجردة لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة والسلوك اليومي: وهذا على العكس من طريقة القرآن: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦] الذي أخرج للناس عقيدة من خلال حركة الجماعة وأحداثها وصراعها مع غيرها ونموها وتفاعلها مع نفسها وغيرها... وأخرج للناس جماعة من خلال تأصيلات العقيدة وتوجيهاتها. فربط بين الحدث والتوجيه ربطاً دقيقاً مع الحفاظ على تجرُّد توجيهات العقيدة وقوة تأصيلها إذا ما أردت أن تستخلصها من التنزيل. وهذا أمر في منتهى الأهمية[8].

(٥) رواه البخاري
(٦) الموافقات، ج ٤، ص ٩٩ - ١٠٣. بتصرف يسير.
(٧) الموافقات، ج ٤، ص ٩٨.
(٨) انظر (آداب يتحلى بها الداعية والباحث ومبادئ يلتزم بها) من مقدمة كتاب: «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» للشيخ عبد المجيد الشاذلي.

هديتك لمن تحب

من الأحياء والأموات «رحمهم الله»

الآن بين يديك ..

أوراد أهل السنة والجماعة



للتوزيع الخيري و المبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع هاتف / ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ جوال / ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية /٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ المنطقة الجنوبية / ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ القصيم / ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية / ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ مكة / ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا

د. هشام عبد القادر عقدة



يقول الله – عز وجل – في كتابه العزيز، وهو أصدق القائلين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

فالله – عز وجل – أرسل رسوله بهذا الدين الحق ليظهر على سائر الأديان، لا لينزوي ويندرس، وهذا الظهور: ظهور معنوي بالحجة والبرهان، وظهور مادي بالقوة والتمكين والغلبة كما في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»(١).

ولا يعارض هذا الظهورَ الذي قرره الله – سبحانه – في كتابه كونُ المسلمين في ضعف في بعض الأماكن والأزمان؛ فذلك شيء مؤقت لا يدوم.. ولا يلبث أن يزول، ويجدد الله للأمة دينها ويعلي شأنها، وليس أدلَّ على ذلك من أن المسيح بن مريم – عليه السلام – حين ينزل إلى الأرض في أواخر الزمان يحكم بالإسلام، ويكون كرجل من أصحاب محمد ﷺ، ويكون ذلك ظهوراً لهذا الدين بلا شك. أما اندراس الدين وذهابه بالكلية فذلك لا يكون إلا في نهاية الزمان، قبيل قيام الساعة، وذلك حين يأذن الله – عز وجل – بإنهاء الحياة على هذه الأرض وإقامة القيامة؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبَد اللات والعزى»، فقلت: يا رسول الله! إن كنتُ لأظن حين أنزل الله – عز وجل –: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. أن ذلك تامٌّ. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله – عز وجل – ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»(٢).

(١) أخرجه أحمد: (٥/ ٢٧٨، رقم ٢٢٤٤٨)، ومسلم: (٤/ ٢٢١٥، رقم ٢٨٨٩).
(٢) أخرجه مسلم: (٨/ ١٨٢، رقم ٧٤٨٣).

فهؤلاء هم شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة، وذلك - كما قلنا - إنما يحدث في نهاية الزمان تمهيداً لأخذ الله لمن بقي على الأرض لإقامة القيامة، ولا يعارض الآية التي أخبرت بظهور الدين؛ إذ هذه الحقيقة لا شك في تحقُّقها على توالي القرون منذ بعثته ﷺ وإلى نزول عيسى بن مريم إلى الأرض، رغم تربُّص الكافرين وتمنِّيهم ذهاب هذا الدين وعملهم على إخماده: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. [التوبة: ٣٢ - ٣٣]

إن قلوبنا ينبغي أن تمتلئ ثقة ويقيناً بذلك الخبر الصادق من الله - عز وجل - وذلك القضاء الذي لا يُرَدُّ حتى لا نيأس ونتخاذل، وكم كانت ثقة رسول الله ﷺ بأن الله لا بد ناصرٌ دينه ومتمٌّ أمره، ولو بعد حين؛ فقد روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال له: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتَّبعه ضَعَفة الناس ومن لا قوة له، وقد رَمَتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قال عدي: لم أرَها وقد سمعت بها. فقال ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ليُتمَّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جِوَار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز!» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم! كسرى بن هرمز، وليُبذلنَّ المال حتى لا يقبله أحد»[1].

قال عدي بن حاتم: (فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جِوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده! لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها. وقد حدثت الثالثة في عهد عمر بن عبد العزيز، رحمه الله؛ حيث كان يبعث عامله بالصدقات فيطوف بها في البلاد ولا يجد من يقبلها حتى يرجع بها كما هي).

ولا يظن أحد أن رسول الله ﷺ لم يبشِّر بهذه البشارات إلا وهو على أعتاب النصر وبدايته، بل كان يبشِّر بمثل هذه البشارات في أحلك الظروف وفي أوقات عصيبة شديدة تتزلزل فيها الجبال وينفذ فيها اليأس إلى القلوب، نعم! كانت تصدر منه ﷺ كلمات الواثق بنصر الله وهو يعاني مع أصحابه صنوف الأذى والشدائد، ولكنه ﷺ لم ييأس ولم يتردد في المضي حتى الموت في سبيل إعلاء أمر الله... ولقي في ذلك صنوفاً من المقاومة والإيذاء: تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، تارة بالوعد وتارة بالوعيد؛ فما وَهَن وما ضعف وما استكان. جاء المشركون إلى عمه أبي طالب يطلبون منه أن يكف محمداً ﷺ عن دعوته، فقال أبو طالب: يا ابن أخي! قد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تُسمِعُهم ما يؤذيهم، فإن رأيتَ أن تكف عنهم. فحلَّق ببصره إلى السماء، فقال: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعِثْتُ به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار»[2].

إنه ثبات أي ثبات، وعزيمة ومُضِي لإظهار أمر الله، عابوه وهمزوه ولمزوه، وسفَّهوه وصدوا الناس وشغلوهم عنه بالأحاديث الباطلة، ورموه بالجنون والسحر والكهانة، واعتدوا عليه بالأيدي محاولين خنقه تارة، وقَتْله بالحجارة مرة أخرى، وتجويعه ومن معه من المسلمين، ولقي ما لم يلقَ أحدنا اليوم شيئاً منه، ولك أن تتخيل الدماء تسيل من قدميه ﷺ والسفهاء يلاحقونه بالحجارة، ولك أن تتصور المشركين حوله يجذبونه وأحدهم آخذٌ بمجمع ردائه يريدون خنقه. كل ذلك وهو ﷺ يزداد قوة وثباتاً وإصراراً وثقة بوعد الله ونُصرَته.

أما أصحابه؛ فقد ذاقوا الكثير؛ فكان بلال يُخرَج إذا حميت الظهيرة فَيُطرح على ظهره في بطحاء مكة وتوضع الصخرة العظيمة على صدره، ويقال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فما كان من بلال وهو في ذلك البلاء إلا أن يقول: أحد أحد، وكان عمار بن ياسر ووالداه يخرجهم المشركون إذا حميت الظهيرة يعذبونهم في رمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ ولا يستطيع أن يدفع عنهم شيئاً فيقول: «صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة»[3].

فلا يدور في نفوسهم شك أو تردُّد وهم يرون رسول الله ﷺ يمر بهم فلا يدفع عنهم شيئاً ولا يدفع الله عنهم شيئاً؛ حتى قَتَلوا أم عمار، وهي تأبى إلا الإسلام.

قال سعيد بن جبير: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما

(١) أخرجه أحمد: (٤/ ٣٧٧، رقم ١٩٣٩٧)، والحاكم: (٤/ ٥٦٤، رقم ٨٥٨٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط: (٨/ ٢٥٢، رقم ٨٥٥٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٨): رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأبو يعلى باختصار يسير من أوَّله، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) أخرجه الطبراني: (٢٤/ ٣٠٣، رقم ٧٦٩). وقال الهيثمي (٩/ ٢٩٣): رجاله ثقات. وقال الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (١٠٣): حسن صحيح.

إن بداية النصر تأتي من داخل النفس وانتصارها على نفسها وتطهُّرها من أدرانها

يُعذَرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله! إن كانوا ليعذَّبون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً. ولما اشتد عليهم الأمر ذهبوا إلى رسول الله ﷺ يشكون له، كما يقول خباب - رضي الله عنه -: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: يا رسول الله! ألا تدعو لنا، ألا تستنصر لنا؟ فقال: «لقد كان مَنْ قبلَكم يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ويؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، واللهِ لَيُتمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

واليوم ينظر المسلم إلى الواقع فإذا به يجد الزمان قد استدار كهيئته يوم كان الإسلام غريباً أول مرة ويوم كان المسلمون مضطهدين...

وما فتئ الزمانُ يدُورُ حتَّى
مضى بالمجدِ قومٌ آخرونَا
وأصبحَ لا يُرَى في الركْبِ قومِي
وقد عاشوا أئمَّته سِنينَا

ينظر المسلم إلى الواقع فيجد الفساد قد ظهر في البر والبحر، ولم تخلُ منه ناحية من نواحي حياة الناس:

- فساد في العقائد: من شرك ووثنية وخرافات وخضوع لغير الله.

- وفساد في السلوك: من فجور وفواحش وخمور وعري وتبرُّج وحياة كحياة الأنعام بل أضل.

- وفساد في الاقتصاد والأموال: من ربا ومكوس وتلاعُب ونهب وغصب.

- وفساد في مختلف أنظمة الحياة: من ظلم وعسف وسنٍّ لشرائع ما أنزل الله بها من سلطان، وذلٍّ للكافرين وموالاة لأعداء الله، وإيذاء لأولياء الله وأجواء من الذلة والعبودية لغير الله...

- وفساد في التعليم: من إماتة وتشويه للدين واستبدال الفتنة بالغرب أو الشرق أو العبودية والولاء لشعارات جوفاء... بالدين، وإهمالٍ لجو التربية الإسلامية والقدوة الإيمانية...

أنواع وأشكال متأصلة متمكنة من الفساد في كل ناحية من النواحي؛ حتى إن الكثيرين قد يساورهم اليأس والشك في وعد الله، ويلقي الشيطان في قلوبهم الوهن والتخاذل والخوف من مواصلة الطريق.

وهنا لا بد أن يفيء أولئك إلى تذكير الله - عز وجل - إذ يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وليتذكر هؤلاء قوله - عز وجل -: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ - ٩].

فوعد الله آتٍ لا محالة وهذا الدين لا بد منتصر، ولَيزيدَن تمكُّناً وانتشاراً في الأرض، وها هي بشارة رسول الله ﷺ في قوله: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»[2].

ولكن تحقُّق هذا الوعد له مقدمات وأسباب، منها:

(١) أخرجه أبو داود: ٢٦٤٩، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وفي صحيح الجامع ٤٤٥٠.

(٢) أخرجه أحمد: (١٠٣/٤، رقم ١٦٩٩٨)، والطبراني: (٥٨/٢، رقم ١٢٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤/٦): رجال أحمد رجال الصحيح. والحاكم: (٤٧٧/٤، رقم ٨٣٢٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

أي تغيير يجب أن يبدأ من تغيير ما بالنفس.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]

أن نكـون في تقوانا وإخلاصنا أهـلاً لذلك، وأن نكون قدم صدق في الاستعداد للثبات والتضحية في وجه الفتن أو المساومات.

إن بداية النصر تأتي من داخل النفس وانتصارها على نفسها وتطهُّرها من أدرانها، وما أجمل ما ذكره الله - عز وجل - عن أتباع الأنبياء وما فعلوه وقالوه لَـمَّا أصيبوا وأوذوا في سبيل الله حتى ينصرهم الله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦ - ١٤٧]؛ أي إنهم اتجهوا إلى داخل نفوسهم، فالتفتوا إلى ذنوبهم ودعوا ربهم أن يغفرها لهم ويغفر لهم كل إسراف وتجاوز لحدوده، وهي التفاتة يغيب ويذهل عنها كثير منَّا في وقت الشدة والفتنة، وحين يتطلع إلى النصر ورَفْع الفتنة، ثم قالوا: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ وهو أمر كذلك يكون في داخل النفس؛ فالثبات يبدأ من ثبات القلب وطمأنينته. نسأل الله أن يرزقنا ذلك وينعم علينا به.

فتلك دروس من القرآن نتعلم منها كيف أن بداية الأشياء تكون من داخل النفس، وأن أي تغيير يجب أن يبدأ من تغيير ما بالنفس. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]؛ فحين يعلم الله منا صلاح الداخل وسلامة القلب وثباته والاستقامة على دينه وشرعه والانخلاع عن التعلق بأي شيء غير الله ودعوته والعيش في الدنيا كالغريب أو عابر سبيل... حين يعلم الله منا ذلك ينقل خطانا بعنايته وحفظه ويكرمنا بمعيته ونصره، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨].

ومن هنا نعلم أهمية تلك الوصايا الجامعة العظيمة التي كان رسول الله ﷺ يبني بها أصحابه ويؤهلهم بها لإحراز

الثبات يبدأ من ثبات القلب وطمأنينته

الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة. سأله رجل أن يقول له في الإسلام قولاً لا يسأل عنه أحداً بعده، فقال له ﷺ: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»(١).

ومن ذلك قوله ﷺ لآخر: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حَسَن»(٢).

وقوله لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»(٣).

وقوله لرجل سأله عن شيء يتشبث به: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»(٤).

وقوله لابن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعَت الأقلام وجفت الصحف»(٥).

اللهم ارزقنا إيماناً راسخاً، ويقيناً صادقاً، وصبراً واسعاً، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

---

(١) أخرجه أحمد: (٣/٤١٣ رقم ١٥٤٥٤) ، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه الترمذي: (١٩٨٧) ، والدارمي: (٢٧٩١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٩٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٦٤١٦)، كتاب الرقاق.

(٤) أخرجه الترمذي: (٣٣٧٥)، وابن ماجه: (٣٧٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٦٨٧).

(٥) أخرجه الترمذي: (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٧٩٥٧).



لا بديل عن القراءة

د. محمد بن عبد الله الدويش
dweesh@dweesh.com

تمثل القراءة عاملاً مهمّاً في بناء الشخصية؛ فهي من أهم أدوات تحصيل العلم الشرعي ووسائله، بل لا غنى لطالب العلم عنها؛ إذ بها يعرف أهلَ العلم وسيَرهم وأخبارهم، ويتعرف مصادره، وتصنيفه وتبويبه.

كما أنها أداة لبناء الفرد في تخصصه واستيعابه لمجالاته ومهاراته.

وهي - علاوة على ذلك - تنمِّي خبرات القارئ ومهاراته؛ حتى خارج حدود ما يقرأ؛ فالقارئ المطَّلع أوسع أفقاً وأنضج في التعامل مع مواقف الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية، وأقدر على حل مشكلاته وتنظيم أفكاره.

وهي تنمِّي لغته؛ فالقارئ أقدر على الفهم السليم، والتعبير المستقيم من غيره.

وهي من أنفع ما يُقضى به الفراغ حين يَحسُن الاختيار.

والمتأمِّل في واقع الناشئة، وطلبة الجامعات، بل في واقع كثير من المنتسبين للعلم الشرعي يرى أن القراءة لم تأخذ حقها الكافي من الاهتمام؛ فكثير منهم يستثقل تحمُّل أعباء القراءة ويخلد إلى الكسل والراحة، أو يميل إلى النشاطات السلبية: كالاستماع ومشاهدة القنوات الفضائية، أو التجول عبر صفحات الإنترنت، ولعل واقع سوق النشر خير شاهد على ما تعانيه القراءة من ضمور ومزاحمة.

ومهما كانت جدية المواد التي يتعرض لها المتابع للبرامج الإعلامية، والمتصفح لشبكة الإنترنت؛ فهي تفتقر - في الأغلب - إلى العمق والرصانة، كما أن المتلقي لا يملك التركيز الكافي والتفاعل مع ما يسمع ويشاهد أو يتصفح؛ ناهيك عن قصورها كبديل لتحقيق وظائف القراءة؛ والجادون في بناء مجتمعاتهم يسعون إلى توجيه الواقع ما أمكن بدلاً من الاكتفاء بالتكيف معه.

إن حجم التحديات التي يعانيها الجيل القادم يجعل الواقع الحالي بحاجة إلى التغيير الجوهري، ويتطلب تعزيزاً أكبر لأدوات بناء الشخصية؛ فكيف إذا كانت أهم أدوات البناء الشخصي (القراءة) تعاني من نكسة وتراجع؟

ورغم أهمية التوظيف الفاعل للتقنية، واستثمار المصادر التي تحظى بإقبال الجيل الجديد، إلا أنه لا بديل عن التفكير الجاد في تنشئة الجيل القارئ، وإعادة الاعتبار للقراءة.

ومن أول ما يحقق ذلك أن يكون المربُّون قدوة في القراءة، وأن يوظفوا ما يقرؤونه في التحفيز المباشر وغير المباشر لطلابهم على القراءة؛ وإلا ففاقد الشيء لا يعطيه.

كما أنه مما يعزز تنشئة الجيل القارئ الاعتناء بإنتاج مواد ناضجة وشيِّقة ومبسطة للطفل والشاب والفتاة، وتفعيل البرامج المحفِّزة.

كما يجدر بالمهتمين بالشأن الإعلامي توظيف البرامج الإعلامية في تعزيز القراءة بدلاً من أن يتحول الإعلام إلى منافس يحتل مساحة أكبر من اهتمام الجمهور على حساب القراءة، وبقدر ما تملك البرامج الإعلامية من إثارة وجاذبية؛ فإنه من الممكن توظيف ذلك كله في استثارة همة الجيل نحو القراءة.

حرب التوقعات

إبراهيم بن سليمان الحيدري(*)
alhaidari@hotmail.com



العلاقات الإنسانية تُبنى في كثير من جوانبها على التوقعات ، وعندما يحقق شخصٌ مَّا توقعاتنا عنه، فإن شعوراً بالرضا عنه يتولد، ورغبةً في استمرار العلاقة معه تنشأ. وعندما يُخفِق في تحقيق هذه التوقعات، فإن العلاقة تتجه نحو الفتور، وقد تتوقف بعد مدة من الزمن (تطول أو تقصر) بحسب أهميته بالنسبة لنا.

يصاغ الحد الأدنى من هذه التوقعات من خلال الدين والثقافة والقيم والخبرات. وهي تمثل عرفاً بين الناس في علاقاتهم بعضهم ببعض، كتلك العلاقة التي تربط بين الزوجين أو بين الأبناء ووالديهم أو بين الأصدقاء. وقد نعبِّر في بعض الحالات عن توقعاتنا من الآخرين ونفصح عنها، وقد يستنتجها الآخرون منَّا بلا حاجة للإفصاح. وعادة ما تتعكر العلاقات فيما بيننا إذا ما عجز الآخرون عن استنتاج توقعاتنا وفَشِلْنا في التعبير عنها.

العلاقات بين العاملين في المنظمات الإدارية هي شكل من العلاقات الإنسانية التي تربط الموظفين بعضهم ببعض والموظفين بمديرهم. وحتى لا تكون العلاقات بين هؤلاء العاملين معتمدة على التوقعات؛ فإن المنظمات الإدارية الناجحة هي التي تمتلك هيكلاً وظيفياً يرتب العلاقات، ووصفاً وظيفياً لكل عامل يحدد مسؤولياته وصلاحياته، ونظاماً واضحاً لتقييم الأداء، وهو ما يسهل على العاملين معرفة ما يُتَوقَّع وما لا يتوقع منهم.

وعندما تخلو المنظمة الإدارية من مثل هذه الأشياء، فإن حرباً من المحتمل أن تنشب بين العاملين، يتقاذفون فيها التوقعات ويتراشقون الظنون فيما بينهم، وتتساقط المشاعر جريحة، والأحاسيس مكلومة، ويسود الإحباط والضجر، وتذهب ريح المنظمة.

أحمد الذي بدأ مسيرته المهنية موظفاً في جمعية خيرية منذ عام ما زال يشعر أنه تائه؛ بعدما باءت محاولاته للتعرف على حدود عمله وواجباته اليومية بالفشل، ويواجه التحديات لمعرفة ما يراد منه بالتحديد؟ وهو أن يعرف مسمى وظيفته؛ فهو متأكد أن كثيراً من الأعمال التي يُطلب منه أداؤها لا تعكس مسمى وطبيعة هذه الوظيفة التي لم يشاهد قط وصفاً وظيفياً لها أو نموذجاً لتقييم أدائه فيها. أما مدير أحمد، فهو يدنو من مرحلة اليأس من إصلاحه وتطويره، فأحمد في نظره موظف غير مستجيب ويتعدى حدود صلاحياته كثيراً ويمضي وقتاً أطول في إنجاز أعماله.

أحمد ومديره ليسا حالة استثنائية في عالم المنظمات الخيرية الإسلامية والعربية فيما يبدو؛ فكثير من منظماتنا الخيرية تشكو من انعدام أو ضعف البنية الإدارية والتنظيمية، وهي – بلا شك – من أَوْلَى المناطق التي ينبغي أن تجذب اهتمام قادة المنظمات الخيرية وإداراتها العليا للبناء والتطوير.

إن البيئة الإدارية المنظَّمة توفر مناخاً مناسباً لنشوء علاقات واضحة بين العاملين، وأسلوب اتصال كفء، ويشيع السلام في أرجاء المنظمة.

(*) ماجستير في الإدارة، باحث في إدارة العمل الخيري.

السودان: اتصال أم انفصال؟

أ. د. جعفر شيخ إدريس
jsidris@gmail.com



في العاشر من شهر يناير من عام ٢٠١١م سيقرر المواطنون بجنوب السودان في استفتاء عام إذا ما كانوا سيبقون متصلين بالمواطنين في شمال السودان في وطن واحد أم سينفصلون عنهم؛ ليكونوا دولة جديدة مستقلة.

المشـــكلة في مثل هذه الاستفتاءات أن القرار فيها كثيراً ما يكون قرار أقلية؛ ذلك لأن الذين يشـــاركون في التصويت هم بعضُ لا كلُّ الذين سجلوا أسماءهم؛ فحتى لو افترضنا أن الذين سجلوا أصواتهم كُثُرٌ، وأن نسبة من صوَّتوا منهم كانت نسبة كبيرة، فإن الحقيقة ستبقى أن نسبتهم لن تكون نصف المواطنين بالجنوب.

ومشـــكلة أخرى في مثل هذه الاســـتفتاءات أن أكثر من يشـــارك فيهـــا هم من عوامِّ المواطنـــين الذين لا علم لهم بعواقب قراراتهم؛ ولذلك فإن رأيهم ســـيكون في الغالب تبعاً لرأي قادتهم من السياسيين وغير السياسيين.

حجـــة الداعين إلى الانفصال من هؤلاء القـــادة، هي أن للجنوبيين ثقافة تختلف عـــن ثقافـــة المواطنـــين بالشـــمال. ولا زلت أذكر أن أوَّل من قال بهذه الحجة في الخمسينيات الميلادية من القرن الماضي كان الحزب الشيوعي، وهو حزب شمالي لم يكن فيه - إن وجد فيه - إلا أفراد من الجنوبيين.

الرادُّون على هذه الحجة يقولون: إنه إذا كان المقصود بالثقافة الإسلام واللغة العربية، فإن هذه الثقافة ليست بغريبة على الجنوب؛ لأن الإسلام كان بالجنوب قبل مجيء الإنجليز، وأمـا اللغة العربيـة فما تزال - في شـــكل عامِّي منها - هي اللغة الوحيدة المشـــتركة بين القبائل الجنوبية ذات الألسن المختلفة، ثم إن كثيراً من المثقفين الجنوبيين صاروا يتحدثون هذه اللغة في شكلها الفصيح.

ويقولـــون أيضاً: إنه إذا كان الجنوب قد قَبِل المســـيحية ولم تكن ديناً جنوبياً، بل حتى إفريقياً، فلماذا لا يقبل ديناً له فيه وفي إفريقيا تاريخ عريق؟

مـــن حجج الانفصاليين أيضاً: أن النفط الذي تـــنتجه أرضهم ســـيكون خالصاً لهم لا يَشْرُكهم فيه أحد. لكنَّ المخالفين لهم يقولون: نعم! إن هذا شيء مغرٍ فعلاً، لكن تذكروا أن أرضنا أرض مغلقة لا موانئ لها؛ ولذلك فسنضطر إلى أن نلجأ: إما إلى ميناء بورتسودان أو ميناء مومباســـا، وأن هذه الموانئ لن تقدِّم خدماتها لنا مجاناً. ويقولون أيضاً: إنه حتى لو كان للانفصال بعض الفوائد، فإن هذا ليس الوقت المناســـب له؛ لأننا لا نســـتطيع الآن أن نكون دولة مستقلة؛ لأســـباب، منها: عدم اكتمال البنية التحتية، ومنها أن الولاء عندنا ما يزال للقبيلة لا لشـــيء اسمه: الوطن، وأنه يُخشـــى أن يؤدي هذا الانقسام القبَلي إلى مزيـــد من القتـــال وإزهاق الأرواح بعد قـــرار الانفصال الذي قد لا تكـــون بعض القبائل موافقة عليه؛ فقبائل النوير والشـــلك - مثلاً - يرفضون هيمنـــة قبيلة الدينكا ويفضِّلون

عليها - لـو خُيِّروا - هيمنة حكومـة بالخرطوم، ومنها أن اتفاقية نيفاشـا أعطتهم كل ما يريدونه وربما أكثر منه؛ فإذا كانوا يخشون على ما يسمونه: ثقافتهم فإن الاتفاقية قد أقرَّت بمبدأ: (وطن واحد ونظامان مختلفان): نظام عَلماني بالجنوب، ونظام (إسلامي) بالشمال. وللجنوب الآن ما يشبه الدولة المستقلة التي لها رئيسها وحكومتها وممثلوها في بعض الدول، والتي تعقد اتفاقات مع بعض الشركات... وهكذا، بل إن الغريب في أمر اتفاقية نيفاشا أنها أعطت المواطنين بالجنوب حق المشاركة في حكم الوطن كله بما في ذلك الشمال؛ فمنهم نائب الرئيس ومنهم وزراء ومنهم أعضاء بالبرلمان الذي يسُنُّ القوانين؛ فما الذي يريدونه أكثر من ذلك؟ هكذا يتساءل المعارضون للانفصال.

كنا نتحدث حتى الآن على افتراض أن أمر الوحدة أو الانفصال سيقرره الجنوبيون وحدهم، لكن الحقيقة غير ذلك؛ فكثير من الزعماء الجنوبيين لهم علاقات وثيقة بالولايات المتحدة، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون البتَّ في أمر لها فيه مصلحة من غير موافقتها؛ فماذا تريد الولايات المتحدة؟

أما من حيث المصالح المادية فإن همَّها مركَّز الآن في النفط الذي لا تريد للصين أن تستأثر به، بل حتى أن تنافسها فيه. لكن الاستفادة من النفط تحتاج إلى دولة مستقرة؛ فإذا ما قررت أمريكا أن الدولة الجنوبية لن تكون دولة مستقرة بسبب الحروب بين القبائل، فسوف تميل إلى خيار الوحدة وتفرضه على الزعماء الجنوبيين ليتولَّوا هم إقناع المواطنين به.

وأما من حيث المصالح الثقافية، فمما لا شك فيه أن الغرب كله لا يريد للثقافة العربية الإسلامية أن تنتشر بالجنوب، ولا يريد لها أن تنتشر عبر الجنوب إلى بلاد إفريقية أخرى؛ فما الذي سيفعله إذن؟

الخِيار صعب؛ فقد يرى بعضهم أن الانفصال هو الذي يحصِّن الجنوب من هذه الثقافة، لكن هذا لن يحدث إلا إذا بُتِرت الصلة بين الشمال والجنوب بتراً كاملاً بعد الانفصال، بَيْد أن هذا أمر متعذر، ولا سيما من حيث اللغة؛ فإن اللغة الإنجليزية فشلت في أن تكون هي البديل عن اللغة العربية العامية والمرجَّح أن يظل الأمر كذلك.

وأما بالنسبة للإسلام فإنه - كما قلنا - ظل ديناً لآلاف من الجنوبيين؛ فلا يستطيع أحد أن يمنعهم من ممارسته ولا سيما إذا أريد لدولتهم أن تكون دولة عَلْمانية ديمقراطية.

ولكن يبدو أن آخرين يرون أن الوحدة هي التي ستحقق هذا الهدف؛ لأن نسبة الإنجاب بين الجنوبيين أكثر منها بين

كنا نتحدث على افتراض أن أمر الوحدة أو الانفصال سيقرره الجنوبيون وحدهم، لكن الحقيقة غير ذلك؛ فكثير من الزعماء الجنوبيين لهم علاقات وثيقة بالولايات المتحدة، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون البتَّ في أمر لها فيه مصلحة من غير موافقتها.

الشماليين؛ لأنهم لا يضعون حداً لما يُسمَح به للرجل أن يتزوج من النساء؛ فإذا استمرت الزيادة على هذه الوتيرة فإن السودان يوشك أن يكون بلداً غير عربي وغير مسلم، كما يرون.

هنالك فكر غربي يقول: إن الدولة الضعيفة التي لا تستطيع السيطرة على ما يجري في أراضيها دولة خطيرة على الغرب؛ لأنها ستكون مرتعاً خصباً لما يسمونه بالارهاب، ويضربون مثلاً على ذلك بالصومال؛ ولذلك فإنهم لا يريدون للانفصال أن يكون حقاً لكل جماعة تختلف هويتها عن بقية المواطنين فيه. والدول نفسها - لا سيما الإفريقية منها - لا تريد لمسألة تقرير المصير في السودان أن تكون مثالاً يحتذى في أقطارها. وربما كان هذا هو السبب في أن الأمين العام للأمم المتحدة الذي حضر اجتماع القمة الإفريقي، حث القادة المشاركين قبل بدء الاجتماع على أن يعملوا لوحدة السودان وأن يجنِّبوه انفصال الجنوب.

قلنا: إن اتفاقية نيفاشا تقرُّ بدولة واحدة ونظامين، لكن بعض الزعماء الجنوبيين يرون أنهم لن يكونوا مواطنين على قدم المساواة مع الشماليين؛ إلا إذا كان الحكم في السودان حكماً عَلْمانياً يستوي فيه الجنوبي مع الشمالي، لكن هذا معناه: أنه لن تكون وحدة حقيقية إلا إذا تنازل الشماليون عن دينهم واعتنقوا دين المثقفين الجنوبيين القائلين بالعَلمانية؛ لأنه: إذا كان الإسلام منهج حياة، فإن العَلمانية أيضاً منهج حياة؛ فينبغي للشماليين أن لا يغتروا بالألفاظ، أو بأن العَلمانية نظام سياسي محايد بين الأديان كما هو الشائع عنها زوراً.

البقع السوداء

فهد بن صالح العجلان
fsalehajlan@hotmail.com

لن يجد القارئ للانحرافات الفكرية المعاصرة عناءً في إدراك طريقة تسويق كثير من الانحرافات المعاصرة من خلال رفعها على منَصَّة الخلاف الفقهي، وأصبح الاستناد إلى خلاف الفقهاء غالباً على كثير من تلك الدراسات والمقالات، ومع أنَّ الانحراف الفكري يستند إلى الخلاف الفقهي؛ إلا أن طبيعة الخلاف الفقهي وسموَّ مرجعيته وشخصية أهله تجعله غير قابل للتقليد؛ فينكشف سريعاً كلُّ من يحاول أن يغطِّي انحرافه بستار الخلاف الفقهي، وتبدو البقع السوداء واضحة عن يمينه وشماله؛ كاشفةً للبصير براءة الخلاف الفقهي من هذا الانحراف.

مهما حاول المنحرف أن يبدي الوجه الفقهي المشرق في عرضه لهذه القضية؛ فإن بشرة الانحراف الداكنة لا بدَّ أن تعلوها تلك الندوب السود التي لا تصبر طويلاً أمام أشعة الشمس الطاهرة.

ولعلِّي هنا أضرب مثالاً للبقع السوداء التي تلازم الانحراف الفكري حين يتستر بالخلاف الفقهي بمسألة (حدود الحجاب الشرعي) الذي يرضاه الله ورسوله ﷺ، ولا أظنُّ أن ثَمَّة مسألةً فقهيةً يعرف الناس الخلاف فيها كهذه المسألة، وكثيراً ما يتكئ (المنحرف) عن النصِّ على أرائك تبرير التبرج والتعري من خلال إشاعة هذا الخلاف الفقهي وإثارته وترجيح قول على قول؛ وفي حسبانه أن رأيه في اختيار (جواز كشف المرأة المسلمة لوجهها وكفَّيها) سيكون مألوفاً هادئاً؛ لأنه من جنس كلام الفقهاء؛ غير أنه لم يفطن للبقع السوداء التي تطفو على سطح قلمه؛ تكشف للناس عمق الظلمة والسواد الذي ينضح من هذا الخلاف، وأن العاقل البصير حين يرى هذه البقع سيعرف أنه أمام انحراف فكري يفسد المرأة المسلمة ويتعدى على أحكام الشريعة... لا أمام خلاف فقهي فرعي؛ وإن كان (الانحراف الفكري) و (الخلاف الفقهي) كلاهما يتحدثان عن كشف الوجه.

- إن الانحراف الفكري يتحدث في موضوع حجاب الوجه؛ فيثني على السفور ويبدي محاسنه وفضائله وكيف أنه يحقق للمرأة ثقة وراحة لا يؤدِّيها الغطاء الذي يعرقل مسيرتها ويثير الغرائز نحوها، ويُفيض الانحراف الفكري على هذا النحو بشيء من السخرية أحياناً، وهم يجهلون أن الحجاب - باتفاق

جميع الفقهاء – هو من الأمور المشروعة المندوبة المتفق على أنها من شـــريعة الإسلام؛ فتفضيل الســـفور على الحجاب والطعن فيه بهذه الطريقة هو في حقيقته إساءة إلى الشرع وطعن الســـنَّة وتعـــدٍّ علـــى حكـــم شـــرعـــي (على أيِّ قول فقهـــيٍّ كان)، ولم يكن الخلاف الفقـهي فـــي يوم من الأيام يسير في هذه المســـألة على خطِّ الإشادة بالسفور والطعن في الحجـــاب؛ لأن هذا من العدوان على الســـنن، وهم من أنصر الناس لها.

أترون أن خلاف الفقهاء في سُـــنِّية صلاة الجماعة في المساجد – مثلاً – يبيح لأحد أن يطعن في مرتادي المساجد ويتهمهم بالتخلُّف والجمود في مقابل من يصلي في بيته من المتحضِّرين والمعتدلين؟! فهل يخرج مثل هذا من منبع فقهي صافٍ؟

– والمنحـــرف يغطي حقيقة فكره في منبع هذا الخلاف الفقهي؛ فيدعو إلى (منع) حجاب الوجه ومحاصرته، ويسعى لمحاربته وســـنِّ القوانـــين المجرِّمة له، وتضيق نفســـه ذرعاً واشـــمئزازاً من رؤية المنتقبات، ويســـتغرب - بعد كلِّ هذا – من تشنيع الناس عليه في هذه الممارسة، وهو يظن أنه يسبح في المحيط المائي للخلاف الفقهي، وما شـــعر ببقعة السواد الضخمة التي تحيط به؛ تكشـــف عـــن حجم الجراثيم التي يحملها؛ حين يدعو إلى تجريم الشـــريعة والتبرُّم منها ومن القائمين بها كراهيةً، ويُخشـــى على مثل هذا أن يكون ممن قـــال المولى – جل وعلا – فيهم: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [**محمد** : ٩].

– يرى (المنحرف) بعينَي رأســـه التهاون الكبير في أمر الحجاب، وتمرُّ عليه يومياً صور التفسُّخ والتعرِّي في القنوات والصحـــف والأماكن التي يعمل أو يـــدرس فيها؛ فلا ينبس فيه بحرف، ولا يتحرَّك فيه شـــيء؛ بينما يســـطِّر المقالات والدراسات التي يرجِّح فيها القول الفقهي بجواز كشف المرأة لوجهها وكفَّيها بناءً على الأدلة الشرعية كما يعتقد؛ فهل غدا (الفقيه) متحمِّســـاً لنشر رأي فقهي أكثر من حماسته لإنكار المنكرات الـمُجْمَع عليها وتصحيح المفاهيم القطعية التي كثر التهاون فيها، أم أنَّها بقعة سوداء؟

– تتفجَّر ينابيع الحماسة في أنامل هذا المنحرف لإشهار القـول الفقهـي بأن وجـه المـرأة وكفيهـا ليـس بعـورة، بينمـا لا يفكِّـــر أن يذكر اتفاق الفقهاء علـــى أن ما عداهما عورة وواجب الســـتر بالقطـــع واليقين، ولا يريـــد أن يُجهِد فكره ليعلم أن وجود خلاف في كشـــف الوجه والكفـــين لا يســـوِّغ أن يقـف مبـــرِّراً للفســـاد والانحـــراف الـذي تجـاوز هـــذا بكثيـر. ولا يستوعب العقل الفقهي أن يفهم حالـــة مـن يقف في وجه إنكار التكشُّف والتبرج الفاضح بدعوى جواز كشف الوجه.

– عـــاش الفقهاء - رحمهم اللـــه – قروناً وهم يتداولون هذه المسألة الخلافية، في جوٍّ معظِّم للحجاب ولمقاصده، داعٍ للحفاظ عليه وسدِّ الذرائع الممزِّقة له، مُشِيعٍ لأحكام الشريعة المتعلِّقة بصيانة المرأة: من تحريم الخلوة والاختلاط ووجوب الحجاب وغضِّ البصر والمحرَم والنهي عن التزيُّن والخضوع في القول والأمر بالقرار في البيت، وعاشت هذه المسألة في قلوب حية تتألم من أي انحراف أو فساد يصيب بعض نساء زمنهم، غير أن هذا كلَّه تبخَّر ولم يبقَ منه على الســـطح إلا (كشف المرأة لوجهها وكفيها)؛ فجاء بها من أقصى الخلاف الفقهي منحرف يسعى جذلاً بضالته.

ومهما حاول المنحرف أن يبدي الوجه الفقهي المشرق في عرضه لهذه القضية؛ فإن بشـــرة الانحراف الداكنة لا بدَّ أن تعلوها تلك الندوب الســـود التي لا تصبر طويلاً أمام أشعة الشمس الطاهرة.

هذا مجرد مثال، ولســـت بحاجة في خاتمته أن أشـــدد التأكيـــد على أن مقصود الحديث فيه هو تســـليط الإضاءة النقدية على ممارســـات المنحرفين في التســـتر خلف بعض الاختيارات الفقهية، وليس غضّـــاً من قولٍ فقهي، ولا طعناً في فقهاء أجلاَّء أو لمزاً لمن يختار هذا القول الفقهي أو ذاك لاجتهاد يثاب عليه في كلِّ حال.

وهكـــذا... اختبـــرْ كلَّ خلاف فقهي يســـوقه (منحرف فكري) في أي مسألة كانت، وســـتجد البقع السوداء طافية على ســـطحه، ومهما حاول أن يســـترها بكلِّ مـــا أوتي من سلاسة لفظية وبراعة احترازية؛ فإن هذه البقع السوداء تأبى إلا الظهور؛ ليعلم المســـلـــم أنه أمـــام خَلَل فكـري لا خلاف فقهي.

[نص شعري]

رباعيات من هذا العصر

يحيى بشير حاج يحيى

(غثاء السيل)

قال قائل : أوَ من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»!

تداعَوا علينا تَداعِيَ الجِياعْ ... لأنَّا غَدَوْنا كسَقْطِ المتاعْ
فبالغرب لُذْنا فكان الضياع ... وفي الشرقِ تنهشُ مِنَّا الضِّباعْ
فما كلُّ بَرْقٍ يُرَوِّي البقاع ... ولا كُلُّ جِرْسٍ بحُلْوِ السماعْ
ومَنْ يَحسَبِ الخيرَ عندَ الرِّعاع ... فكَبِّرْ عليه ليَثوِي بِقاعْ

(بعد الحياة حياة)

إني ليعجبني الرجل إذا سِيم خُطَّة خَسْف، أن يقول بملء فيه: لا! (عمر بن الخطاب)

إذا كنتَ تُؤمنُ أنَّ الإلهَ ... يُميتُ ويُحيي وما مِنْ سواهْ
وأنكَ في العيشِ رهنُ المنون ... وأنْ بعدَ هذي الحياة حياهْ
فكيفَ تُطأطِئُ للأشقياء ... وتبسِمُ للوَغْدِ منكَ الشفاهْ
فإنَّ العقيدةَ تأبى الخضوع ... وأنْ يُستَذلَّ امرؤٌ عن رضاهْ

(أحياء ميتون)

أكبر عقاب للأمة المتخاذلة وجود الطاغية فيها (مصطفى السباعي)

تمادَى بُظلمٍ وهم نائمونْ ... وأبرم أمراً وهم ساكتونْ
وما هم بموتى ليُبكى عليهم ... ويا ليتَ كانوا، وكان المنونْ
لقد أخرس الظلمُ أفواهَهم ... وغطَّى التعالي نورَ العيونْ
أليس من الخير أنْ يُكتَبوا ... مع الميتين، وهم ينظرون؟

(الانتحار في الغرب)

إنه لا خلاص للقلوب والأرواح من قبضة القلق الرهيب، ومن دوَّامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله إلا بمعرفة خالق واحد أحد (بديع الزمان سعيد النورسي)

إذا كان عيشُ الورى طيِّباً ... لماذا إذاً يكرهونَ الحياةْ؟
أيَشقَون فيها بما حقَّقوا ... وقد زعموه مِنَ المعجزاتْ؟
فأين السعادةُ في عيشهم ... وحتَّامَ يجرون خَلْفَ الشَّتاتْ؟
ولا يجدون سِوى الانتحارِ ... فبئسَ الحياةُ، وبئسَ المماتْ

(دماء المسلمين)

الخطر محدق بالمسلمين من كل صوب لتحطيم إسلامهم؛ فماذا صنع المسلمون لصد هذا الخطر؟ (المفكر محمد المبارك)

غَدَونا شياهاً بعصرِ الظلام ... وحَلَّ الدِّمارُ محلَّ السلامْ
ففي كلِّ يومٍ تُساقُ المئون ... لتُذبحَ غَدْراً ونحنُ نيامْ!
ونشكو مصاباً لصُمٍّ وبُكْمٍ ... وأسمعُ منهم - لعمري - الحُسامْ
يهون عليهم دَمُ المسلمين ... ولكنْ دمُ الكافرينَ حَرامْ!

[المسلمون.. والعالم]

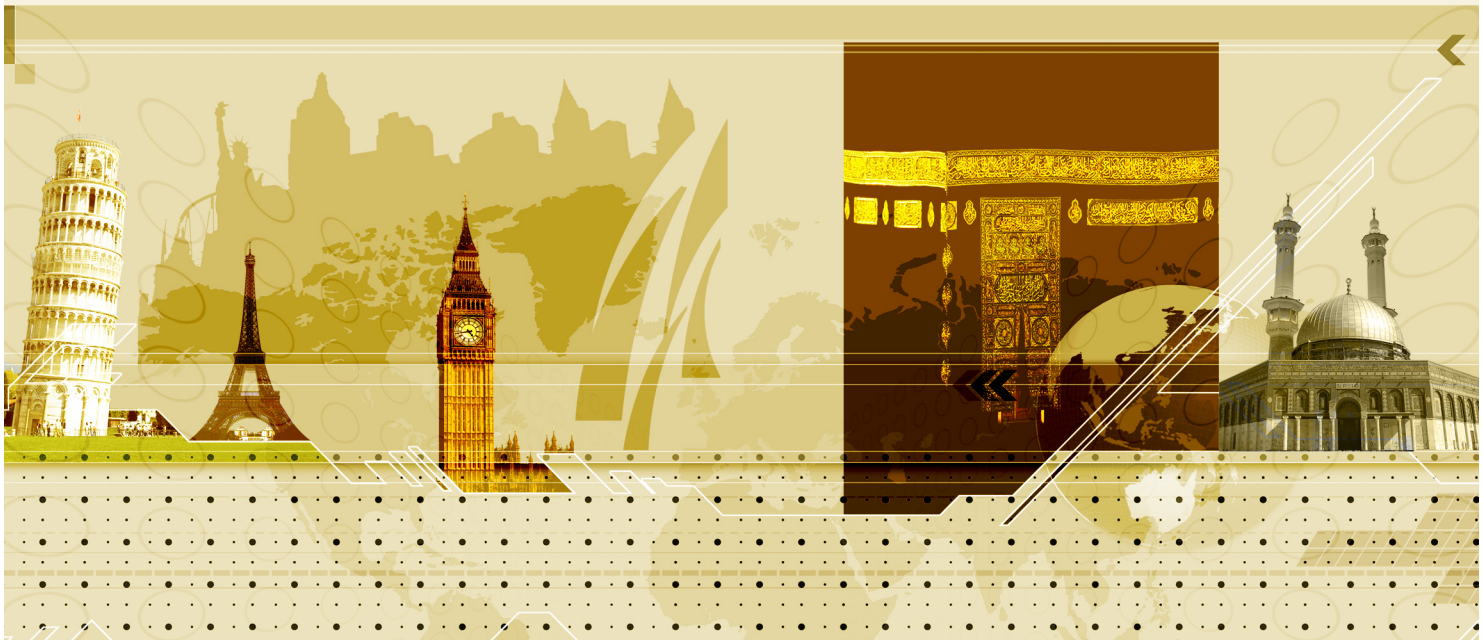

الانتخابات في العراق صراع واجهات احتلالية وإقليمية
حارث المفرجي

منتدى أمريكا والعالم الإسلامي: هل يتجاوز الأقوال؟
السنوسي محمد السنوسي

الخلاف الأمريكي ـ الباكستاني حول الحرب على «الإرهاب»
عصام زيدان

اليهود: سؤال الهوية ومأزق الانتماء
هشام منور

مرصد الأحداث
جلال الشايب

الانتخابات في العراق

صراع واجهات احتلالية وإقليمية

حـــــارث المـــفـــرجـــي
harith_owab@yahoo.com

يستعد المسرحان: الاحتلالي والإقليمي اللذان يتخذان من العراق ساحة للصراع والتدافع لفرض الأجندات التي ترسم شكل الحكومة القادمة في العراق: بين أن تكون احتلالية أمريكية التوجُّه فيها نَفَس إيراني، وبين أن تكون إيرانية خالصة فيها شخوص أمريكية تعمل كواجهة معارضة لإكساب اللعبة السياسية صبغة الشد والجذب والتناحرات التي توحي للبعيد غير الخبير بما يجري على الساحة العراقية بأن هناك عملية سياسية تضم أغلبية نيابية وأقلية معارضة. ويسقط من المسرح معاناة أبناء العراق على مدى سبع سنوات منذ أن دخل الاحتلال الأمريكي أرض الرافدين.

إن محاولة الفهم الأولية لما يجري اليوم على أرض العراق تستلزم معرفة الخريطة التي رسمها المحتل برعاية الحاكم المدني في العراق آنذاك (بول بريمر) باستخدامه لعبة الإجهاز على كل مؤسسات الدولة.

تفكيك الدولة وأهدافه:

لقد جاء قرار بريمر مدروساً واضح الأهداف باعتماد المعادلة الصِّفرية التي تقضي بتهديم العراق وجَعْله دولة بلا جيش ولا هوية ولا أجهزة ولا نظام؛ لتمكين من جاء مع الاحتلال أو تعاون معه في الداخل من إيجاد مساحة للوجود والتغلغل باستخدام ما أسمته إدارة الاحتلال

المجموعات العرقية في العراق

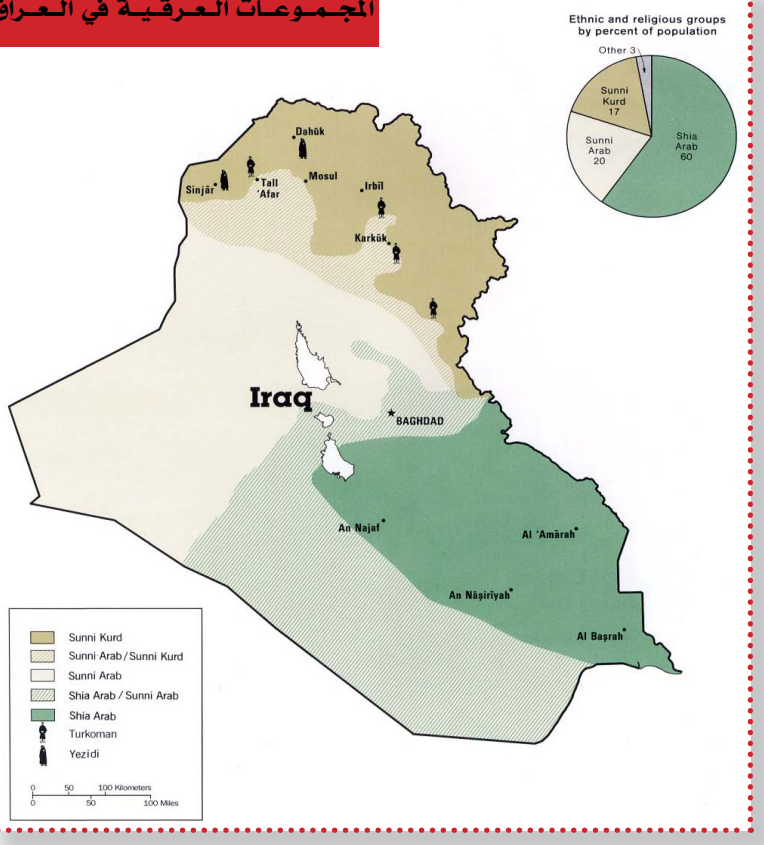

وقتها بالفوضى الخلاقة. وبهذا تكون المزاوجة بين استخدام الأدوات الاحتلالية بالمشروع الأمريكي الذي بشرت به وزيرة الخارجية آنذاك (كونداليزا رايس).

إن الأهداف المتوخاة من تفكيك الدولة تشير بشكل واضح إلى أن المحتل أراد أن يضرب النظام العام للمجتمع بعد أن أنهى نظام الدولة والجيش والوزارات؛ فقد لاحظ انعدام النزاعات الطائفية والعرقية وبقاء المجتمع العراقي على التزامه بضوابطه التي تعارف وتعايش على أساسها.

إن تنفيذ المعادلة الصِّفرية مكَّن الميليشيات المنتمية للأحزاب الطائفية من الضرب في عمق المجتمع؛ بممارسة الإجرام وفرض التصورات والتعامل معها. وهذا الفعل أسَّس لأمرين لا ثالث لهما:

الأول: ضرب لُحْمة المجتمع.

والثاني: إيجاد نواة لجيش متشظٍّ متعدد الولاءات حسب تقسيمات المحاصصة الطائفية والعرقية التي أمر بها بريمر.

وهذا ما حصل عند مجيء ما يسمى: (مجلس الحكم) المرتكز في أساسه إلى أحزاب خمسة اعتمدها المحتل لتقسيم المشهد العراقي؛ للإيهام بأن هذا المجلس يضم كل التنوعات العراقية بمختلف توجهاتهم؛ وما هو في حقيقته إلا تنفيذٌ حرفيٌّ لمعادلة جديدة تُعْرَف بمعادلة القسمة المائلة لضمان استمرار الولاء.

معادلة القسمة المائلة:

تقضي بنود هذه المعادلة بإعطاء طَرَفٍ من أطرافها أكثر مما يستحق لضمان ولائه، وبالمقابل تمكين طرف له مطامع انفصالية لا يقوى على تنفيذها من دون هذا الدعم؛ فكانت معادلة القسمة المائلة المجحفة بحق غيرهم طوقَ النجاة الذي لن يتخلوا عنه؛ فهم مرتبطون به وجوداً وعدماً. أما الطرف الثالث المهمَّش، فاعتمدوا معهم الحرمان وتسييل اللعاب بإعطاء الامتيازات لضمان اندفاعهم في تنفيذ المشروع الاحتلالي سعياً وراء مناصب رمزية لا تغني ولا تُسمن من جوع.

لا ريب أن من قَبِل الدخول في أتون هذه المعادلة المجحفة بحق أبناء العراق لا يمثل تطلعات العراقيين، وإنما يمثل إرادة محتل غاصب.

معادلة القسمة المائلة التي اعتمدها الاحتلال بذكاء خبيث أفرزت ولاءَ وانبطاح من أخذ أكثر من مستحقاته في محاولة لاستدامة هذه المعادلة التي لم يكن يوماً يحلم أن



يكون طرفاً فيها. أما الطرف الانفصالي المنفرد بإدارة قسم من البلاد ويشارك بقوة في عملية سياسية أوجدها المحتل لم ولن يفكر يوماً بالانفصال عن هذه المعادلة؛ لأنها تمثل بالنسبة له البقاء. أما الطرف الأخير الذي يعدُّه المراقبون العامل المساعد، فقد تنتفي الحاجة إليه في أي وقت (وهذا ما حصل اليوم)، هذا الطرف أدرك ضرورة الاستماتة بخدمة الاحتلال لضمان عدم الاستغناء عنه.

هذه المعادلة التي اعتمدها المحتل بقيت كما أرادها بالحكومات التي تلت ما يسمى: مجلس الحكم.

حكومة معيَّنة وأخرى مؤقتة وثالثة دائمة:

تعاقبت في مرحلة الأعوام السبعة برعاية الاحتلال الأمريكي في العراق بعد ما يسمى: مجلس الحكم ثلاث حكومات، لكل واحدة منها ميزة عن التي تليها:

فأولها: كانت حكومة (إياد علاوي) الذي يرأس اليوم القائمة العراقية. وقد أسست هذه الحكومة التي عملت تحت إمرة المحتل ورعايته ضَرْب المدن العراقية الرافضة للاحتلال، كما جرى في معركتي الفلوجة: الأولى والثانية، تلك المدينة التي أرادوا من خلال شنِّ الحرب عليها أن تكون الانطلاقة لتنفيذ المشروع الاحتلالي وتعميمه على المنطقة، لكن صمود الفلوجة كان بمثابة الصخرة المعرقِلة للمشروع الأمريكي بالكامل، بل هي التي كانت السبب في تقوقع المشروع على الأرض العراقية دون المضي في تنفيذه في دول أخرى في القائمة الأمريكية، وهذا باعتراف قادة الاحتلال لا غيرهم.

أما حكومة الاحتلال الثانية: فلم يكن في وسعها إلا تنفيذ أوامر الاحتلال حرفياً؛ فليس لأداة أن تعترض على إرادة سيدها.

ولـمَّا كان لهذا الصمود البطولي لأبناء العراق بالتصدي للآلة الحربية الأمريكية أفدح الخسائر على الأمريكان، سعى المحتل لإيجاد صفحة ســماها سياسية في محاولة بائسة؛ ليحرف الصــراع ويجعله (عراقياً - عراقياً)، ويســلب من المقاومة قدســية الفعل؛ فالمحتلون على مدار التاريخ يسعون إلى (شــيطنة) مناهضيهم؛ (أي: أن يُجعلوا يبدون للناظرين بــلا وجه حق)، فعمل على تســريع الأمر بانتخابات لم يكن العراق ولا المنطقة بوســعهم أن يســتقبلوها أو أن يتعاملوا معهــا، فعمدوا إلى تعجيل ذلك والاكتفاء بجزء بســيط من المشاركة لاســتخدامه كمادة في التهويل الإعلامي؛ لينتجوا لنا مسخاً آخر اســمه: حكومة إبراهيم الجعفري من حزب الدعوة الذي تميزت حكومته بالانفلات العشوائي والرسمي للميليشــيات، بل إن امتيازها الأكبر كان بحادثة تفجير قبة ســامراء للإيذان بالدخــول في أتون حــرب أهلية وتقاتُل العراقيين فيما بينهم؛ فابتدأت باستهداف المساجد وحَرْقها وتدميرها أو الاستحواذ عليها وتحويلها إلى مقرات لهم.

أمــا حكومــة الجعفري فقد قســمت المليشــيات إلى قسمين:

- قسم في الشارع منفلت يســتهدف المناطق الرافضة للاحتلال.

- وآخــر لبس لباس الدولة وعمــل على اعتقال الآلاف من العراقيين وزجِّهم في الســجون والمعتقلات التي مورست فيها أبشــع أنواع التعذيب بالمثقاب الكهربائي وقَتْل المعتقلين ورميهم في مكبات النفايات. وفضيحة ملجأ الجادرية شاهد على ذلك.

وقد شــهدت هذه الفترة عملية اســتماتة للوصول إلى التمثيل الدبلوماسي الخارجي؛ لإظهار هذه الأدوات على أنها حكومة معتَرف بها؛ وما مشاركتها في مؤتمَرَي المصالحة في القاهــرة تحت رعاية الجامعة العربــية إلا مــن هــذا الباب لا غيره، بدليل أنهم بعد انقضاء المؤتمر نكصوا عن عهودهم ومواثيقهم.

وأما حكومة المالكي (وهــي الحكومة الرابعة للاحتلال) فقد جــاءت بعد مخاضات عســيرة لإشــراك بعض ممن طرحوا أنفســهم على أنهم يمثلون طرفــاً كان غائباً بالكامل عن المشهد السياســي الاحتلالي إلا من بعض الشخصيات؛ فإدخال المكوِّن الذي أضفى - بحســب رؤية المحتل - شرعية على هــذه الحكومة؛ تمهيــداً لادِّعاء كذبة كبرى اســمها: المصالحة الوطنية ولم يحدث شيء من هذا. وإذا قفزنا على بعض مفاصلها فإنها (أي: هذه الحكومة) شــهدت تشظيات وانقســامات وخروجاً من أحزاب وتأسيساً لجبهات تنبئ عن حجم الخراب الذي خلَّفه الاحتلال باستخدام هذه الأدوات.

شــهدت هذه المرحلة أنواعــاً متعددة مــن التمددات الإيرانية التي كانت حكومة الجعفري قد بدأتها، وشــهدت كذلك انقســامات بين أبناء الطرف الواحــد؛ فقد وصلوا جميعاً إلى نقطة الافتراق.

ونقطــة الافتراق هنا مقصودة فيهــا تفصيلات كثيرة، منها: نقطة افتراق تنفيذ المخططات الإيرانية عن مخططات الاحتلال الأمريكــي، وكذلك نقطة افتراق مصالح الأحزاب الكردية عن الأخرى المشــاركة في العملية السياسية في ظل الاحتلال، ونقطة افتــراق المجلس الأعلى عن حزب الدعوة وثارات التيار الصدري مع استهداف أنصاره على مرِّ السنين، ونقطة افتراق الحزب الإسلامي عن بقية أبناء المكوِّن السُّني. ونقطة الافتراق هذه رســمت المشهد السياسي العراقي في ظل الاحتلال مــع عدم إغفــال الإدارة الأمريكية الجديدة التي رفعت لواء التغيير شــعاراً لها وتبيَّن بعد عام من إدارة أوباما أنه لا تغيير في السياسة الأمريكية، بل كانت امتداداً لسياسة بوش، وأن التغير الذي تريده أمريكا اليوم، هو قلب المعادلة بإضافة عناصر جديدة والاســتغناء عن عناصر كان لها دور فيما سبق وانتفت الحاجة إليهم الآن.

انتخابات ٢٠١٠ صراع إرادات:

دخلت الاستعدادات للانتخابات العراقية المزمع إجراؤها في الســابع مــن آذار ٢٠١٠ مرحلة الســرقات الانتخابية؛ لضمان تمويل الحملات الدعائية وشــراء الذمم، ثم تبعتها مرحلــة كانت دماء العراقيين فيها ثمنــاً للنزاعات الحزبية والفئويــة والطائفية؛ فعمليات التدافع وإســقاط الخصوم اصطبغــت بلون الدم؛ لإظهار القوة وفرض الســيطرة على الأرض، ومــن خلال ذلك ظهرت بوادر التشــكيلات بأوامر احتلالية وأخرى إقليمية استعداداً لخوض اللعبة السياسية بنســختها الخامســة التي تــروم فيها الولايــات المتحدة الأمريكية دفع التمــدد الإيراني؛ بدعم قائمة عريضة تضم كثيراً من الشخصيات بتوجُّهات مختلفة يجمعها رابط واحد، هو مواجهــة النفوذ الإيراني بينما تشــكلت الجبهة المقابلة لهم لمحاولة تفتيت هــذا التجمع المهدِّد لمصالحهم ومنافعهم باســتصدار قرارات وقوانين من خلال منظومة المؤسسات

التي أنشئت منذ بداية العملية السياسية في ظل الاحتلال، وهو ما يُعرَف بقانون الاجتثاث أو المساءلة والعدالة.

إن دخول مرحلة الصراع إلى إصدار القرارات الإقصائية والاستبعادية لَيَدل على حجم التشظي الذي تعاني منه هذه الأدوات؛ فهم مَجْمَع أشتات دخلوا هذا الميدان للاستفادة مما يُكسِبهم إياه هذا الدخول من مميزات واستثمارات.

إن نظرة إجمالية لما حدث في العراق في ظل الاحتلال الأمريكي لَتَدل بوضوح على انقسام المشهد العراقي إلى فسطاطين من العمل السياسي:

- فسطاط العمل السياسي في ظل الاحتلال؛ ويشترك فيه كل من سبق ذكرهم.

- وفسطاط العمل السياسي المناهض للاحتلال؛ ويضم القوى المناهضة للاحتلال بفعلها الميداني والسياسي والإعلامي.

إن انتخابات ٢٠١٠ لن تأتي بجديد، وإن العملية السياسية الجارية في العراق تحت رعاية الاحتلال الأمريكي والتمدد الإيراني ما هي إلا لعبة بين خصوم متشاكسين لا يقبل أحدهم بالآخر، وإن امتطاء الديمقراطية والدستورية بمزاجية الأحزاب وحسب توجيهات الجهات التي ينتمون إليها ما هو إلا التفاف على المنطقة بأسرها بانتداب أصنام جديدة تقود المنطقة نحو الهاوية، ولا مُشَاحَّة في الوصف بين أن تكون هذه الأصنام أفراداً أو عوائلَ أو مجاميعَ سياسية تشكِّل في إحداثياتها إقطاعات سياسية تقتلع جذور الإرادة الشعبية وحق تحقيق مصير الشعوب

إن اللافت للنظر أن مجمل إن لم يكن جميع من انخرطوا في العملية السياسية في ظل الاحتلال لا توجد لهم برامج واضحة في كيفية إدارة الدولة؛ فهم سائرون على المبدأ المكيافيلي: (الغاية تبرر الوسيلة)؛ فغايتهم اختطاف الحكم ولا شأن لهم في تنفيذ ما يَعِدُون به أيام الانتخابات وليس أدلَّ على ذلك من عزوف أبناء العراق بكافة أطيافه عن التسجيل في مراكز تسجيل الناخبين من جهة، ومن جهة ثانية أن القطاعات الواسعة التي تحدثوا عن تمثيلها ورَفْع المعاناة عنها ازدادت أضعافاً مضاعفة. أما السجون (المعلنة والسرية منها) فإنها تغصُّ بالمعتقلين الذين لم يحظوا بالحد الأدنى من حقوقهم ولم يُعرَضوا حتى على قاضي تحقيق.

إنه تهديم للبُنى التحتية، وإصرار على مواصلة السلب والنهب المنظم وغير المنظم في إطار المشاريع الوهمية أو في التخصيصات المليونية لأشخاص وهميين أو حتى في تهريب الأموال للخارج لاستثمارها بعد انتهاء اللعبة السياسية.

وكذلك المحسوبية والفئوية والعنصرية هي العمود الفِقْري الذي بُنِيت عليه هذه العملية المسماة - جزافاً - سياسية؛ وما هي في حقيقتها إلا مشروع الاحتلال بنسخته المستعجمة.

والسؤال الذي ينبغي على كل متابع للشأن العراقي أن يجد الإجابة عنه هو: هل - حقاً - تُمثِّل هذه الحكومات أدنى صورة للسيادة، أم أنها قوية على أبناء جلدتها ولا تستطيع أن تنبس ببنت شفة أمام قصف إيران وتركيا لقراها في الشمال؟

وهل دستورهم المكتوب بعين واحدة وبإرادة احتلالية خالصة متفَق عليه بينهم، فضلاً عن أن يعترف به أبناء العراق؟

وهل برامج هذه الأحزاب قادرة أن تقف بوجه التحديات الموجودة على الساحة العراقية، أم أنها مسميات مختلفة للتمايز فيما بينهم فقط؟ أم أن هذه الشخوص وتلك الأحزاب وهاتيك التجمعات أثبتت التجربة أنها لا تصلح إلا أن تكون أداة بيد غيرها متقمِّصة ثوب الوطنية؛ لتنفيذ مخططاتٍ احتلالية وإقليمية؛ ليضمنوا بقاءهم على رأس سلطة احتلالية تريد مصادرة العراق وتشتيته.

إن فسطاط العمل السياسي الذي تمثله القوى الرافضة للاحتلال والمانِعة له لا يعدم مشروعاً سياسياً مؤثراً ولا يقل وزناً عن الفعل الميداني للقوى المقاومة ويسانده بتأثير كبير ضلع ثالث في معادلة الممانعة، هو الفعل الإعلامي؛ وبتكامل هذه الأضلاع وتضافرها أفشلت أضخم مشروع احتلالي جاء ليغير وجه المنطقة، ولكنها بفضل الله ثم بثبات أبناء العراق استطاعت أن توقفه وتقوقعه في مكانه وما هو إلا الهزيع الأخير من ليل الاحتلال لتعلن بعده هذه القوى كامل انتصارها، بإذن الله.

إن من حمل السلاح لم يحمله أشراً ولا بطراً، وإنما حمل معه مشروعاً سياسياً مقاوماً ومناهضاً لمشروع الاحتلال وإن العلماء والمخلصين الذين وقفوا بصمود تجاه هذا المشروع إنما يحرِّكهم مشروع سياسي يرفع الظلم عن العراقيين. أما الضلع الثالث، وهو الإعلام الذي وقف بأدوات إذا ما قورنت بالآلة الأمريكية والغربية الإعلامية الضخمة فلا مجال للمقارنة؛ إلا أنه استطاع أن يهزَّ مشروع الاحتلال بمشروعه السياسي الذي عبَّر عنه إعلامياً بما يدحض كل أراجيف المحتل.

الخلاف الأمريكي - الباكستاني حول الحرب على «الإرهاب»

عصام زيدان
Essam_zedan30@hotmail.com



العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وباكستان معقدة بدرجة كبيرة؛ فبقدر ما تحتاج أمريكا إلى باكستان فإنها تتخوف منها ومن مستقبلها الغامض، وهي المعادلة ذاتها التي تنظر من خلالها إسلام أباد لواشنطن؛ فهي بقدر ما تحتاجها اقتصادياً وعسكرياً فإنها تشعر تجاهها بالرهبة والخوف من انتهازيتها السياسية وتقلباتها غير المضمونة.

ومن أكثر العلاقات التي تشكّل محوراً ذا أوجه متعددة لعلاقاتهما المعقدة الحرب على ما يسمى بالإرهاب؛ حيث ترى الولايات المتحدة في باكستان حليفاً مهماً في هذه المنطقة التي تشكل في منظورها مرتعاً ومفرخاً للتنظيمات المسلحة وفي مقدمتها تنظيم القاعدة.

ومع هذه الأهمية التي تحتلها باكستان باعتبارها رأس الحربة الأمريكية في هذه الحرب، إلا أن الولايات المتحدة يساورها القلق من أمرين اثنين:

الأمر الأول: يتعلق بما تبديه باكستان وتنجزه حقيقة في مجال الحرب على «الإرهاب» في مقابل ما تتلقاه من أموال ومعونات اقتصادية وعسكرية هائلة، خاصة من قِبَل مؤسسة الجيش التي تعد أقوى مؤسسة سيادية في باكستان؛ حيث يساور الشك الإدارةَ الأمريكية في حقيقة دور هذه المؤسسة، وتعتقد أنها تقوم بدور مزدوج؛ فهي من ناحية ظاهرية إعلامية تدعم التوجهات الرسمية للدولة بمواجهة التنظيمات المسلحة، وفي الوقت ذاته تحتفظ بعلاقات خاصة مع بعض هذه التنظيمات - خاصة طالبان أفغانستان - لا تجعلها تذهب بعيداً في مواجهتها، سواء على أراضيها أو على الأراضي الأفغانية.

الأمر الثاني: يتعلق بالقدرة الحقيقة لباكستان في مواجهة المخاطر المحتملة والناجمة عن تمدُّد هذه التنظيمات، خاصة المحلية منها، وترى أن سقوط إسلام أباد في يد طالبان باكستان أو جهات حليفة لها أيديولوجياً كتنظيم القاعدة، يعني وراثة هذه التنظيمات للنووي الباكستاني، وهو ما سيرفع معدَّل نشوب حرب كارثية مع نيودلهي التي لن تقف مكتوفة الأيدي حيال هذه التطورات.

باكستان من ناحيتها تتخوف من تقلبات السياسة الأمريكية؛ من ناحية غموضها في بعض الأحيان، وكونها برغماتية بصورة لا تُطمئن الحلفاء؛ فهي قد استغنت عن الرئيس السابق برفيز مشرف ولم تطرف لها عين؛ رغم كل الخدمات التي أسداها لإدارة الرئيس جورج بوش.

أما ناحية التخوف الثانية، فتتركز في أن هذه البراغماتية ربما تدفعها مستقبلاً لعقد نوع من الصفقات مع هذه التنظيمات - خاصة طالبان أفغانستان - بمعزل عن الحكومة الباكستانية التي ستُترك حينها في مهب العاصفة، وتحت غضب هذه الجماعات بعدما تُخلي الولايات المتحدة جنودها وعسكرها من المنطقة.

وثمة إرهاصات تشعل هذه المخاوف الباكستانية، وفي مقدمتها المؤتمر الذي استضافته العاصمة البريطانية لندن، والذي ناقش المؤتمرون فيه إمكانية دمج طالبان في النسيج السياسي لأفغانستان، وتواردُ تصريحات المسؤولين في الإدارة الأمريكية حول رغبتهم في فتح قنوات للتفاوض مع حركة طالبان؛ لإنهاء عمليات المقاومة مقابل مغريات سياسية.

أضف إلى ذلك أن ممارسات الولايات المتحدة العسكرية في مواجهة التنظيمات المسلحة لا تأخذ بعين الاعتبار المآلات والمخلفات الكارثية التي سترثها الحكومات المتحالفة معها، خاصة ضرباتها الجوية في المناطق القَبَلية التي تقذف بزعماء هذه القبائل في أحضان الجماعات المسلحة المناوئة والمعارضة للحكومة المركزية.

إزاء هذه المخاوف والشكوك من قِبَل الطرفين تجاه بعضهما، تحركت باكستان في اتجاه تقليص مفاعيل التحالف الاستراتيجي مع الولايات المتحدة والوصول به إلى الحد الذي لا يضمن تورطها كثيراً، ويصنع لها خطوط رجعة آمنة إلى حد ما.

الخطوات الباكستانية تتمثل في أمرين اثنين:

الأمر الأول: تمثل في التوجه ناحية بناء تحالف إقليمي يعنيه أمر مواجهة هذه التنظيمات المسلحة بصورة تشاركية فاعلة، ووقع اختيارها على إيران وأفغانستان وتركيا؛ فالأُولَى صُفعت عدة مرات في الآونة الأخيرة من قِبَل تنظيمات تتخذ من باكستان مقراً لها، مثل: جماعة جند الله السُّنية، ومن ثَـمَّ يعنيها أن تتخذ من الإجراءات ما يمنع من تمدُّد هذه الجماعات وممارسة نشاطها في دول الجوار.

وأفغانستان بطبيعة الحال يهمها جيداً التعاون مع باكستان في مجال مكافحة ومواجهة هذه الجماعات، على اعتبار أنها تشكِّل التحدي الأبرز أمام حكومة الرئيس حامد كرزاي، ولن تفلح مواجهتها أو حتى دمجها والتصالح معها إلا بتعاون وثيق مع باكستان.

أما تركيا، فهي الدولة الإسلامية الوحيدة التي تشارك بقوات في أفغانستان، ولكنها ترفض بشدة القيام بأية مهام قتالية ضد طالبان، كما أنها تحتفظ بخطوط اتصال فعالة مع هذه الحركة تعود إلى ما قبل الحادي عشر من سبتمبر، وتحظى بقبول عام في أفغانستان، وهو ما جعلها أحد الفاعلين الموثوق بهم في أفغانستان، والدولة الأكثر مصداقية والقادرة على التقريب بين أفغانستان وباكستان لتسوية

الخلافات بينهما؛ كونها لا تملك أية أطماع استعمارية في المنطقة، ولكن يعنيها بشدة تمدُّد نفوذها السياسي.

ومن هنا يمكن فهم وقراءة الاجتماع الثلاثي بين وزراء خارجية باكستان وإيران وأفغانستان بإسلام آباد، وهو الثاني من نوعه، والذي أعلنت باكستان أنه يهدف إلى إعداد وتنفيذ مشاريع في مجال التعاون الإقليمي والعمل على تعزيز الأمن والاستقرار في المنطقة.

فقد شدد وزير الخارجية الباكستاني شاه محمود قريشي، خلال الاجتماع الذي عُقِد منتصف شهر يناير، على ضرورة تبنِّي ما سماه بالتوجه الإقليمي لتسوية الأزمة في أفغانستان، موضحاً أن إيران وباكستان تتحملان أكثر من أي بلد آخر، تبعات الأزمة في أفغانستان؛ لا سيما فيما يتعلق بانعدام الأمن[1].

وتحت هذه المظلة كذلك يمكن قراءة أهداف اللقاء الثلاثي الذي جمع رؤساء أفغانستان وباكستان وتركيا، في يناير الماضي؛ حيث يعوَّل على تركيا تذويب الخلافات (الأفغانية، الباكستانية) بمعزل عن الولايات المتحدة المطعون في نزاهتها، بسبب أطماعها في المنطقة.

كما يمكن لتركيا القيام بدور حيوي في التفاوض مع طالبان لمصلحة الدولتين (أفغانستان وباكستان)، كبديل عن الولايات المتحدة، اعتماداً على القبول العام لها من قِبَل حركة طالبان، وهو تقريباً الدور ذاته الذي يمكن أن تقوم به المملكة العربية السعودية التي استقبلت الرئيس الأفغاني حامد كرزاي عقب انتهاء مؤتمر لندن.

الأمر الثاني: يتعلق برغبتها في التنصل وتقليص التعاون خارج القطر الباكستاني، وتفكيك عملية مواجهة هذه الجماعات؛ بحيث يقتصر تعاونها مع الولايات المتحدة على الأنشطة الخاصة بها على أراضيها فقط، ومن ثَمَّ تتخلى عن مواجهة طالبان أفغانستان، والقاعدة والتنظيمات التي تنشط خارج حدودها، بدعوى أن جيشها منهمك بمهمة قتال طالبان الباكستانية ولا يستطيع فتح عدة جبهات في الوقت نفسه.

وباكستان تريد من ذلك أن تحقق عدة أهداف مجتمعة، في مقدمتها تقليص التعاون مع الولايات المتحدة، والحفاظ على خطوط رجعة مع طالبان أفغانستان كحليفة محتملة لدى انسحاب القوات الأمريكية من أفغانستان.

كما أن وجود طالبان الأفغانية يشكِّل في حقيقة الأمر أهمية سياسية متعاظمة لدى باكستان من جهة أنها تتصدى للنفوذ المتزايد للهند غريمتها التقليدية في أفغانستان.

وقد تواترت على هذا المعنى تصريحات عدة قيادات سياسية باكستانية؛ فالرئيس آصف علي زرداري، لدى تعليقه على استراتيجية الولايات المتحدة الجديدة تجاه أفغانستان قال: إن باكستان متعهدة بتعزيز الأمن والاستقرار في أفغانستان، ويجب على الولايات المتحدة أن تظل حساسة تجاه مصالح باكستان الوطنية الرئيسية ومخاوفها. مؤكداً أن حرب أفغانستان يجب أن تكون محدودة وأن تدور على أراضي أفغانية فقط[2].

أما وزير الخارجية الباكستاني شاه محمود قرشي، فقد صرح أيضاً بأن حرب أفغانستان يجب أن تظل دائرة داخل أفغانستان وألا تمتد إلى باكستان. وذلك على هامش مؤتمر دولي في أبو ظبي حول البلدين، وقال: إن حرب أفغانستان يجب أن تدور في أفغانستان، وينبغي عدم التعامل مع التحديات التي تواجه أفغانستان بالاعتماد على باكستان[3].

أما الولايات المتحدة، فقد أدركت الطموحات الباكستانية جيداً، ومن هنا جاء تحرُّك وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس على محوري: الهند وباكستان؛ فزيارته للهند منتصف شهر يناير ٢٠١٠ كانت - فيما يبدو - بدافع جذبها إلى محور إقليمي جديد؛ يعمل كبديل عن المحور الثلاثي الذي صنعته باكستان مؤخراً، على اعتبار أن بعض الجماعات المسلحة على الأراضي الباكستانية - منها عسكر طيبة - تنشط في مواجهة الهند على وجه الخصوص.

وقد تُفْهَم، هذه الزيارة، في سياق المخاوف من انقلاب التوتر بين الهند وباكستان إلى صراع عسكري، خاصة في حال وقوع هجمات جديدة انطلاقاً من إسلام أباد ضد نيودلهي، والذي قد يؤثر بدوره مباشرة على التركيز تجاه الملف الأفغاني والحرب على ما يسمى بالإرهاب.

أما عن زيارته لباكستان (وهي الأولى منذ تولي الرئيس باراك أوباما رئاسة الولايات المتحدة العام الماضي)، فإن

(١) الجزيرة: ١٦/١.

(٢) مفكرة الإسلام: ١٦/١.

(٣) مفكرة الإسلام: ١٦/١.

عناوينها كانت واضحة للغاية، أبرزها:

توجيه رسالة تهديد لا تخطئها العين لقادة باكستان؛ حيث أعلن أن الهند لن تضبط نفسها إذا تعرضت إلى هجمة جديدة كتلك التي وقعت في مومباي عام ٢٠٠٨، والتي أُلقيت المسؤولية عنها على مسلحين انطلقوا من باكستان في هجماتهم التي قُتل فيها ١٦٠ شخصاً، وقد جُمِّدت إثر ذلك محادثات السلام بين البلدين اللذين خاضا ثلاثة حروب منذ استقلالهما عن بريطانيا.

أما الرسالة الثانية: وكانت صريحة كسابقتها؛ فهي رسالة طمأنينة إلى قادة باكستان بشأن استمرار أمريكا في الحرب على «الإرهاب»؛ حيث صرح غيتس لدى وصوله المطار الباكستاني بأنه سيؤكد لمضيفيه الباكستانيين أن الولايات المتحدة ماضية في مكافحة «الإرهاب» إلى مسافات طويلة، وشدد على التزام واشنطن بمساعدة باكستان[1].



الرسالة الثالثة: كانت بمثابة بيان عن استراتيجية الحرب الطويلة ضد هذه التنظيمات المسلحة، والتي تريد الولايات المتحدة صهرها كلها في بوتقة واحدة، دون فصل بينها، على أن تكون مواجهتها من خلال التعاون الإقليمي الوثيق بين أفغانستان وباكستان، وربما الهند بعد ذلك.

وقد ضمَّنها غيتس في تعليق له في صحيفة «نيوز» الباكستانية، مشيراً إلى أن طالبان الباكستانية تعمل بالتنسيق مع كلٍّ من طالبان الأفغانية وتنظيم القاعدة؛ ولذلك من المهم عدم الفصل بين تلك الجماعات، وأن الملاذات الآمنة لطالبان (الأفغانية والباكستانية) على جانبي الحدود ستؤدي على المدى الطويل إلى وقوع هجمات أكثر جرأة وأكثر دموية في البلدين.

أي إن رؤية الولايات المتحدة الاستراتيجية في الحرب على الجماعات المسلحة تنطلق من رَفْض الفصل بين طالبان الباكستانية والأفغانية، وضرورة الضغط على الحركة على جانبي الحدود، وهي الرؤية التي تتعارض وتصطدم بالرؤية الباكستانية التي قاومت الضغوط الأمريكية لمهاجمة طالبان الأفغانية في الجيوب الحدودية؛ لأنها لا تشن هجمات داخل باكستان، بل تعبر الحدود لتقاتل القوات الأمريكية داخل أفغانستان.

وهذه الرؤية الأمريكية تتسق مع رغبتها في تشكيل تحالف إقليمي تشكِّل الهند أحد أركانه، بالإضافة إلى أفغانستان وباكستان؛ حيث صرح غيتس، في مقاله المشار إليه آنفاً، بأن الجماعات المسلحة في جنوب آسيا (طالبان في أفغانستان وباكستان، وجماعة عسكر طيبة المستقرة في باكستان) تنتظم في سياق مجموعة من المسلحين المنظمين الذين يهدفون إلى قلب الاستقرار في مجمل المنطقة وإثارة النزاع بين الهند وباكستان على وجه الخصوص، وهو ما يعني ضرورة مواجهتها بتحالف إقليمي مضاد.

والذي يبدو من هذا السياق لموقفي باكستان والولايات المتحدة من الحرب على «الإرهاب»، أن الهوَّة ربما تتسع مستقبلاً بينهما، وقد تضطر الولايات المتحدة لتغيير تحالفاتها في المنطقة، أو ممارسة ضغوط نوعية لا تقوى باكستان على مواجهتها، وفي المقابل ستبحث باكستان عن مخارج لا تورِّطها كثيراً في هذه الحرب التي لا تبدو في الأفق القريب نهاية لها.

(١) هيئة الإذاعة البريطانية: ١/٢١.



منتدى أمريكا والعالم الإسلامي:

هل يتجاوز الأقوال؟

السنوسي محمد السنوسي(*)

U.S | Islamic World Forum

منتدى أمريكا والعالم الإسلامي

على الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى ليس لها «سوابق» استعمارية في العالم الإسلامي، عكس الدول العظمى الأخرى (فرنسا وبريطانيا وإيطاليا...) إلا أنها منذ التحاقها بالسياسة الصهيونية أو التحاق دولة الصهاينة بها - حسب الاختلاف المعروف بين الباحثين بشأن العلاقة بين أمريكا وإسرائيل - باتت في موقف عدائي غير مبرَّر مع كثير من الدول الإسلامية، وهو ما أثَّر سلباً على صورتها عند الجماهير العربية والإسلامية التي كانت قد رأت فيها يوماً مَّا نموذجاً للعالم الجديد الحر.

ولذلك لم تعد مجدية تلك المحاولات المكثفة التي تبذلها الإدارة الأمريكية لتحسين صورتها في العالم الإسلامي، ولمدِّ الجسور معه، خاصة على المستوى الشعبي.

وفي إطار سياسة مدِّ الجسور هذه التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية، تأسس (منتدى أمريكا والعالم الإسلامي) الذي ينظِّمه مركز سابان لدراسات الشرق الأوسط بمعهد بروكينجز الأمريكي بالتعاون مع وزارة الخارجية القطرية منذ سبع سنوات في عام ٢٠٠٤م. بعد مرحلة مدٍّ وجزر إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي وضعت العلاقة بين أمريكا والعالم الإسلامي على المحك في أقوى اختبار لها منذ نشوئها.

وجاء انعقاد إحدى جلسات منتدى أمريكا والعالم الإسلامي في دورته السابعة بالدوحة في الفترة بين ١٣ و ١٥/ ٢/ ٢٠١٠م. تحت عنوان: «نحو تعهُّد أقوى بالتزامات الولايات المتحدة والعالم الإسلامي: من المفاهيم إلى النتائج الملموسة»؛ ليعكس إدراك القائمين على المنتدى في الجانبين لضرورة الانتقال من طور المفاهيم والمبادئ والأطر النظرية، إلى طور العمل والتأثير والخطط والبرامج.

وأستطيع أن أقول: إن هذا الإدراك لضرورة الانتقال من التنظير إلى التطبيق والممارسة، خطوة أولية ومهمة لإعادة رسم العلاقات بين الطرفين باتجاه الحوار والفهم المشترك، وإقامة علاقات طبيعية مؤسسة على النِّدِّية والاحترام المتبادل؛ لتحقيق مصالح الطرفين معاً.

وحتى لا نقع أسرى التنظير والدوران حول المفاهيم (وهي المرحلة التي أراد المنتدى بدورته السابعة أن يتجاوزها، وأن يبني عليها ولا يقف عندها)؛ أرى أنه من الضروري أن

(*) باحث وصحفي.

نتأمَّل إشكاليتين مهمتين:

١ - هل ثمة طرفان متكافئان للمعادلة؟

أُولَى هاتين الإشكاليتين تتمثل في ضبط تعريف الطرفين المعنيَّين بالمنتدى وبتحقيق أهدافه، وهما: أمريكا والعالم الإسلامي.

فبينما نرى الطرف الأول (أمريكا) طرفاً محدَّداً سياسيّاً وجغرافيّاً إلى غير ذلك من عوامل التحديد والضبط، نرى الطرف الثاني (العالم الإسلامي) عارياً من تلك المحدِّدات، أو على الأقل تحوَّل - حسب تعبير بعض المفكرين - من «حقيقة سياسية» إلى «منطقة جغرافية»، ومن ثَمَّ؛ فقد أصبح مفهوماً هلاميّاً يصعب أن نتصور له خطة مشتركة، وإرادة واحدة، وأهدافاً يُتفَق عليها؛ ولو في خطوطها العريضة الإستراتيجية، وأقصد بذلك توصيف حال العالم الإسلامي في ما آل إليه واقعه المعاصر، لا في ما نؤمِّل نحن له، ونعتقد أنه يجب أن يكون.

ومن هنا فإن الحديث عن طرفين: أمريكا من ناحية، والعالم الإسلامي من ناحية أخرى، يجعل المعادلة غير متكافئة وغير متوازنة، ومن ثَـمَّ فإن صراع الإرادات ولغة المصالح سيكونان - بلا شك - في مصلحة الطرف الأول، وهو ما يهدد فعليّاً أيَّ حديث عن مصالح متبادلة أو قواسم مشتركة، أو على الأقل يحوِّل تلك اللغة السياسية عن المصالح والقواسم إلى «غطاء أخلاقي» لِمَا يريد أن يحققه الطرف الأول (أمريكا) بغضِّ النظر عن مصالح الطرف الثاني؛ وهو الأمر الذي تنطق به سياسات الولايات المتحدة الأمريكية على امتداد العالم الإسلامي، وفي القلب منه منطقة الشرق الأوسط.

وأقرب مثال لتوضيح هذا الطرح، هو أن أمريكا أدخلت مؤخراً ضمن إجراءات تفتيش جديدة في مطاراتها: إخضاعَ مواطني ١٤ دولة من بينها ١٣ دولة عربية وإسلامية للفحص بواسطة أجهزة الفحص الكامل «سكانرز»، وهو ما رفضه المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية؛ إذ اعتبر هذا - حسب بيانه الصادر عنه - «انتهاكاً واضحاً للتعاليم الإسلامية»؛ لأن تلك الأجهزة «تمكِّن رجالاً ونساءً من رؤية أمثالهم عرايا».

فهل تستطيع حكومات ثلاث عشرة دولة عربية وإسلامية أن تهدد أمريكا - إذا لم تسحب إجراءاتها تلك وتكتفِ بإجراءات فحص أخرى - بأنها ستعامل المواطنين الأمريكيين بالمثل، كما أشار إلى ذلك عبد العزيز بلخادم الممثل الشخصي للرئيس الجزائري للمنتدى في كلمة له؟

أم أن كل دولة ستحدد قرارها بما يغلِّب مصلحتها الذاتية هي دون النظر إلى المصلحة المشتركة؟

أغلب الظن (ويا ليتني أكون مخطئاً) أن الاحتمال الثاني هو الذي سيجد طريقه للتنفيذ؛ ليس في هذه القضية فحسب، بل في كل قضية مشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ ذلك أنها الطرف الأول والأقوى في المعادلة ذات الميزان المائل؛ ولذا تصبح المعادلة المطروحة بطرفيها (أمريكا والعالم الإسلامي) أمراً غير واقعي، وهي إلى العموميات والدبلوماسية أقرب.

التغيير المطلوب.. ممن؟

أما الإشكالية الثانية فتبرز في حقيقة أنه لا يمكن الحديث عن مستقبل العلاقات بين الطرفين دون الأخذ في الحسبان ما جرى في أرض الواقع على امتداد العالم الإسلامي، من قلبه إلى أطرافه وما يزال؛ ليس فقط لأن ذلك يؤشر بوضوح على ما يمكن أن يحمله لنا مستقبل العلاقات بين الطرفين، بل لأن أمريكا فعليّاً على امتداد سبع سنوات (هي عمر المنتدى) وما قَبْلَها، لم تغيِّر بشكل جذري وفاعل من سياساتها في المنطقة، وهي السياسات التي بلغت ذروة المأزق في أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها، من غزو أفغانستان والعراق، ناهيك عن الانحياز الكامل للكيان الصهيوني والاكتفاء بالحديث عن دور أمريكي راعٍ - فقط - للمحادثات الفلسطينية الإسرائيلية؛ بينما أمريكا في الوقت ذاته هي التي تستخدم الفيتو في وجه الإجماع الدولي حين يكون رافضاً للسلوك الصهيوني العدواني.

فمن الذي يُطالَب إذن بتغيير سلوكه؛ حتى يمكن لمعادلات الحوار والتقارب أن تخرج من حيز المفاهيم والنظريات إلى أرض الواقع والنتائج الملموسة؟

يجب أن نعترف أنه بدون ذلك التغيير، سيظل هذا المنتدى وغيره مناسبة - فقط - لتبادل الصور التذكارية، وفرصة ثمينة لتُجمِّل أمريكا سياساتها في العالم الإسلامي الذي تخدره بالكلمات المعسولة، والذي يبدو أنه رضي من أمريكا بالوعود التي لا تنقطع!



اليهود:
سؤال الهوية ومأزق الانتماء

هشام منور(*)
hichammunawar@gmail.com

على الرغم من وَصْف الدراسات السياسية والاجتماعية لجماعة اليهود - بوصفهم مجموعة بشرية لها حضورها في التاريخ الإنساني، والذي قد يكون «فاعلاً» و«مؤثراً»، في كثير من الأحيان، في بعض المجتمعات الأوروبية - بأنهم مجموعة «ممزقة» الانتماء ومتصارعة الهوية، فإن الأثر العلمي الذي تركه كثير من العلماء والمفكرين «اليهود» في التاريخ الإنساني يضعنا أمام تساؤل حول مدى تأثير الاضطراب النفسي والاجتماعي الذي عانوه في آثارهم العلمية التي خلّفوها.

يشير الكاتب «رافائيل باتاي» في دراسته (العقل اليهودي) إلى أن هناك ست قوى أثَّرت في تاريخ اليهود، اتخذت طابع المواجهات في معظمها:

أولاً: تبنِّي لغة ذات جذور كنعانية: وهي العبرية التي جاءت بها التوراة عوضاً عن لغتهم الأصلية الآرامية.

ثانياً: مواجهة الحضارة الهلينية.

ثالثاً: مواجهة العرب في أرضهم التاريخية (فلسطين).

رابعاً: مواجهة عصر النهضة الإيطالية وتجارة جمهورياتها السياسية المتناحرة.

خامساً: مواجهة الحركات المذهبية المسيحية في شرق أوروبا ودَوْرِهم في هذا النشاط، وتطوُّر الحسيدية واللغة اليديشية.

وأخيراً: التأقلم مع الثقافة الغربية الحديثة إبان عصر النهضة الأوروبي، وما نتج عنها من خروج اليهود من حياة مجتمع الغيتو ودخولهم فترة تنويرية على صعيد المبادئ والأفكار.

هذه المواجهات - كما يشير «باتاي» - تُبيِّن اختلافاً بين اليهود وغيرهم؛ فلم تكن هناك يوماً - حسب تعبيره - جماعة يتألف تاريخها من سلسلة من المؤثرات الخارجية. وكان من آثار ذلك تفرُّق اليهود وتعدُّد مشاربهم وتشعُّب انتماءاتهم، وما تمخَّض عن ذلك التعدد؛ فالثقافة التي نتجت عن ذلك التاريخ - بما فيه من تعدُّد وعوامل خارجية - هي ثقافة تُعرَف بمؤثراتها؛ بحيث يمكن الحديث عن ثقافة يهودية هلينية، وأخرى عربية إسلامية، وغيرها ألمانية أو أمريكية، إلى آخر ما هنالك من ثقافات امتزجت بثقافة المجتمعات التي عاش فيها اليهود وانتموا إليها سياسياً.

فمنذ دخول النصرانية إلى الإمبراطورية الرومانية وحتى نهاية العصور الوسطى، قام اليهود بنقل كثير من المعارف اليونانية والعربية إلى اللغات الأوروبية في مختلف المجالات: كالفلسفة والعلوم والأدب والطب، ويُعَد (موسى بن ميمون) أحد أهم الأسماء اليهودية في تلك الفترة، حيث نجح في تمثُّل التراث الفلسفي اليوناني - الأرسطي على وجه

(*) كاتب وباحث.



التحديد – والتوفيق بينه وبين الموروث الديني اليهودي.

وفي عصر التنوير تركت «الهاسكالاه» (وهي حركة عَلمانية) أثراً عميقاً على اليهودية يوازي تأثيرها على النصرانية، كما يرى ذلك الدكتور سعد اليازعي في كتابه: (المكوِّن اليهودي في الحضارة الغربية)؛ فقد أدت بوصفها نوعاً من الإصلاح الديني إلى شكل من اليهودية خالٍ من سماته الخاصة، يقوم على التركيز على المضمون السلوكي بدلاً من الالتزام بالتعاليم اليهودية التقليدية؛ حتى إن بعض مفكري أوروبا رأوا في اليهود النموذج الأكثر تمثُّلاً للعَلمانية، وهذا ما أدى إلى ضعف التمسك بالدين وشجع اليهود على الاندماج في المجتمعات المحيطة، وهو ما أنذر بخطر الذوبان الكلي في تلك المجتمعات، وامِّحاء اليهود واليهودية، وهو أيضاً ما سبب مأزقاً بالنسبة للحريصين على الحفاظ على الهوية اليهودية، ومأزقاً بالنسبة لبعض المجتمعات الغربية التي لم تكن راغبة في حصول ذلك الاندماج على النحو الذي جعل اليهود – رغم العقلانية والتنوير والازدهار – حاضرين في المجتمعات الأوروبية.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية، لم يخلُ الوجود اليهودي من بعض المنغصات، كمعاداة السامية، لكن اليهود الأمريكيين حققوا ما لم يحققه نظراؤهم ممن آثروا البقاء في أوروبا، سواء على المستويات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية. وهو ما ساعدهم على ترسيخ أبرز الحركات الأيديولوجية السياسية في التاريخ اليهودي الحديث، وهي الحركة الصهيونية، لا سيما في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ حيث أنشأت دولة «إسرائيل» في فلسطين التي لها مكانة خاصة بالنسبة لليهود في العالم، معتبرين ذلك أبرز إنجازات اليهود وأكبر عوامل توحيدهم.

حقيقةً أن التاريخ يشهد على كون اليهود أكثر شعوب الأرض تعدُّداً في الانتماءات، ومعاناة من مأزق الهوية، يعزز ذلك الشعور اليهودي الدائم بالاختلاف، والموقف الثقافي والفكري تجاه ثقافة الآخر (الغربي – المسيحي)، وهو شعور لم يخلُ من شعور بالتأزم حيال الهوية، وإن أفضى حيناً إلى الدونية، فإنه في أحيان كثيرة أدى إلى مزيد من الشعور بالتفوق.

ويمكن القول: إن أزمة الجماعة اليهودية (التي نرفض اعتبارها جماعة سياسية مهما كانت الظروف أو الادعاء بوجود كيان سياسي، هو: «إسرائيل») لا يمكن لها أن تتجاوز معضلة هويتها وانتمائها في ظل تعزيز هذه الأزمة بتعدُّد المشارب الفكرية والثقافية لأفرادها، وهو الأمر الذي يصعب تجاوزه أو التغلب عليه.



مرصد الأخبار

أنشطة تنصيرية بالجزائر

قدَّم نواب حزب النهضة الإسلامي الجزائري مشروع لائحة للبرلمان لفتح نقاش عام واستدعاء مسؤولي الحكومة حول ظاهرة التنصير في الجزائر.

ويقدِّر النائب محمد حديبي عدد النصارى في الجزائر بنحو ٣٠ ألفاً، وقال: إن للتنصير أجندة سياسية خارجية؛ لتكوين أقلية مسيحية في منطقة معيَّنة؛ تكون ذريعة للتدخل الخارجي لحماية الأقليات.

وهذا ما أيَّده الباحث محمد أرزقي فرَّاد المنحدر من منطقة القبائل، والذي اعتبر أن أسباب التنصير تعود - أساساً - إلى تهميش الأمازيغ وغياب الديمقراطية، مشيراً إلى أن الذين اعتنقوا المسيحية بمنطقة القبائل إنما فعلوا ذلك انتقاماً من الدولة الجزائرية التي همشت الأمازيغ.

ومن جهة أخرى أكدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن التنصير ليس محصوراً بمنطقة القبائل، بل ينتشر في مناطق أخرى من البلاد، وحذر الأمين العام للجمعية الدكتور عبد المجيد بيرم من تهوين مسألة التنصير؛ لأنها تنطوي على ما سماها: مآرب سياسية وانفصالية.

ويُذكَر أن تاريخ التنصير في الجزائر يعود إلى الكردينال لافيجري عام ١٨٥٧ الذي بنى كنيسة السيدة إفريقيا (أول كنيسة في القارة السمراء) وحوَّل بعض مساجد الجزائر إلى كنائس.

[موقع الجزيرة ٢٠١٠/٢/١٦]

جلال الشايب
ielshayeb@hotmail.com

هايتي...اختطاف الأطفال باسم المسيحية

اعتقلت شرطة هايتي عشرة أمريكيين منتمين لمنظمة «الملجأ من أجل حياة جديدة للأطفال» المسيحية؛ حيث ضُبطوا أثناء محاولتهم نقل ٣٣ طفلاً إلى خارج هايتي، ووُضِع المعتقلون العشرة الذين جرى توقيفهم الأحد الموافق ٢٠١٠/١/٣١ (وهم خمسة رجال وخمس نساء) في الحجز في العاصمة بورت أوبرانس.

وأكدت المتحدثة باسم المجموعة لورا سالسبي من مقر احتجازها في بورت أوبرانس قائلة: «في ظل اختلاط الأوضاع فإن الحكومة الآن على حق، لكن ما حاولنا فعله هو الشيء الصحيح؛ لقد **قمنا بتنفيذ المبادئ المسيحية**».

وفي العاشر من شهر فبراير المنصرم قررت محكمة في هايتي إطلاق الأمريكيين العشرة؛ وذلك «لعدم توفر الدافع الإجرامي لديهم» لمحاولتهم إخراج الأطفال من البلاد، بحسب مصدر قضائي هناك. [وكالة رويتر، ومواقع أخرى]

تصدع الداخل لدول التحالف في أفغانستان

قالت وسائل الإعلام الهولندية: إن الحكومة الهولندية انهارت بسبب خلافات داخل الائتلاف الحاكم حول تمديد مهلة نشر القوات الهولندية في أفغانستان.

وأشارت الأنباء إلى أن انهيار الحكومة الائتلافية جاء عقب إخفاق محادثات مكثفة بين أطراف التحالف السياسي في التوصل إلى اتفاق.

وعلى صعيد آخر تظاهر مئات الألمان والأجانب في برلين ضد الحرب في أفغانستان، مطالبين بسحب القوات الألمانية المنضوية تحت لواء حلف شمال الأطلسي.

ورفع المتظاهرون شعارات تعارض خطة تعتزم حكومة المستشارة أنجيلا ميركيل عرضها على البرلمان؛ هدفها زيادة عدد القوات الألمانية في أفغانستان إلى أكثر من خمسة آلاف، ورَفْعُ مخصصات المهمة العسكرية والمدنية من ٨٠٠ مليون إلى ١,١ مليار يورو سنوياً.

[موقع BBC والجزيرة ٢٠١٠/٢/٢١]



نيويورك تايمز:
خريجو كلية بغداد «اليسوعية» يتنافسون على حكم العراق

لقد حزم القساوسة أمتعتهم ورحلوا منذ زمن بعيد، بَيْدَ أن النخبة التي تخرجت من المدرسة اليسوعية العليا التي اشتهرت باسم (كلية بغداد) ما تزال تدور حول محور عالم السياسة العراقية المضطربة اليوم؛ فالمرشحون الثلاثة لمنصب رئيس الوزراء في العراق (إياد علاوي وأحمد الجلبي وعادل عبد المهدي) كانوا ثلاثتهم زملاء دراسة في (كلية بغداد اليسوعية) في نهاية خمسينيات القرن الماضي.

إن ما يوحد شلة (كلية بغداد اليسوعية) يبدو أكثر أهمية أكثر مما يفرقها؛ فإن الروابط التي تعود إلى أيام الطفولة وأروقة (كلية بغداد اليسوعية) العتيقة تومئ إلى أن تلك الصراعات الحادة التي أفرزها ذلك الواقع الاستقطابي ربما يمكن التخفيف من حدَّتها على خلفية النشأة المشتركة للرجال الثلاثة.

المدرسة اليسوعية العليا أو (كلية بغداد) كما أُطلق عليها، والتي تخرَّج منها مرشحو رئاسة الوزارة الثلاثة تأسست سنة ١٩٣١م، ثم أصبحت المكان المميز؛ حيث يرسل أبرز النخب البغدادية أبناءهم للدراسة فيها في ذلك الوقت، وقد كان من الجلي في فترة الخمسينيات - حين كان العراق تحت حكم أقلية نخبوية - أنَّ كل الذين ارتادوا (كلية بغداد اليسوعية) يعرفون بعضهم بعضاً.

[نيويورك تايمز عدد ١٢ ديسمبر ٢٠٠٥م]

الكفاح المسلح دمر حياتنا!

هاجم رئيس السلطة الفلسطينية المنتهية ولايته محمود عباس عمليات المقاومة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي؛ حيث قال: «إن الكفاح المسلح دمر حياتنا بالكامل».

وأكد عباس على الأمر بقوله: «إن الكفاح المسلح جربناه في الضفة وغزة والانتفاضة الثانية وما تخللها من عمل مسلح دمَّر حياتنا بالكامل، وحتى أكون صريحاً أنا مع الكفاح المسلح؛ إن كان باتفاق عربي».

ويُذكَر أن عباس كان قد أكد في تصريحات سابقة على أنه لن يسمح بأي عودة إلى المقاومة المسلحة ضد «إسرائيل».

[الشرق القطرية ٢٠١٠/٢/٨]

أطفال القدس... لا ينحنون

أفادت منظمة «بيتسيلم» الحقوقية العاملة داخل الكيان الصهيوني في تقريرٍ لها أن جيش الاحتلال الصهيوني كثَّف من اعتقال الأطفال في حي سلوان بمدينة القدس المحتلة، كما بيَّنت المنظمة أن الاعتقالات تركَّزت ضد الأطفال من سنِّ ١٢ وحتى ١٥، وأنَّ التحقيق معهم أخذ أشكالاً صعبةً، مثل الشَّبْح وتعصيب العينين لأوقات طويلة والتهديد.

وأضافت أن الطفل أحمد صيام (١٢ عاماً) من حي سلوان المقدسي طلب منه المحقِّق أن يسجد له، إلا أن الطفل رفض، وقال له: «لا أسجد إلا لله»؛ حيث تعمَّد المحقِّق ضربه على رقبته بشكل متكرر.

[المركز الفلسطيني للإعلام ٢٠١٠/٢/٢٠]

ارتفع عدد العاطلين عن العمل في العالم إلى رقم قياسي في عام ٢٠٠٩ وصل إلى ٢١٢ مليون شخص بسبب الأزمة المالية والاقتصادية التي هزت العالم العام الماضي وَفْقاً لتقرير صادر عن منظمة العمل الدولية.

وأفاد التقرير أن معدل البطالة العالمي ارتفع في عام ٢٠٠٩ بنسبة ٦,٦ ٪، وهي نسبة تختلف من منطقة اقتصادية إلى أخرى؛ إذ تقدَّر في شرق آسيا بنحو ٤,٤ ٪، وتصل إلى أكثر من ١٠ ٪ في وسط وجنوب شرقي أوروبا وشمال إفريقيا.

[موقع CNN ٢٠١٠/١/٢٧]

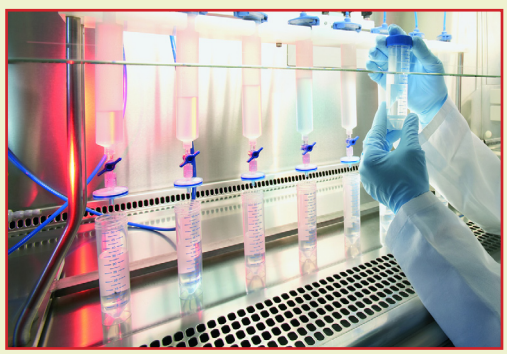

حذرت منظمة الصحة العالمية من ارتفاع أعداد الوفيات بسبب مرض السرطان إلى ١٧ مليون حالة سنوياً بحلول عام ٢٠٣٠ مقابل ٧,٦ مليون وفاة متوقَّعة هذا العام، وذلك في حال عدم اتخاذ إجراءات عاجلة لتجنب عوامل الخطر، كما أنه يتسبب في حالة وفاة واحدة من بين كل ثماني حالات وفاة على مستوى العالم ليتجاوز بذلك عددُ الوفيات الناجمة عنه حصيلة وفيات الإيدز والسل والملاريا مجتمعة.

[موقع محيط ٢٠١٠/٢/٢]

أكدت وكالة الأنباء المركزية في تايوان أنه خلال عام ٢٠٠٩ طلب ٤٤٢٨ رجلاً الخط الساخن الذي دشنته وزارة الداخلية، والخاص بالإساءات الأسرية، من أجل طلب المساعدة بعد أن تعرضوا للضرب على أيدي زوجاتهم، مقابل ١٣٢٥ رجلاً قاموا بذلك خلال عام ٢٠٠٢.

ويُذكَر أن إجمالي عدد سكان تايوان ٢٣ مليون نسمة، بينهم ١٧ مليوناً في سن الزواج، بينما تقدَّر معدلات الزواج بحوالي ١٣ ٪ سنوياً، وتقدَّر نِسَب الطلاق بـ: ٨٣,٤ ٪ سنوياً.

وبحسب دراسات سابقة فإن نسبة الأزواج الذين يتعرضون للضرب على أيدي زوجاتهم يقدَّر في الهند ١١٪، وفي بريطانيا ١٧ ٪، وفي الولايات المتحدة ٢٣ ٪. أما العالم العربي فتراوحت النسبة بين ٢٣ ٪ و ٢٨ ٪.

[إسلام أون لاين ٢٠١٠/٢/٢١]

أكد رئيس مجلس إدارة صندوق النقد العربي (جاسم المناعي) أن المصارف الإسلامية شهدت نموّاً سنوياً بين ١٠ و ١٥ ٪، وقارب عددها الـ ٣٠٠ مصرف في ٥١ دولة، وارتفعت أصولها إلى نحو ٢٦٥ بليون دولار، وتجاوزت استثماراتها ٤٠٠ بليون دولار. جاء ذلك في افتتاح دورة «الإشراف والرقابة على المصارف الإسلامية»، التي نظمها الصندوق في مقره في أبو ظبي.

[موقع الإسلام اليوم ٢٠١٠/٢٠/٢١]





س: ما هي أهم العمليات العسكرية التي قامت بها قوات الاحتلال الأجنبية ضد طالبان في أفغانستان؟

شهدت ولاية هلمند الأفغانية عدداً من العمليات العسكرية التي قامت بها القوات الأجنبية للقضاء على حركة طالبان التي تعتبِر هذه الولاية الواقعة جنوب أفغانستان من أهم معاقلها.

وكانت قوات حلف شمال الأطلسي (ناتو) المنضوية في إطار ما يُعرف باسم (القوات الدولية) للمساعدة على إرساء الأمن والاستقرار (إيساف) قد تولت مهمة العمليات القتالية الدولية في جنوب أفغانستان يوم ٣١ يوليو ٢٠٠٦.

وفي ما يلي نبذة تاريخية مختصرة لأهم العمليات التي قامت بها القوات الدولية في جنوب أفغانستان منذ أن صعَّدت حركة طالبان عملياتها؛ بهدف طرد القوات الأجنبية وإسقاط الحكومة الأفغانية المدعومة من قِبَل الولايات المتحدة.

- (٢ - ١٧ سبتمبر ٢٠٠٦)

قام ألف جندي أفغاني وأجنبي بعملية سميت: «ميدوسا» في مديرية بنجوي بولاية قندهار ادعت قوات الناتو أنها أسفرت عن مقتل ٥٠٠ مسلح من طالبان.

- (١٥ ديسمبر ٢٠٠٦ - يناير ٢٠٠٧)

شاركت القوات البريطانية والكندية في عملية أُطلِق عليها اسم: «قمة النسر» بإسناد مباشر من القوات الأمريكية في مديرية بنجوي بولاية قندهار.

- (٦ مارس ٢٠٠٧)

شن أكثر من خمسة آلاف جندي أفغاني وآخرون من الناتو عملية «آخيل» في ولاية هلمند.

- (٢٩ أبريل ٢٠٠٨)

قامت القوات البريطانية والأمريكية بعملية «آزادا ووزا» بولاية هلمند.

(١٨ - ٢٠ يونيو ٢٠٠٨)

شاركت القوات الأمريكية والأفغانية في عملية «الالتفاف» ضد مقاتلي طالبان في مديرية أرغنداب الواقعة على بعد ٢٠ كم من مدينة قندهار، قُتِل خلالها - بحسب رواية القوات الدولية - مئات من عناصر طالبان.

- (٢٣ يونيو - ٢ يوليو ٢٠٠٩)

انطلاق عملية «مخلب النمر» بقيادة القوات البريطانية، وعملية «الخنجر» بقيادة القوات الأمريكية في هلمند، واستهدفت العمليتان المناطق الواقعة في محيط بلدة غراسامار.

- (٤ ديسمبر ٢٠٠٩)

شن أكثر من ألف جندي أطلسي مدعومين بالقوات الأفغانية هجوماً واسعاً على ولاية هلمند في عملية أُطلِق عليها اسم: «غضب الكوبرا».

- (١٣ فبراير ٢٠١٠)

بدء العملية المشتركة للقوات الأمريكية والبريطانية؛ بهدف استعادة قرية مرجه بولاية هلمند من حركة طالبان، وذلك في إطار الإستراتيجية الأمريكية الجديدة في المنطقة.

وبعد هذه العمليات العسكرية من الدول الأجنبية المجتمعة في أفغانستان ضد طالبان؛ ينشر موقع «آي كاجولتيز .أورغ» المستقل الذي يحصي الخسائر العسكرية الأمريكية في أفغانستان والعراق، فيقول: إن ألف جندي أمريكي قُتِلوا في إطار عملية «الحرية الدائمة الدولية لمكافحة الإرهاب التي بدأت قبل أكثر من ثماني سنوات في أفغانستان».

وأكد الموقع أن ٥٤ جندياً أمريكياً قتلوا منذ مطلع عام ٢٠١٠ حتى الآن في أفغانستان. وبلغت الحصيلة الرسمية لإجمالي القتلى التي أعلنتها وزارة الدفاع مؤخراً ٩٩٠ قتيلاً في أفغانستان، وعادة لا يدرج في الحصيلة الرسمية أي قتلى إلا بعد ٢٤ ساعة - على الأقل - من إبلاغ ذويهم.

وتفيد الإحصائيات خلال عام ٢٠٠٩ أنه قُتِل ما مجموعه ٥٢٠ جندياً أجنبياً في أفغانستان، بينهم ٣١٦ أمريكياً؛ لتصبح سنة ٢٠٠٩ هي السنة الأسوأ للقوات الأمريكية منذ بداية الغزو.

[بتصرف من موقع الجزيرة ومواقع أخرى ٢٠١٠/٢/١٣]

المسلمون في هاييتي

أحمـــد محـمـــود الـسـيـد
mr.ah54@hotmail.com

تقع جزر هاييتي شـــرق قارة أمريكا الشـــمالية، وأغلب ســـكانها من الزنـــوج الأفارقـــة الذين جلبهم الاحتلال الإســـباني كعبيد. ومعظم هؤلاء العبيد كانوا من المسلمين. ثم جاء الاحتلال الفرنسي الذي تحولت فيه هاييتي إلى إحدى أشـــد المستعمرات قسوة على السكان.

عانى المسلمون في هاييتي من الاضطهاد الديني؛ حيث وضعت فرنسا العديد من العراقيل لمنع المسلمين من ممارسة شعائر دينهم، فاضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة لجزيرة (جوناف) المجاورة.

ونتيجة لاستمرار الاضطهاد قامت ثورات إسلامية للمطالبة بتقرير حق المســـلمين في ممارســـة شعائر دينهم، وقد ســـجل التاريخ الإســـلامي لهاييتي جهاد المسلمين بقيادة الشـــيخ (محمد ماكندال) الذي حُكِم عليه بالموت حرقاً؛ لإخماد صوت المسلمين ومنعهم من المطالبة بحقوقهم الشرعية.

عدد سكان هاييتي تسع ملايين نسمة، ٨٠ ٪ رومان كاثوليك، ١٦ ٪ بروتستانت، ٤ ٪ ديانات أخرى. إجمالي عدد المســـلمين حوالي عشرة آلاف مسلم يمثلون ١ ٪ من إجمالي السكان.

وتشـــير بعض المصادر إلـــى أن أول مجموعة من المســـلمين العرب بالجزيرة هاجـــرت إليها كانت من فلســـطين عـــام ١٩٢٠ م وأول مهاجـــر كان من قرية العيزرية قرب القدس.

لقد ظل حلم بناء مسجد يراود المسلمين لسنوات



طويلـــة دون أن يتمكنـــوا من تحقيقه ســـوى في عام ١٩٨٥م؛ حيث ظهر أول مسجد في البلاد للنور بعدما قام أحد المسلمين بتحويل منزله إلى مسجد.

تضم هاييتي اثني عشـــر مركزاً إسلامياً أكثر من نصفهـــم بالعاصمة؛ حيث يعمل بها عدد ممن اعتنقوا الإسلام وعدد من المسلمين العرب.

ومن المشـــاهد المألوفة أن ترى المســـلمين بزيهم الأبيض الناصع وملابســـهم المميَّزة ولحاهم السوداء، بينما ترتدي نساؤهم الزي الإسلامي الطويل والحجاب الذي يغطي كل الجسم.

المصادر:

- موقع إسلام تايم نت.
- ويكيبيديا الموسوعة الحرة.
www. al- aqsa. org
www. amrica. Gov
www. Fact book. gov

مجلة البيان

الآن ..

جديدنا في الأسواق

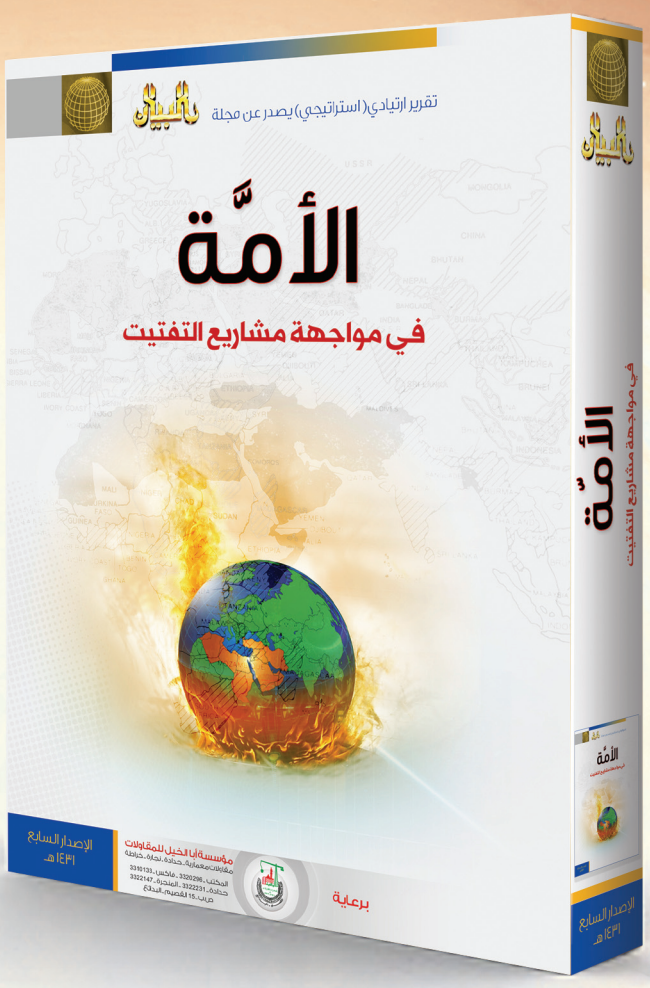

الراعي الرسمي ..

مؤسسة أبا الخيل للمقاولات
مقاولات معمارية .. حدادة .. نجارة .. خراطة

المكتب ـ 3320296 .. فاكس .. 3310133
حدادة .. 3322231 .. المنجرة .. 3322147
ص.ب .. 15 القصيم .. البدائع

بدر 0508948947

www.albayan-magazine.com

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التـوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـــة والمديـــنة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـــة الجنوبيـــة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـــة الشرقيـــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــة القصيـــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

العائدات

يس عبد الوهاب نبيه مسعد(*)

هل شاهدتَ عُيوناً تدمع؟
هل أحسستَ بقلبٍ يُضجع؟
أم أظلمتِ الدنيا أمامك؟
هل شاهدت الحزن يسير؟
فوق الرأس يحوم، يطير.
يعود، يجول.
يخرِقُ فرحاً، يُسْكِتُ أملاً، يَهْدِمُ جسداً.
حتى يُقضى بين يديه.
إنها العائداتُ، وما أدراك ما العائدات؟ تلك التي تفاجئُنا دُون نذير، وتجْثُو على قلوبنا دُون بشير.

إنها تؤرِّق النفس، وتمنع النوم، وتُمْرِضُ الجسد والقلب، وتُؤثِّرُ في الإنسان تأثيراً يجعلُهُ يغيِّر سَمْته وهيئتهُ، وتصلُ به إلى أن يترك العمل، وينقطع به الأمل، وقد تُودي بصاحبها بعدما غرَّتْهُ الحياةُ وزينت له أنَّهُ في مأمنٍ منها، وأنَّى له ذلك؟ وأنَّى لإنسان أن تصفو له الحياة أبداً؟ فالكلُّ من لذعاتها ذائقٌ. وما منْ عالم إلَّا له منها نصيبٌ. طَحنتْه الأيامُ فاعتلى وطارتْ شُهرتُهُ وأثَّر في الأُمم كما تؤثِّرُ حُبوب اللِّقاح في الثمار؛ فلولاها ما أينعت الثِّمار، ولولا العُلماء ما تقدَّمت الدُّنيا.

(*) عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

ينْظرُ بعضنا إلى بعض، فيروْنهُم لا يشكون، ولا يتبرَّمُون، فيَظُنُّون أنَّهم يَخْلُون من العائدات، وأنَّهم في مأْمنٍ من الحادِثات؛ فإذا أصابك مِثْلُ ذلك فاستغفر الله - تعالى - لأنه: (من راقب الناس ماتَ غمّاً)، و «من حُسْنِ إسلام المرْءِ تركُهُ ما لا يعْنيه».

إنَّ المصائب تتفاوت بقدْر أصحابها، ويظن المبتلى أنه أكثر الناس ابتلاءً؛ وذلك لشدَّة لَذْعِ العائدات عليه، وقلة الحيلة لديه:

وتعظمُ في عينِ الصَّغيرِ صِغارُهَا
وتَصْغرُ في عينِ العظيمِ العظَائمُ

كان هناك رجُلان ذوا منْصب وجاهٍ، ورِثا ضَيْعةً وأمْوالاً، وبساتين، ثُمَّ استُخرِجَ لهما قانونٌ، سلب منْهما أكثر ما يملكانه.

أما أحدُهُما فثبت في الميدان ثبات الأسد في الفلاة؛ فقد بنى لله مسجداً، وظَلَّ على حاله من توزيع الصدقات والعطف على المساكين إلى أنْ تغمَّده الله برحمته، وحزِن المساكين على فجيعته.

وأمَّا الآخرُ: فقد جُنَّ جُنُونه بعدما ظنَّها باقيةً لهُ، وقدْ ظلم مَنْ ظلم وقتل مَنْ قتل، يَثُور كالبركان، ويخور كالثيران.



لقدْ خلق اللّه – تعالى – الموتَ والإنسانُ لا يُريده ولكنَّهُ يُسلِّم به، وخلق الحياة والإنسان يطلبُها ولكنَّها لا تدوم

العائدات

لا رادع له ولا أمان؛ فهو السُّلطان بعد السلطان، ثم تغير به الحال؛ فبُنيت له حُجرةٌ ظاهرها حَجَريَّةٌ، وباطنها إسفنجيةٌ.

كُلما تذكر ماله الضَّائع جعل يخْبطُ رأسهُ بتلك الجُدْران إلى أن توفَّاة اللهُ – تعالى – وهو على هذه الحال. لا يُذْكَرُ إلا وتُذكَر مساوئه، ولا يُذكَر أخوه إلاَّ وتُذكَر محاسنه.

لقدْ خلق الله – تعالى – الموتَ والإنسانُ لا يُريده ولكنَّهُ يُسلِّم به، وخلق الحياة والإنسان يطلبُها ولكنَّها لا تدوم.

وخلق الله – تعالى – الأفراح يريدها الإنسان ولكنها لا تستمر على حال، وخلق الأحزان لا لمتاعب الإنسان ولكنْ لتصقل نفسه صقلاً يخرج منها كالذَّهب الخالص وقد ثقَّفه صاحبه على النَّار؛ فتزداد جمالاً وقوَّة. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣ – ٤٤].

ولربما أصاب الإنسان ضِيقٌ دون سبب واضح يبدو له؛ لأن السبب عند مُسبِّبُ الأسباب، فاصطلِحْ معه يشرحْ لك صدرك، ويضعْ عنك وزْرك. ثُمَّ خفِّف الحِمْل عن البائسين، وتصدَّق على المُحتاجين؛ فالصَّدقة بُرهان على الإيمان، تنجلي بها الغُمَّةُ، وتنكشف بها المُلِمَّةُ.

فلْتنطلق في الحياة الفانية، انطلاقك للحياة الباقية، حتَّى تحصُد ما قدَّمت يداك.

إن حوادث الزمن لا تعدو أن تكون فقداً أو حرماناً : فإنْ كانتْ فقْداً، فالعائداتُ تُولِّي، ولا يبقى لك إلَّا ما قدَّمت: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وإن كانت حرْماناً، فأنت لم تملك منها شيئاً طوال حياتك، ولم تجرِّب لذَّة المُلك؛ فلماذا البُكاءُ على ما لم تملكه؟

فإذا وقع عليك ابتلاءٌ (وهو واقعٌ لا محالة) فحاول التخفيف عن نفسك وحلَّ مُشْكلاتك وإنْ كان لك يدٌ فيها، واستشرْ أُولي الهمة والرأي، وإلاَّ ففوِّض الأمر إلى الله – تعالى – إذا انقطعت بك الأسباب؛ فهناك مسبِّب الأسباب يُجيبُ من مدَّ إليه يده: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]. وسيحلُّ لباس الفرح بديلاً من لباس الحُزْن؛ فلا تبيتنَّ إلا خالي البال.

إنَّ المُبتلى قريبٌ من الله، قريبٌ من الجنة؛ فأكثر الناس ابتلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

فلْيكن استقبالُنا للأتراح كاستقبالنا للأفراح، هكذا المؤْمن: إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له. واللهَ أسأل ألاَّ يجْعل مصيبتنا في ديننا.



كيف تحول الموساد من «البطل والأسطورة» إلى «الفاشل ووصمة العار» بعد اغتيال المبحوح؟

د. عدنان أبو عامر(*)

لا زالت جريمة اغتيال الشهيد «محمود المبحوح» تلقي بظلالها على الإعلام الصهيوني خلال الأسابيع الماضية؛ فبعد أن كالت وسائل إعلام الصهاينة المديح والثناء لجهاز الموساد ورئيسه في بداية الأمر؛ لأنه خلَّصهم ممن وصفوه بـ: «ألد أعدائهم»، تتابعت الاتهامات في الأيام الأخيرة للجهاز ذاته بارتكاب أفظع الأخطاء، وأسوأ الثغرات الأمنية.

ووصل الأمر ببعض الصحفيين والإعلاميين الصهاينة إلى أن يصفوا جهاز الموساد بأنه: تحوَّل من «بطل قومي» إلى «فاشل قومي»، ومن أسطورة الدولة إلى وصمة عارها!

تصفية الحساب:

تناولت كبرى الصحف الإسرائيلية «يديعوت أحرونوت» حادث الاغتيال في صفحتها الأولى تحت عنوان: «الذراع الطويلة» للموساد إلى جانب صورة لوالدة الجندي «إيلان سعدون» تحمل صورة ابنها الذي اختُطف مع جندي آخر وقُتِلا عام ١٩٨٩ في عملية نُسِب تخطيطها وتنفيذها إلى المبحوح، رحمه الله.

واختارت «معاريف» عنوان: «تصفية في دبي»، وأرفقته بعنوان آخر: «تصفية حساب»، وجاء في عنوان صحيفة «إسرائيل اليوم» اليمينية: «يد الموساد» و «نهاية فدائي كبير... الرجل الذي أوجد عمليات خطف جنود، ثم أدار شبكة تهريب الأسلحة إلى قطاع غزة».

بينما استعرض التلفزيون الإسرائيلي سلسلة من الاتهامات المنسوبة إلى الشهيد المبحوح، لا سيما فيما يتعلق بتقوية الذراع العسكري لحركة حماس في قطاع غزة، ولا سيما تزويدها بصواريخ ذات مدى (٦٠ و ٧٠) كيلو متراً.

وتحت عنوان: «أوسمة في السر»، كتب المعلق في الشؤون الإستراتيجية «رونين بروغمان» أن إسرائيل لن تُقِر أبداً بأن لها علاقة بتصفية المبحوح، ولا يوجد سبب يستدعيها لتحمُّل المسؤولية؛ لأنه في «عالم الظلال» والحرب الاستخباراتية «لا أحد يتحمل المسؤولية عن شيء منها، وإذا كانت هناك حاجة لتوزيع أوسمة، فإن ذلك يكون في الغرف المغلقة».

وزعم المعلق العسكري في صحيفة «إسرائيل اليوم» «يوآف ليمور» أن عملية اغتيال المبحوح لا تأتي للثأر فقط، إنما لتحقيق هدفين مهمين: «إفشال عمليات، والردع»، وأن «إخراج» المبحوح من دائرة العمل في تهريب السلاح إلى القطاع هو عملية إفشال مهمة؛ لأنها ستُراكم صعوبات على مواصلة التهريب في المدى القريب إلى حين إيجاد بديل له. ومَنْ سيحل محله سيكون أكثر حذراً.

وقد سلط الإعلام الصهيوني خلال الشهر الأخير الضوء

(*) كاتب فلسطيني.

على وحدة «كيدون» المتهمَة بتنفيذ الاغتيال؛ وهي وحدة أسسها «الموساد»؛ لغرض الاغتيال والقتل. وتقوم بالتدريب مراراً على الهدف للوصول لعملية اغتيال ناجحة، ومن أهم أهداف تأسيسها الردع والتخويف، وإحباط النشاطات المعادية للكيان الصهيوني.

وتعني كلمة «كيدون»: «الخنجر الذي يُغمَد في البندقية أو الحربة»، وتُعَدُّ الوحدة الوحيدة في العالم المجازة رسمياً من حيث تنفيذ الاغتيالات، ويقوم الموساد بتدريب عناصرها على كيفية التعامل مع السلاح وحماية الذات والاستهانة بالموت.

حيث يجري تدريب المرشحين على كيفية سحب المسدس أثناء الجلوس في مطعم إذا اقتضى الأمر: إما بالسقوط إلى الخلف على المقاعد أو إطلاق النار من تحت الطاولة، أو بالسقوط إلى الخلف ورفس الطاولة في الوقت نفسه ثم إطلاق النار؛ وكل ذلك في حركة واحدة.

وأشارت تقارير تلفزيونية بثتها القنوات الإسرائيلية إلى امتلاك الوحدة لأساليب مختلفة في عمليات القتل والاغتيال، كلها تُظهِر حجم الحقد الذي يخفيه ويظهره قادة العدو.

حملات تقريع:

اتخذ الإعلام الصهيوني في حملات انتقاده وتوبيخه لجهاز الموساد منحىً سلبياً للغاية، حين وصفه المحلل السياسي «يوئيل ماركوس» في صحيفة «هآرتس» بأن طريقة تنفيذ الاغتيال تشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى أن رئيس الموساد وعناصره الأمنية لا يزالون يعيشون في الماضي».

وانتقد اختيار مدينة دبي المليئة بشبكة مكتظة من الكاميرات؛ كساحة للتنفيذ قائلاً: لا أدري من صادق على العملية في أيام المشكلة الأمنية الأساسية، ويمكن التخمين أنه دون مصادقة رئيس الوزراء ما كانت لتنفَّذ، ومع مراعاة الحذر الشديد الذي يتخذه كي لا يفشل فإن من المفاجئ أنه هذه المرة أدى دور العميل بسبعة أخطاء».

بينما تساءل «بن كاسبيت» في صحيفة «معاريف» قائلاً: «من الصحيح أن المبحوح قد اغتيل، وأن العملاء عادوا إلى قواعدهم بسلام، لكنهم بالمقابل لا يستطيعون الآن التجوال في العالم، وإذا كانوا قد اقتُطِعوا من وحدة التصفية في الموساد» المسماة «كيدون»، فإن الوحدة فقدت جزءاً ذا شأن من قوَّتها».

ويضيف: « حدث خللٌ مَّا في دبي... كان يفترض أن يكون الاغتيال هادئاً، بلا توقيع، وأن يكون موت المبحوح طبيعياً، وهنا حدث الخلل الكارثي، لم يدرك الموساد أن دبي جعلت الإمارة كلها هدفاً مصوراً؛ أغلقوا الدوائر وتعرفوا على العملاء».

وفضل «نحميا شترسلر» اختيار عنوان لاذع، وهو: «جهاز هواة يعيش في الماضي» قائلاً: «هكذا أصبحت قصة النجاح الكبرى فشلاً مدوياً، وبات الموساد جهاز هواة يعيش في الماضي؛ مجموعة العملاء تركت وراءها بصمات كثيرة حتى رجل المباحث الأعمى كان سيعثر عليها».

وقال: «لم يأخذ منفذو الاغتيال بالحسبان أن التكنولوجيا طارت إلى الأمام في السنوات الأخيرة، في العالم القياسي كان يكفي: تزييف جواز سفر، إلصاق لحية، والتنكر في زي لاعب تنس بقبعة رياضية، هكذا مكتوب في كتب التجسس. أما اليوم فالعالم رقمي، محوسب، متصل إعلامياً ومصور، وهذا – على ما يبدو – لم يأخذوه بالحسبان في قيادة الموساد.

الفضيحة الدبلوماسية:

لم تتوقف تبعات الاغتيال على الأصعدة الأمنية والاستخبارية، وإنما ألحقت بالكيان الإسرائيلي «فضيحة دبلوماسية»، بعد أن طالب الاتحاد الأوروبي وزير الخارجية «أفيغدور ليبرمان» بتوضيحات حول اغتيال المبحوح، لا سيما الاتهامات الموجَّهة للموساد بوقوفها خلف الاغتيال، ويُتوَقع أن يتسبب ذلك في مزيد من التعكير للعلاقات الأوروبية الإسرائيلية، كما يؤيد الاتحاد الأوروبي تشكيل لجنة دولية للتحقيق في هذه الجريمة، وهو ما دفع برئيس جهاز «الموساد» «مائير داغان» إلى عدم التفاخر – كالعادة – علناً بإنجازات جهازه، كما أن الإحراج الدبلوماسي الذي أثاره الاغتيال يعطيه سبباً إضافياً للبقاء في الظل.

قطع عنق الموساد:

صحيفة «معاريف» من جهتها اختارت عنواناً بالغ الأهمية تعليقاً على حادث الاغتيال بقولها: نجاح تكتيكي وفشل استراتيجي، مشيرة إلى أن التنفيذ كان مصقولاً، والقتلة جاؤوا وخرجوا بسلام، وكل شيء سار كالساعة، إلا أنه في الزمن التكنولوجي بات كل شيء مكشوفاً أمام كاميرات المراقبة.

ولم يصدق أحد أن يكون ممكناً إغلاق دائرة وتنفيذ ربط بين كاميرات المطار وكاميرات الفندق، لكن شرطة دبي قامت بعملية مراقبة، واستثمرت طاقة وتكنولوجيا؛ كي تطرح جوازات سفر القتلة بالبث الحي، للعالم بأسره.

بينما كان المحلل العسكري «عماليا روزنبلوم» الأكثر جرأة في حملة التقريع والإدانة لسلوك الموساد «الطائش» في اغتيال المبحوح، وترك العشرات من الأدلة على تورُّطه؛ حين طالب بـ «قطع عنق رئيس الموساد» معنوياً من خلال إقصائه ومحاسبته.

وأشار «عكيفا ألدار» إلى حقيقة أن اغتيال المبحوح لن يهزم حركة حماس، مثلما لن يؤثر إحباط صفقة تبادل الأسرى في المدى البعيد على علاقات القوى في المناطق، مطالباً بالتصدي لحركة حماس من خلال إيجاد بديل سياسي حقيقي.

أمن الإنسان العربي...

بين التباس المفهوم وغموض المقصود

مصطفى شفيق علام(*)



ثمة تساؤلات وجدالات عدَّة يطرحها ويثيرها مفهوم (الأمن) Security الذي تمتلئ به التقارير الدولية التي تصدر حول منطقتنا العربية، لا سيما في مجالات حقوق الإنسان والتنمية البشرية والإنسانية؛ فعادة ما تُواجَه تلك التقارير والمفاهيم والتفسيرات الواردة فيها بالرفض من قِبَل الجهات الرسمية، في حين تلقى القبول والترحاب من قِبَل الجهات المحكومة والشعبية. وبين الرفض والقبول قد تضيع الحقائق وتندثر البراهين وتُزيَّف الإرادات.

ولعل المثال الأبرز في هذا الإطار ما أثاره تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٩ الذي يصدره المكتب الإقليمي لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي UNDP من اتهامات بشأن تحيُّز التقرير وإغفاله الاحتلال والتدخل الأجنبي كأبرز التهديدات التي تحيق بالأمن الإنساني العربي، لا سيما في العراق وفلسطين والسودان والصومال.

(*) سكرتير تحرير التقرير الإستراتيجي لمجلة البيان.

وقد استند المشكِّكون في نزاهة مثل هذه التقارير إلى واقعة انسحاب الدكتور (مصطفى كامل السيد) أستاذ العلوم السياسية في جامعة القاهرة (الذي سبق له أن قام بإعداد تقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٧، وكان من المفترض أن يكون الباحثَ الرئيس في تقرير ٢٠٠٩) إثر خلافات على حجم ونوعية التغييرات التي أُجْرِيت على الصيغة النهائية للتقرير من قِبَل جهة الإصدار، والتي وُصفت - بحسب الدكتور السيد - بأنها: (تغييرات جوهرية)[١].

(الأمن)... قراءة في تطورات المفهوم:

تتلخص الدلالات اللغوية لمفهوم (الأمن) في مجملها حول معاني: السكينة والطمأنينة والاستقرار، سواء على المستويين: الفردي أو الجماعي؛ فقد جاء في لسان العرب: أمِنَ يأْمَنُ أَمْناً وأَمَاناً وأَمَنَهُ: اطمأنَّ، وضدُّ خاف، فهو أَمِنَ وأمِين. والأمان ما يقابل الخوف من الطمأنينة والعهد والحماية والذمة[٢]. من ذلك قوله - تعالى -: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

بَيْدَ أن ثمة أسئلة جدلية عدَّة يثيرها هذا المفهوم من الناحيتين: التنظيرية والعملية. لعل أهمها: لِمَن الأمن؟ هل هو لفرد واحد؟ ومن هو هذا الفرد؟ أم أنه لبعض الأفراد أم لمعظمهم أم لهم جميعاً؟ وهل هو للمجتمع أم للدولة؟ وإذا كان للدولة؛ فهل هو لدولة واحدة أم لبعض الدول أم لمعظمها أم لكل الدول؟[٣].

وقد تفسِّر لنا محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تطوُّر مفهوم «الأمن» مع بروز ثلاثة اتجاهات لتعريف المفهوم من الأضيق إلى الأوسع إلى الأشمل أو الأكثر اتساعاً، ومن الأمن «القومي» National إلى الأمن «المجتمعي» Community وصولاً إلى الأمن «الإنساني» Human الذي يعتمده تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٩ كمفهوم محوري للتحليل وكهدف جوهري يسعى للوصول إليه بزعم تجذيره في البيئة العربية.

ويفرق التقرير بين مفهومَي: التنمية «الإنسانية» والتنمية «البشرية»؛ حيث يجعل الأول الركيزة الأساسية للثاني، باعتبار أن التنمية البشرية تُعنى بتوسيع قدرات الأفراد وتعظيم الفرص المتاحة لهم، في حين أن التنمية الإنسانية تُعنى بتمكين الإنسان من احتواء أو تجنُّب المخاطر التي قد تهدِّد حياته وسُبُلَ معيشته وكرامته، ويضاف إلى ذلك أن لتنمية الإنسان علاقة بحقوقه؛ لأن احترام حقوق الفرد الأساسية هو الذي يمهد السبيل لخلق الظروف المواتية لأمنه ومن ثَمَّ لنموه وتقدُّمه الذي يُعنى به مفهوم التنمية البشرية.

ومفهوم التنمية الإنسانية بهذا المعنى يُعَدُّ مدخلاً شاملاً يجمع بين مكونات أمن الأفراد تمهيداً لتنميتهم؛ حيث يهدف في التحليل الأخير إلى تحقيق السلام والأمن والتنمية المستدامة، كما أنه قد حوَّل الاهتمام من أمن «الدولة» إلى أمن «الإنسان»، ووسَّع مجالات الأمن لتشمل أبعاداً غير عسكرية، مثل: تأمين الغذاء والدواء والسكن، مؤكداً أن هذا التركيز على أمن الإنسان لا يتعارض بالضرورة مع الأمن القومي أو أمن الدولة بل هو مكمِّل لمقوماته، وركيزةٌ لتحقيقه، ودعامةٌ لترسيخه.

الإنسان العربي... بين تهديدات الخارج وانتهاكات الداخل:

لقد أدرج تقرير التنمية الإنسانية لعام ٢٠٠٩ بين طياته أبرز التحدِّيات التي تواجه أمن الإنسان العربي: كالبطالة، والفقر، وانتهاكات حقوق الإنسان، وخاصة حقوق المرأة، وكذلك تزايد النمو السكاني الذي قد يصل - وَفْقاً للتقرير - إلى ٣٩٥ مليون نسمة بحلول عام ٢٠١٥، كما أكد التقرير على عوامل جديدة يتضمنها مفهوم الأمن، منها: البيئة، وندرة المياه، والتصحُّر، والاحتباس الحراري، والصراعات القومية، والاختلافات الطائفية والدينية واللغوية.

غير أن ما يثير الجدل في هذا الإطار، هو ما أكدت عليه دراسات التقرير من تجاوُز أعداد ضحايا الصراعات

(١) الجزيرة نت: ١٨/٧/٢٠٠٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، على هذا الرابط:
http://lexicons.sakhr.com/openme.aspx?fileurl=/html/7058937.html

(3) David A. BaLldwin, "The Concept of Security", Review of International Studies, vol.23,no.1, 1997. pp.1415-.

فـــي العالم العربـــي لأعداد ضحايا الاحتـــلال والتدخُّلات الخارجيـــة. وهو الأمـــر الذي يمكن تفســـيره بأنه محاولة للتقليل من شـــأن الاحتلالين: الصهيوني والأمريكي في كلٍّ من فلســـطين والعراق، وإلصاق تهمة انعدام أمن الإنســـان العربي بالنظم السياسية والاجتماعية والثقافية القائمة في المنطقة العربية.

وربمـــا يدفع معـــدُّو التقرير هذه التهمة عن أنفســـهم بادِّعائهم أنَّ التهويل المفرط لدور المحتلين وأثرهم الســـلبي فيمـــا يتعلق بأمـــن الإنســـان العربي من شـــأنه أن يعطي مبرراً للنظـــم القائمة للاســـتمرار في جرائمهـــا بانتهاك حقوق المواطنـــين، وانتهاك أمنهم (السياســـي والاجتماعي والاقتصـــادي والغذائي والبيئي). غيـــر أنه يمكن الرد على ذلك الدفع بالتأكيد على أن ترسيخ الأمن في البيئة العربية ببُعْدِه الإنساني لا يعني المحاباة غير المبرَّرة للمحتلين بالتستر علـــى جرائمهم؛ فبين تهديدات الخارج وانتهاكات الداخل لا ينبغي أن تضيع الحقيقة، ولا ينبغي أن يكون أمن الإنسان العربـــي أداةً لتكريس واقع الاحتلال بدعوى إقامة الحريات وتدشـــين الديمقراطيات المزعومة، ولا مطيةً للنظم القائمة في المنطقـــة العربية بزعم تقوية الداخل وحِفْظ أمن الدولة في مواجهة الأعداء والمتربصين.

قيمة «الأمن» أم أمن «القيمة»؟

ما سبق من جدل بشأن مبررات إغفال أثر الدور الخارجي فيما آل إليه أمن الإنسان العربي، يجعلنا نثير أسئلة قد تبدو فلسفيةً من جهة المنطق والتنظير؛ بَيْدَ أنها تكتسب أهميتها الواقعية البالغة من جهة الوصف والتفســـير. هذه الأســـئلة تتمحور حول ماهيـــة «الأمن» وهل هو «قيمة» في حد ذاته؟ أم أنه «أداة» و «وســـيلة» لتحقيـــق «قيم» معينة؟ وهل تبحث تقارير التنمية البشـــرية والإنسانية وحقوق الإنسان وجميع التقارير المتعلقة بواقعنا العربي في «قيمة الأمن» **Value of Security**؟ أم في «أمن القيمة» **Security of value**؟.

يطرح أرنولـــد ولفيرز في تعريفه لمفهوم الأمن **Wolfers Arnold** إجابتـــه عـــن هـــذه الجدلية بشـــأن ماهيـــة الأمـــن ومـــا إذا كان قيمة فـــي حدِّ ذاتـــه؟ أم أداة لحفـــظ قيمـــةٍ مـــا أو منظومة من القيم؟ حيث يـــرى «أن الأمن في جانبه الموضوعي يعني: غياب أيَّة تهديدات تجاه قيمٍ مكتسبة، وفي جانبه الذاتي فهو يعني: غياب الخوف من أن يحصل المساس بأي من هذه القيم»[1].

ويؤكـــد هـــذا المعنى أيضاً مـــا طرحه كلٌّ مـــن تريجر وكرونبيـــرج **Trager and Kronenberg** فـــي تعريفهمـــا لمفهـــوم الأمن؛ حيث أكدا على أن «القيـــم الحيوية الوطنية تشكِّل جوهر سياسة الأمن الوطني، ويتحدد الأمن بأنه: ذلك الجزء من سياســـة الحكومة الذي يســـتهدف إيجاد شروط سياسية ووطنية ملائمة لحماية أو توسيع القيم الحيوية ضد الأعداء الحاليين والمحتملين»[2].

وبهذه الصفة لا يُعَدُّ مفهوم الأمن قيمة في حد ذاته، إنما هو مجرد مرادف للمصلحة الوطنيـــة **National Interest**، وكيفية تعزيزهـــا بالاعتماد على القوة في شـــقَّيها: الصلد والناعم على حد سواء. ومن ثَمَّ فإن الأمن بهذا المنطق ليس إلا أداة أو وسيلة لفرض منظومة القيم (الغربية، الأمريكية) وَفْقاً لرؤيةٍ براغماتية بحتة تستند إلى المصالح الوطنية العليا لتلك القوى الدولية.

وعلـــى الرغم من أن مكونات الأمن الإنســـاني ومصادر تهديده موجودة تاريخياً؛ فإن بروز هذا المفهوم بشكله الحالي الذي تؤكد عليـــه التقارير الدولية ذات الصلة به، إنما ظهر مؤخـــراً مرتبطاً بعملية العولمـــة **Globalization** التي يراها بعضهم مرادفاً للأمركـــة **Americanism**، والتي تهدف في أبســـط معانيها إلى ربط مصائـــر ومصالح العالم بمنظومة القيم الأمريكية؛ وذلك نظراً لما تقوم عليه فلسفة تلك العملية من فتح لحدود الدول لانتقال السلع والخدمات وكذلك القيم والثقافات؛ بزعم تحرير الاقتصاد العالمي وصَهْر الشـــعوب فـــي بوتقة واحدة لإلغاء الفوارق بين البشـــر وتغليب الوجه الإنساني في العلاقات الدولية!

وكثيراً ما تســـعى القوى الدولية الكبرى (وعلى رأســـها الولايات المتحدة الأمريكية) إلى إضفاء البعد الإنساني، الذي يحمل بريقاً خادعاً من الزيف لســـلوكها الدولي ذي النزعة الإمبرياليـــة بهدف تغليف مصالحها الإســـتراتيجية بصبغة مقبولة عبر اســـتخدام أجهزة وأدوات النظام الدولي، مثل:

(1) Arnold Wolfers, Discord and Collaboration: Essays on International Politics, (Baltimore: The Johns Hopkins Press), 1962, pp. 67– 80

(2) TragerKronenberg, Considiration of National Security Administration: The Presidency, Policy Making and Military, Public Administration Review, Vol. 34, No. 1, Jan. – Feb., 1974, Pp 8288–.

الأمم المتحدة والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي وغيرها؛ لتحقيق تلك المصالح الإستراتيجية؛ لذلك فلا غرو أن يصدر تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام ١٩٩٩ بعنوانٍ فجٍّ يؤكد على هذا المعنى وهو: «عولمة ذات وجه إنساني» **Globalization with a Human Face** بما يحمله هذا العنوان من دلالات الزيف والخداع باسم الإنسانية.

وتهدف القوى الغربية إلى تحقيق مصالحها الإستراتيجية باستخدام القوة بمفهومها الشامل موقَّعة بختم تحقيق الأمن الإنساني المزعوم في مناطق النزاع أو المناطق الإستراتيجية أو في الدول المناوئة لها شريطة أن يجري ذلك بطريقة تبدو قانونية، وجماعية، وتحت مظلة المنظمات الدولية؛ بدعوى أن الدول والمنظمات الإقليمية والدولية (الحكومية وغير الحكومية) يجب أن تتفاعل معاً لتشكيل قواعد العمل في مجالات الأمن الإنساني؛ حيث لا تستطيع دولة بمفردها مواجهة مصادر تهديد ذلك الأمن.

غياب الأمن العربي.. صناعة إستراتيجية غربية:

ولكن يبدو أن هناك فارقاً كبيراً بين المبادئ والتوصيات والقرارات والشعارات النظرية المثالية وبين الحقيقة الملموسة والممارسات الواقعية، وخير دليل على ذلك، هو أن ذلك الغرب الديمقراطي المناصر للحريات وحقوق الإنسان هو ذاته الذي يتولى تصنيع وتصدير السلاح، وشنَّ الحروب المدمرة، وإيقاع الأذى بالمدنيين، وممارسة العنف النفسي والاجتماعي ضد السكان الوافدين والمهاجرين إليه من الدول الأخرى، وهو الذي يمتلك أسلحة الدمار الشامل ويسعى لتطويرها واحتكار أسرارها.

ومن البدهي أن يسعى الاقتصاد القائم على صناعة السلاح وتصدير العنف إلى إيجاد وخَلْق الصراعات التي تضمن له استخدام واستهلاك ذلك السلاح؛ لذلك فإن الدول المصنِّعة والمصدِّرة للسلاح (وجُلُّها غربي بالأساس) إنما هي مصدر العنف والإرهاب والحروب وغياب الأمن الإنساني في العالم.

بل إن القوى الغربية تسعى لفلسفة منطقها بنشر ثقافة العنف كسبيل للوصول إلى الأمن الإنساني عبر طنطنات فارغة من قَبيل: الفوضى الخلاَّقة، وآلام المخاض لشرق أوسط جديد، وَفَقاً لتعبير وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس في معرض تعليقها على العدوان الصهيوني الأخير على لبنان صيف ٢٠٠٦؛ بزعم أن للعنف جانباً إيجابياً لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه، وهو دوره في صنع الحضارة الإنسانية التي يهدد العنف أيضاً وجودها في الوقت ذاته؛ فالعنف إذن - وَفْقاً لهذا المنطق - عامل خلق وتدمير في وقت واحد، وقد أدت الحروب والاعتداءات في كثير من الأحيان إلى القضاء على كثير من ألوان التخلف مع إحلال مظاهر ونظم جديدة أكثر تطوراً وَرُقيّاً بدلاً منها [1].

> من البدهي أن يسعى الاقتصاد القائم على صناعة السلاح وتصدير العنف إلى إيجاد وخَلْق الصراعات التي تضمن له استخدام واستهلاك ذلك السلاح؛ لذلك فإن الدول المصنِّعة والمصدِّرة للسلاح (وجُلُّها غربي بالأساس) إنما هي مصدر العنف والإرهاب والحروب وغياب الأمن الإنساني في العالم

وطبقاً للمنطق الإمبريالي الغربي؛ فإنه إذا جاز لنا اعتبار التاريخ الإنساني مليئاً بالعنف والقتل والدماء وأنه تاريخ دموي إلى حدٍّ كبير، إلا أن ذلك العنف الدموي كان دائماً أداة ووسيلة، بل إستراتيجية لنشر الحضارة والتقدم والرقي البشري، في إطار النزعة الرسالية للرجل الأبيض التي يؤكد عليها رائد الحريات وحقوق الإنسان المزعوم (بارون دي مونتسكيو) **Montesquieu Baron de** في معرض دفاعه عن استرقاق الشعوب الإفريقية واستلاب أراضيهم من قِبَل الأوروبيين إبان الحقبة الإمبريالية؛ حيث يقول: «إذا طُلِب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ

(١) أحمد أبوزيد، ثقافة العنف، مجلة العربي، وزارة الإعلام الكويتية، العدد ٦١٤، يناير ٢٠١٠، ص ٣٢.

الزنـــوج عبيداً، فإني أقول: إن شـــعوب أوروبا بعد أن أفنت ســـكان أمريكا الأصليين، لم ترَ بُدّاً من أن تســـتعبد شعوب إفريقيـــا؛ لكي تســـتخدمها في اســـتغلال كل هذه الأقطار الفســـيحة. والشـــعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشـــرة من أخمص القدم إلى قمة الـــرأس وأنفها أفطس فطساً شـــديداً؛ بحيث يكون من المستحيل أن تـــرثيَ لهـــا، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله وهو ذو الحكمة الســـامية قد وضع روحـــاً - على الأخص روحاً طيبة - داخل جســـم حالك السواد. إنه من المستحيل أن نفترض أن هؤلاء الناس بشر؛ لأننا إذا افترضنا أنهم بشر؛ فإننا سنبدأ في الاعتقاد بأننا لسنا مسيحيين»[1].

الأمن التابع والأمن المستقل:

هذا التناقض بين المنطق والســـلوك يدفعنا إلى التأكيد على أن ســـيل التقارير الغربية التي تُعنى بالأمن الإنســـاني والتنموي للبشـــر إنما يُقصَد به بالأســـاس الإنسان الغربي الأبيـــض المتحضر المنوط به نشـــر القيـــم والثقافة الغربية المســـيحية بين الشـــعوب الأخرى، وإن كان ثمـــة درجة من درجـــات الأمن تنشـــدها تلك التقارير لهذه الشـــعوب غير الغربية؛ فإنها تصبُّ في نهاية المطاف لصالح أمن الإنســـان الغربـــي ورفاهيته، ومن ثَمَّ فإن أمن الإنســـان العربي الذي تزعم التقارير التنموية والإنسانية دعمه وتنميته إنما هو تابع لأمن الإنسان «الحقيقي» الغربي لا مستقلاً أو مُنبتّاً عنه.

إن غيـــاب الأمن في المجتمعات العربية الذي يؤكد عليه تقرير التنمية الإنســـانية العربية لعـــام ٢٠٠٩، إنما هو نتاج الأوضاع المتردية التي يعاني منها الإنسان العربي الذي يشعر إزاءها بقسوة الحياة وتعرُّضِه للظلم والتهميش نتيجة انتشار الفقر والبطالة والفســـاد. كل هـــذه المظاهر إنما تمثِّل بيئة خصبة لانتشـــار ثقافة العنف وانعدام الأمـــن والتي تغذيها قـــوى الخارج وتابعوها من قوى الداخل؛ حيث يتآمر الجميع على الإنسان العربي ذاتِه مع ادعائهم دوماً أنهم يهدفون إلى تحقيـــق أمنه وتنميته، وربما فاتهـــم أن يضيفوا إلى الجملة الســـابقة جملة أخرى مكمِّلة ومتمِّمة للمعنى وهي: «بما لا يتنافى مع أمنهم وتنميتهم لا مستقلاً عنهما».

وإذا كان القائمـــون علـــى إصدار التقارير الإنســـانية



والتنموية العربية يلقون باللائمة دوماً على الأنظمة الحاكمة فيما آل إليه حال الإنسان العربي وأمنه؛ فلماذا يدعمون تلك الحكومات ويساندونها ما لم يكن ذلك الدعم وتلك المساندة تخدم مصالحهم وإســـتراتيجياتهم في المنطقة؟ لقد تحولت تلـــك التقارير إلى أدوات للضغط علـــى من يريدون تحقيق مزيد من التواطؤ والخنـــوع لأهدافهم ومصالحهم، كما أنها باتت على الجانب الآخر صكوك غفران تُمنح لمن يدفع الثمن أو لمن يريدون أن يبيِّضوا صفحته من العتاة والمجرمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد من فلسطين إلى العراق إلى أفغانستان وغيرها.

فمتى يتحول أمن الإنســـان العـــربي إلى مفهـــوم مستقل له خصوصيتـــه واحتـــرامه؟ بدلاً من كونـــه - في غـــالب الأحوال - مفهوماً تابعاً لمـــراد الســـيِّد المهيمن علـــى مقاليـــد الأمور، سواء في الداخل أو في الخارج، ومتى نجد من المراكز البحثية والمنظمـــات والهيئات العربيـــة المعنيَّة من يضطلع بالقيام بإصدار تقارير ودراســـات جادة ورصينة تهدف إلى تحقيق الأمن الإنساني العربي بشموله وخصوصيته من دون أجندات خفية أو أهداف مستبطنة؟

ذلك الأمن الذي حَرَص الشَّـــارع الكـــريم على تحقيقه بشقيه:

- المادي الظاهر المتجلي في السعادة والراحة الدنيوية، بعيداً عن الحروب وإزهاق الأرواح وغيرها.

- والمعنوي ببُعده العقدي والإيماني.

إنه أمن الحفاظ على ســـلامة العقيـــدة وصحة الإيمان؛ ذلـــك الأمن الذي إذا لم يتوفر للإنســـان العربي بخصوصيته الإسلامية ولم يتحقق له فلا قيمة حينئذٍ لأي أمنٍ أو سعادةٍ أو راحة دنيوية يحياها الإنسان مهما بلغت درجة رِفعَتِها ورُقيِّها.

(١) حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.


جوال
البيان
للإشتراك
ارسل رسالة فارغة
STC
الاتصالات السعودية
٨٨٠٠٤
موبايلي
mobily
٦٣٦٣٩٣
رسائلنا تحكي أهدافنا

«قلب الأدلة على الطوائف المخالفة» للقاضي

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(*)
www.alabdulltif.net

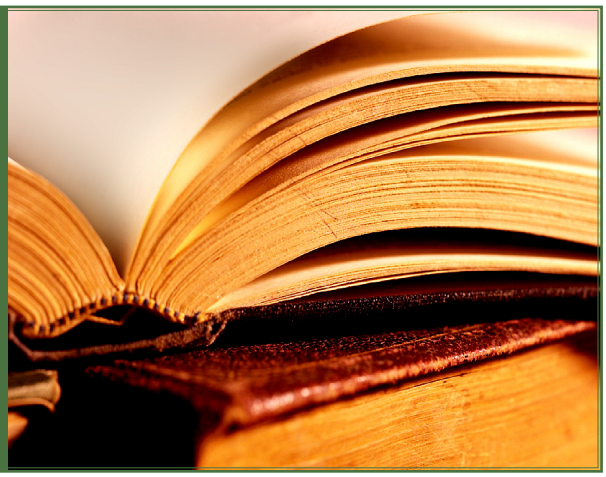

الباحث لا يَلقى عَنَتاً ولا شحّاً في تعدُّد القضايا، وتنوُّع النوازل، وتتابُع المستجدات التي يجدر بحثها ومعالجتها؛ إذ لا تزال هذه الإشكالات والوقائع ميداناً رحباً لمن عزم على بحثها

قد لا يعاني البحث العلمي في هذا الوقت مِنْ تعذُّر الوصول إلى المعلومة أو تعسُّرها، بل المعلومة يمكن العثور عليها بأيسر طريق، وأكبر قَدْر؛ لا سيما مع التقنيات الحديثة: من الحاسب وشبكات المعلومات ومحرِّكات البحث... ونحوها.

كما أن الباحث لا يَلقى عَنَتاً ولا شحّاً في تعدُّد القضايا، وتنوُّع النوازل، وتتابُع المستجدات التي يجدر بحثها ومعالجتها؛ إذ لا تزال هذه الإشكالات والوقائع ميداناً رحباً لمن عزم على بحثها، وجدَّ في تحريرها وتحقيقها.

لكنْ على الرغم من وفرة المعلومات وضخامتها، والسهولة المُفْرطة في مطالعتها، وأيضاً تكاثر المستجدات والحوادث؛ إلا أن الفاحص والناظر في جملة من البحوث العلمية - سواء كانت رسائل علمية أو بحوث مجلات محكَّمة أو مؤتمرات - ليجدُ الهشاشة والهزال فيها، والرتابة المُمِلَّة، والتكرار والاجترار، ولسان الحال يقول:

ما أرانا نقولُ إلا مُعاراً
أو مُعاداً من قولنا مكرورا

إضافة إلى الإغراق في النواحي الشكلية والفنية، والاستطراد في المقدمات المعروفة، وأما القضايا العلمية المشْكِلة والمعْنيَّة بالبحث، فإن الباحث قد يختزلها أو يسوق كلاماً عائماً، أو يتنصَّل منها... دعك من حال البحوث التي يتشبَّع أصحابها بما لم يُعطَوْا، أو الذين يحمدون بما لم يفعلوا.

ولمَّا سئل الخريشي (ت ١٠٠١ هـ) أن يؤلف كتاباً، فقال: (التأليف في زماننا هذا هو تسويد الورق، والتحلي بحلية السرق)[1].

ومهما كان الواقع قاتماً ومترديا جرَّاء تلك البحوث، إلا أن ثمة بحوثاً على النقيض من ذلك؛ إذ تجد في هذه البحوث الجادة عمقاً علمياً، وتحريراً متيناً، وسَعة في الاطلاع، وابتكاراً في التصنيف، وجزالة في الأسلوب، ورسوخاً في التحقيق، ودراية فائقة في التخصص.

ومن خير النماذج وأروع الأمثلة على ذلك رسالة: «قلب

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) السحب الوابلة لابن حميد: ٢ / ٨٨٤.

الأدلـــة على الطوائف المخالفة فـــي توحيد المعرفة والإثبات» للشيخ تميم بن عبد العزيز القاضي[1].

ومـــع أن كثرة الصفحـــات، ووفرة المراجع ليســـت أهم المعايير - في نظـــري - لإضافة تزكية على البحث، وتحقيق إيجابيته؛ إلا أن الباحث ســـطَّر ما يزيد على ســـتمائة وألف صفحة، ورجع إلى أكثـــر من ثماني مئة مرجع، ولم تكن هذه الصفحات المئات حشـــواً ولا استطراداً، كما لم تكن مراجعه تكثُّراً وتعســـفاً؛ فالباحث قد رجع إليها فعلاً، وتحرَّى المراجع الأصليـــة، والمصادر العميقة، وجانب ما كان هشّـــاً وما ليس مرجعاً معتبراً.

ويســـتوقفك في البحـــث ابتداءً حُسْـــن اختيار الموضوع وجدَّته وبكارته، ومفارقته للبحوث المكرورة الرتيبة.

وأحسب أن هذا البحث النفيس من واجبات الوقت، ويسدُّ حاجـــة ملحَّة في الآونة الأخيرة؛ إذ يســـهم البحث في مدافعة انهزاميةٍ واضطرابٍ قد عرضا لبعض المتسنِّنة؛ فقَلْبُ الأدلة على أهل البدع يبعث تمام الثقة بالمنهج السلفي، والاعتزاز والاعتصام بطريقة أهل السُّنة والجماعة، بل هذا سبيل المرسلين وأتباعهم؛ فإبراهيم - عليه الســـلام - حين عارضـــه قومه، وخوَّفوه من أصنامهم، قال قالباً عليهم حجتهم وتخويفهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْـرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

قال ابن القيم: «وهذا من أحسن قلب الحجة، وجَعْل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه»[2].

فما يشـــغب به أهل البدع من أدلة يحتجون بها على أهل السُّـــنة، فإننا معشرَ أهل السُّـــنة نوقن أن كل دليل (نقلي أو عقلي) يتشـــبث به أهل الأهواء ضد أهل السُّنة، هو حُجَّة لنا ودليـــل على أهل الزيغ والبدعة، وهذا القَلْب من دلائل صِدْق المرســـلين - عليهم الســـلام - وبراهين أهل السُّنة في صحة معتقدهم وسلامة منهجهم طوال القرون الماضية وما يُستَقبَل من أيام حتى يأتي أمر الله.

يقول ابن تيمية: «... فهـــؤلاء كل ما احتجوا به من دليل صحيـــح؛ فإنه لا يدل على مطلوبهم، بل إنما يدل على مذهب السلف المتبعين للرسل؛ فتبيَّن أن الأدلة العقلية الصحيحة من جميع الطوائف إنما تدلُّ على تصديق الرسول، وتحقيق ما أخبـــر به، لا على خلاف قوله، وهي مـــن آيات الله الدالة على تصديق الرســـول التي قال الله فيها: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِـــهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهي من الميزان الذي أنزله الله، تعالى»[3].

لا عجب أن يعكف الباحث في هذه الرســـالة سبع سنين؛ فهو قد اشـــتغل بمســـائل عميقة ومباحث شـــائكة، هي من مَحَارات العقول، ودقائق المطالب، وخاصة أن الرســـالة تجمع بين تخصصين مهمين وعميقين، وهما: أصول الفقه ومسائل الاعتقاد، وهذه مزية أخرى للرسالة؛ فإن من آفات التخصص الدقيق أن يفوِّت دراســـة موضوعات مهمة تشتمل على أكثر من فن؛ إذ إن الموضوعات المشـــتركة والمشتملة على أكثر من تخصص قد تتقاذفها الأقســـام بدعـــوى «عدم التخصص»، وخاصة أن هـــذا النوع من الموضوعـــات لا ينفك عن تبعات وأعباء على الباحث... وصاحبنا قد أحكم موضوع قلب الأدلة من خلال مطالعة كتب أصول الفقه، ومدارسة أهل هذا الفن، وأعدَّ باباً مستقلاً عن قلب الأدلة، وحقيقة الاعتراض بالقلب وأقسامه، وحجية الاعتراض بالقلب وضوابطه.

عقد الباحـــث باباً بعنوان: «قلب الأدلـــة الإجمالية التي استدلَّت بها الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات»:

ففي الفصل الأول: قَلَب الباحثُ أدلة المخالفين في توحيد الربوبية، ســـواء التي استدل بها أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، أو أدلة مسألة حلول الحوادث.

وفي الفصل الثاني: قَلَب الباحثُ أدلة المخالفين في مبحث أسماء الله الحسنى.

ثـــم في الفصل الثالث: ســـاق الباحث أدلة المخالفين من نفاة الصفات الإلهية وتعقَّبَها بالقلب عليهم، مثل: استدلالهم بالتنزيه، وتقديمهم العقل عند توهُّـــم تعارض العقل بالنقل، ومسألة دليل التركيب والتجسيم...

ومثال ذلك أن المتكلمين اســـتدلوا بحلول الحوادث ونفيها عـــن الله - تعالى - على إثبـــات أن الله هو الصانع، وهو في الحقيقة نفي للصانع؛ فإن الذي يصح أن تنفى عنه الصفات، أو يقـــال: إنه لا داخل العالم ولا خارجه؛ فمن كان كذلك فهو ممتنع الوجود؛ ولذا قال بعض السلف: المعطِّل يعبد عدماً[4].

وأمـــا الباب الثالث: فعنوانه: «قلب الأدلة التفصيلية التي

(١) رسالة تقدَّم بها الباحث إلى قسم العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ونال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز سنة ١٤٣٠هـ. ولا تزال الرسالة حبيسة الأدراج و(الأقراص).

(٢) إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٥٤.

(٣) مجموع الفتاوى: ٦/ ٢٩٢.

(٤) قلب الأدلة: ١/ ٤٠٥ - ٤٠٦.

اســـتدلَّت بها الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات»: اســـتوعب الباحثُ فيه القلب والاعتراض على المخالفين في مســـألة: أول واجب على المكلَّف، ودليل التمانع، ومقالة قِدَم العالم عند الفلاســـفة، كما قلب الأدلة على نفاة صفات الله - تعالـــى - الذاتية والفعلية، وســـاق أمثلة تفصيلية في هذا الشـــأن، ومثال ذلك: دعوى المتكلمـــين بوجوب النظر، وعدم صحة إيمـــان العوام، احتجاجاً بعـــدم التقليد. يقول الباحث تميـــم: «وحين ننظر إلى حال ومقـــال المتكلمين وأهل النظر، فإننـــا نجد أنهم قـــد نالوا من التقليد المذمـــوم أوفر الحظ وأجـــزل النصيب؛ فالـــذم بالتقليد ينقلب عليهـــم؛ ذلك أن القواعد النظرية التي أوجبوها لم تدل عليها حجة معتبرة... وإنما تلقَّوها عن أسلافهم الفلاســـفة والمعتزلة؛ فحين يأتي الكلام عن الاســـتدلال بنصوص الوحـــي المعصوم في أبواب الإلهيات تجد الردَّ والتزهيد وأنها تحتمل التأويل، لكن حينما يكـــون الكلام على القواعد الكلامية والفلســـفية، فإنك ترى التمجيد تجاهها والتقديس وأنهـــا قد صقلتها الأذهان على تطاول الأزمان!»[1].

أمـــا الباب الرابـــع: فهو في قلب الألقـــاب التي أطلقها المبتدعة على أنفسهم، أو على أهل السُّنة:

ففـــي الفصل الأول من هذا الباب: قَلْبُ ألقاب الذم التي أطلقها المبتدعة على أهل السُّـــنة، وبيانُ أنهم هم الأحق بها، مثل تســـميتهم أهل السُّنة بالمشـــبهة والمجسمة، ونَبْزِهم أهل السُّنة بالحشوية والنابتة والجهلة...

وأما الفصل الثاني: فهو قلـــب ألقاب المدح التي أطلقها المبتدعة على أنفسهم، مثل دعواهم أنهم أهل العدل والتوحيد، وأهل الحق والبرهان، وأهل السُّنة...

ومن ذلك: إطلاق لقب المشبِّهة على أهل السُّنة، والحقيقة أن لقب التشبيه والتمثيل ينقلب على طوائف المعطلة؛ إذ إنهم شـــبَّهوا أولاً ثم دفعوا ذلك بالتعطيل ونفـــي الصفات، وكذا شـــبهوا الخالق - عز وجل - بالناقصات والمعدومات؛ «ولهذا قال بعض أهل العلم: إن كل معطِّل مشـــبِّه، ولا يســـتقيم له التعطيل إلا بعد التشبيه»[2].

«كمـــا أن لقب المشـــبهة ينقلب على كثيـــر من متأخري الأشـــاعرة والماتريدية ممن وقع في تشبيه المخلوق بالخالق، وذلـــك من جهة ما دخل عليهم من التصوف الغالي، والذي لم يُعهد مثله عن أسلافهم؛ حيث أضافوا إلى أوليائهم وأقطابهم كثيراً مـــن خصائص الربوبية: كعلم الغيـــب أو التصرُّف في الكون، كما أضافوا إليهـــم بعض مقامات العبودية التي تفرَّد الله - ســـبحانه - باستحقاقها: كالاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله... ونحو ذلك، فكانوا أحق بلقب المشـــبهة؛ إذ شبَّهوا المخلوق بالخالق في ألوهيته»[3].

وكـــذا دعـــوى الأشـــاعرة والماتريدية أنهم أهل السُّـــنة والجماعـــة؛ فقد قلَبَها الباحث عليهـــم من عدة وجوه؛ حيث لم يحققوا ضابط أهل السُّـــنة فيهم، بل تحقق نقيضه؛ فقد فرَّطوا في مصادر التلقي (الكتاب والسُّنة والإجماع)، فسلَّطوا علـــى القرآن طاغـــوت التأويل، وطاغوت المجـــاز، وطاغوت تقديم العقل على النقل... وأن نصوص الكتاب والسُّـــنة ظنية الدلالة.. وعدم الاحتجاج بأحاديث الأحاد، كما أن الأشاعرة خالفوا إجماعات السلف في غالب أبواب الاعتقاد؛ فخالفوا أهل السُّـــنة في قواعد الشـــريعة وأصول الدين؛ ثم ســـاق الباحث شـــهادة أئمة السُّنة بخروج الأشاعرة من أهل السُّنة، ومن ذلك ما أخرجه ابن عبـــد البر عن ابن خويز منداد (ت ٣٩٠هـ): «أهل الأهواء عند مالك وأصحابنا هم أهل الكلام؛ فكل متكلِّم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشـــعرياً كان أو غير أشعري، ولا تُقْبَل له شـــهادة في الإسلام أبداً ويُهجَر ويؤدَّب على بدعته...»[4].

وبعـــد أن خـــاض الباحث غمار مســـائل عويصة، وحرر مباحث معضلة، واســـتوعب وأحكم كتب السلف، وغاص في أعمـــاق مراجع أهل البدع (الأشـــاعرة والماتريدية والمعتزلة) والفلاســـفة، وأجاد فهمها وأحكم نقضها، عندئذٍ ختم بحثه بهذه الكلمات: «وبعدُ: فهذا ما اقتضاه الخاطر المكدود، على عُجَره وبُجَـــره، وعَلاَّته وهنَّاته، وعجزه وضعفه، فما كان فيه من صواب، فمِنَ الكـــريم الوهاب، وما فيه من زلل ونقصان، فمِنَ النفس الأمارة والشـــيطان، وأســـأل اللـــه منه الصفح والغفران»[5].

وهكذا فالبحث الجاد والعلم النافع يورث تواضعاً وإخباتاً، وعلى هذا جرت مناقشـــة هذه «الموســـوعة» بهدوء وخمول، وفي قاعـــة صغيرة، لم يحضرها إلا أربعـــة: الباحث ولجنة المناقشة.

---

(١) قلب الأدلة: ٢/ ٩٣٤.
(٢) الصواعق المرسلة: ١/ ٢٤٤.
(٣) قلب الأدلة = باختصار: ٣/ ١٣١١ - ١٣١٢.
(٤) جامع بيان العلم: ٢/ ١٩٥.
(٥) قلب الأدلة: ٣/ ١٤٧٠.

جديد

مجلة البيان

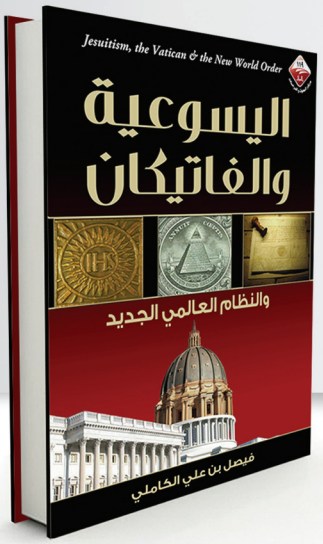





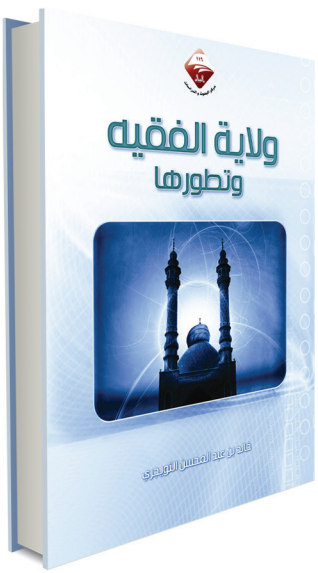





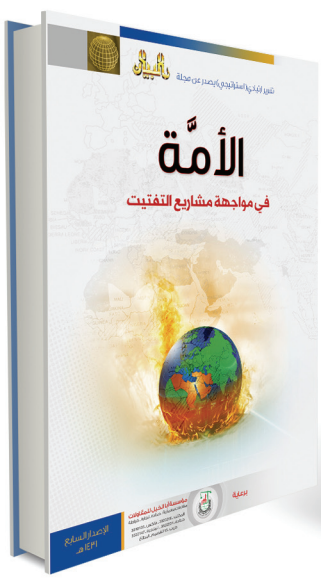

تحت إشراف / د. محمد بن عبد الله الدويش

لمحاتٌ يسيرة... من تاريخ غربِ إفريقيا... النيجر أنموذجاً

سـلاّم المـوجـري(*)
sallaminline@hotmail.com

إنَّ التقسيمات الحالية لإفريقيا سواء كانت جغرافية، كقولنا: إفريقيا وراء الصحراء أو إفريقيا الجنوبية أو الغربية أو الشرقية، أم كانت ثقافية: كإفريقيا الفرانكفونية والإنجلوفونية والإيطالية والبرتغالية؛ إنما هي تقسيمات حادثة في مجملها وتعود إلى ظاهرة الاستعمار في القرن التاسع عشر الميلادي، وربما يصحُّ نسبياً أن الذي يجمع بين شعوب إفريقيا كلّها عامل جغرافي و ثقافي غير سياسي.

أطلق العرب اسم (إفريقيا) على ساحل الشمال الإفريقي من مصر إلى مراكش (المغرب) (بلاد البيضان).

وجنوب ذلك يسمى: «بلاد السودان» والتي اشتُق منها حديثاً مصطلح: الحزام السوداني وما ورد في تقسيماته: من بلاد التكرور وبلاد الهوسا والنوبة والحبشة، وفي تعريف السلطان محمد بلو - من سلاطين تمبكتو في القرن التاسع عشر الميلادي - للسودان: (القصد تاريخ هذا القطر كله من بلد فور إلى بلد فوت)؛ أي: فوتا تور في السنغال وما وراءها، وفور تعني: دارفور الحالية، ومعظم أسماء الدول الإفريقية الحديثة، نَحْتٌ أوروبي؛ فالإسبان أول من أطلق اسم نيجيريا على هذا القطر، يقول الشيخ الألوري عن نيجيريا: (معناها ما حول النيجر وهو اسم مستمَد من نيغرو؛ أي: الزنجي الأسود، وأول من أطلق اسمها على هذه البلاد هم الإسبان، وتبعهم سائر الإفرنج).

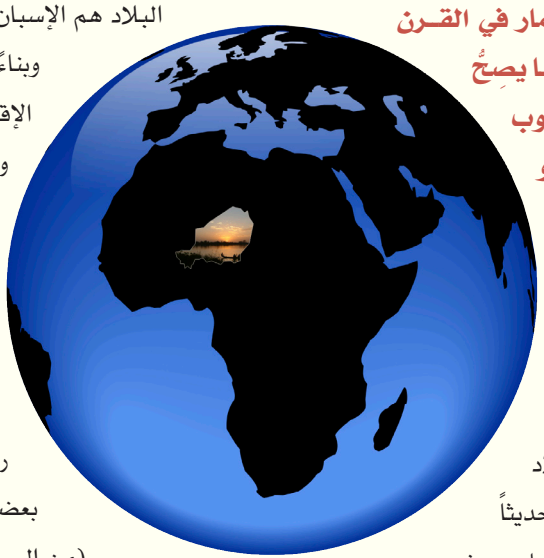

وبناءً على ذلك؛ فإن الكلام يدور على الإقليم الذي يضم: السنغال، ومالي والنيجر، ونيجيريا، وتشاد، وبِنِين وتوغو، وبوركينا فاسو، والكاميرون، وما جاورهم انتهاءً بالسودان.

ارتبط دخول الإسلام إلى هذه المنطقة، بالهجرة الأولى لإفريقيا؛ حيث هاجر صحابة رسول الله ﷺ إلى الحبشة، ومكث بعضهم فيها زهاء ثلاث عشرة سنة (من السنة الخامسة للبعثة حتى السنة السابعة من الهجرة) ومن أبرز من أسلموا يومئذٍ النجاشي ملك الحبشة «أصحمة» وبعض رجال الحكم هناك، كما جرى فتح مصر فيما بعد بقيادة عمرو بن العاص في ١٩هـ/٦٤١م، وتلا ذلك (عهد البقط) مع النوبة في شمال السودان الحالي ٣١هـ/ ٦٥١م، كما حدثت تغريبة الصحابي

(*) نائب مدير مركز الأمير سلطان بن عبد العزيز الثقافي بالنيجر.

عقبة بن نافع الذي ساق الجيش الإسلامي غرباً مارّاً بفزّان والقيروان منتهياً إلى المغرب الأقصى؛ حيث المحيط الأطلسي في عام ٥١ هـ.

وارتبطت شمال إفريقيا بالخلافة الإسلامية وبقوة الدولة الإسلامية المركزية، على الأخص في العهد الأموي، ثم برزت فيها ممالك إسلامية على درجة من الاستقلالية: كالإدريسية والفاطمية والمرابطية والموحدين والحفصية... وبرزت في شمال إفريقيا حركة علمية قوية جامعة بين الحركة العلمية في الأندلس، والحركة العلمية في المشرق، ومثّلت ذلك مدرسة الحركة العلمية الإسلامية في منطقة السودان الغربي.

ومن العجيب أن إسهامات الحركة العلمية الإسلامية في السودان الغربي أقوى من نظيرتها في السودان الشرقي، علماً بأن السودان الشرقي - أي: منطقة القرن الإفريقي والسودان الحالي - جزء من إقليم البحر الأحمر وثقافة البحر الأحمر، وفضاء من فضاءات مصر والحجاز واليمن، ولكن تكشف الوثائق والمخطوطات الموجودة في غرب إفريقيا في خزائن الأفراد والجامعات والدُّور الإسلامية - على الأخص وثائق متحف أحمد بابا في تنبكتو في جمهورية مالي - عن قوة هذه الحركة العلمية وذلك ربما كان لأسباب، منها:

- ارتباط الحركة العلمية في السودان الغربي بالحركة العلمية في المغرب العربي منذ فترة مبكرة، وهجرة عدد من العلماء المغاربة وإقامتُهم في السودان الغربي، بالإضافة إلى أن العلماء والدعاة الذين هاجروا من المشرق أو المغرب للسودان الغربي ذهبوا فيما يشبه الهجرة المصيرية؛ بمعنى التوطن في السودان الغربي، على خلاف السودان الشرقي؛ حيث كانت الهجرات إليه هجرات مؤقتة طلباً لتجارةٍ أو ملاذٍ آمنٍ، أو لجوءٍ سياسيٍّ، وما إن تنتفي أسباب الهجرة حتى يعود المهاجرون إلى الحجاز أو مصر أو اليمن؛ لقرب المسافة واستمرارية التواصل.

- كانت توجد في الحبشة والنوبة كنائس محلية في إطار إدارة أهلية؛ ولذلك اعتبرت هذه المناطق عموماً دار أهل كتاب، كما أن المسلمين لم يغزوا أرض النوبة، واكتفوا بتوقيع عهد صلحٍ يسمى: عهد البقط، وأصبحت بذلك النوبة - شمال السودان الحالي - دار عهد وذمة، ولم تتحول إلى إدارة إسلامية إلا في القرن الرابع عشر، ثم إن الهجرات العربية التي جاءت لهذه المنطقة، كانت هجرات بدو جاؤوا طلباً للرعي وهرباً من الجفاف الذي ضرب الحجاز، ولم يُعرَف للبدو اهتمام بعلم أو كتابة، ولكن من الغريب أن اللغة العربية في بعض أنحاء السودان الشرقي أصبحت لغةَ الحياة والخطابة، إلا أنه لم يظاهر ذلك حركة علمية؛ بينما في السودان الغربي (غرب إفريقيا) لم تنتشر اللغة العربية كلغة حياة؛ وإن أصبحت لغةَ الصفوة والحركة العلمية كتابة ونطقاً، كما كُتِبَت لغات السودان الغربي: كالفولاني والهاوسا والزرما، بالحرف القرآني بينما لم يحصل هذا الأمر بالنسبة للغات السودان الشرقي باستثناء الساحلية، وسنتحدث في هذا المقال عن النيجر أنموذجاً.

موقع النيجر الجغرافي وتركيبته الاجتماعية:

أ- موقع النيجر الجغرافي:

تُمثِّل جمهورية النيجر قنطرة الصحراء الكبرى بين شمالها وجنوبها وتقع في وسط غرب إفريقيا. وقد نالت سيادتها واستقلالها سنة ١٩٦٠م كبقية دول المنطقة التي كان يُطلَق عليها: إفريقيا الغربية الفرنسية، وكانت تشمل بالإضافة إلى النيجر الدول الآتية: السنغال، ومالي، وموريتانيا، وغينيا، وساحل العاج، وفولتا العليا (بوركينا فاسو)، وداهومي (بنين)، وتوغو (المستعمرة الألمانية التي انضمت إلى فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى).

ثم انضمت إلى الأمم المتحدة، ومنظمة الوحدة الإفريقية التي صارت «الاتحاد الإفريقي» فيما بعد، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وانضمت كذلك إلى أهم المنظمات الإقليمية والدولية.

فدولة النيجر واحدة من دول غرب إفريقيا في منطقة الساحل والصحراء ويحدُّها شرقاً: تشاد، وشمال شرق: ليبيا، وشمالاً: الجزائر، وغرباً: مالي، وجنوب غرب: بوركينا فاسو، وجنوباً: بنين ونيجيريا.

وتبلغ مساحتها ١,٢٦٧,٠٠٠ كم٢. ويرجع اسم النيجر للنهر العظيم الذي يمر بالمنطقة الغربية من البلاد على مسافة: ٥٥٠ كم، والنيجر دولة حبيسة ومغلقة (صندوقية)؛ لا تطل على بحر. عاصمتها: نيامي، وأهم مدنها بعد العاصمة: زندر، ومرادي، وأغاديز، وطاوه، ودوسو، وديفا، وتلابيري.

وفي النظـــام اللامـــركـــزي الجديد تُعَـــدُّ هذه المدن عواصم للأقاليم.

ويتقاســـم النيجر بصورة غير متكافئة فصلان مناخيان يتَّحدان بفضل التوازن الموسمي لمنطقة ما بين المدارين:

الفصل الأول: الجاف، ويتميز في مجموعه بهيمنة الرياح الآتية من الصحراء (رياح الشرق والشمال الشرقي)، ويسمى هذا الفصل بـ (الحرور) وهو الأطول؛ حيث يمتد من أكتوبر إلى مايو، وهو ذاته ينقســـم إلى: فصلٍ باردٍ (من نوفمبر إلى فبراير)، وفصل حارٍّ (من مارس إلى مايو).

الفصـــل الثاني: الرطوبة: وهـــو فصل قصير (من يونيو إلى سبتمبر).

والملاحـــظ أن هطول الأمطار ضعيف في النيجر بصفة عامة.

ب - التركيبة الاجتماعية للنيجر:

يتكون شعب النيجر من عدد من القبائل الرئيسة تتمثل في الهوسا، والسنغاي، والزرما، والفلاته، والطوارق، والعرب، والتوبو، والكانوري، والغورمانتشي.

ويلاحَـــظ أن النيجـــر تتميز عن غيرهـــا من الدول الإفريقية من حيث قلة عدد قبائلها؛ إذ إنها لا تتجاوز ثماني قبائل رئيســـة كما ذكـرنـــا، ويعتبـر هـــذا العـــدد قليـــلاً مقارنة بقبائل الدول الإفريقية الأخرى التي تعد فيها القبائل بأضعـــاف هذا العدد. كمـــا تتميز القبائل النيجرية بســـمة أخرى، هي الإســـلام الـــذي يُعَدُّ عنصرَ توحيـــد ورَبْطِ هذه القبائل ببعضها.

فقد تعايشـــت قبائل النيجر باختلاف أعراقها وأعرافها وتنوُّع لغاتها وثقافاتها منذ أمد بعيد في وئام وسلام وتناسق؛ بفضـــل الله - تعالى - أولاً، ثـــم بفضل هذا الدين الحنيف، الذي تدين به الغالبية العظمى الســـاحقة من سكان النيجر. والمعروف أن من أهم أهداف الإسلام جَمْع شمل المؤمنين به وتقوية الروابط الأخوية بينهم كأمة واحدة.

وقد صهر الإســـلام هذه القبائل في بوتقة واحدة؛ حتى لكأنهـــا قطعة واحـــدة، ونرى مظاهر هـــذا الانصهار فيما وجدناه من انسجام وإخاء بين هذه القبائل.

وقلَّما نجد قبيلة من قبائل النيجر إلا وهي تصاهر الأخرى وتُمازِجها؛ كما بين الطوارق والسنغاي، والفلاته، وموري، وبري، وبين الزرما والسنغاي، وموغوبري... إلخ.

وكذلك فيما هو ملموس حقيقة من وجود ثقافة إسلامية مشـــتركة تنفصل عمَّا لدى هذه القبائل من ثقافات تخص كل قبيلة منها.

ولا عجـــب إذن إذا لـــم يوجد في النيجـــر ما يوجد في بعض دول القارة مـــن الصراعات والحروب القبلية الممقوتة والعرقية البغيضة القاتلة.

اللغات واللهجات الوطنية:

هذا، ولكل قبيلة من قبائل النيجر لغتها ولهجتها الخاصة بها، وكل واحدة من لغاتها مستخدمة في الدول المجاورة مثل: (لغة الهوسا، ولغة الزرما، ولغة الفلاته، ولغة التماشيك، ولغة السنغاي، واللغة العربية... وغيرها)، وهي لغات الدول السبع التي تحد النيجر.

وعلى الرغم من وجود بعض اللغات المكتوبة كلغة التماشيك التي تُكْتَب بالتيفيناغ (أمازيغية)، فقد ظلت الثقافة الشفهية هي المهيمنة على المنطقـــة التي تقع فيها النيجر؛ مثلما كان الأمر بالنسبة للجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام.

فقد كانـــت الأغاني والأشـــعار والخطابـــات والأمثال والروايات الخرافية والتاريخية هي ما يشـــكِّل مجال الأدب، وكانت التربية كلها، وكذلك كل عمليات نقل المواقف والمعارف كانت تجري عن طريق التعبير المنطوق، لكن الإسلام أدخل إلى المنطقة معطىً جديداً، هو الكتابة؛ لأن الإسلام يأمر بالقراءة والكتابة؛ ولذلـــك فإنه منذ القرنين: الأول والثاني الهجريين بدأت الكتابة تنتشر في منطقة الساحل والصحراء.

وتُكتَـــب هذه اللغات اليوم بالحروف اللاتينية باســـتثناء العربيـــة طبعاً، وكانت هـــذه الحروف تُكتَـــب قبل التدخل الاســـتعماري الغربي بالحروف العربية، ومـــا زالت الكتابة بالحروف العربية تكـــوِّن اليوم - خاصة في المناطق القروية والبادية - عماد العلاقات عن طريق التراسل.

واللغة العربية منذ دخل الإســـلام إلى هذه المنطقة، هي لغة الآداب والعلوم والدبلوماســـية، وكانت لغةَ كبار العلماء، علَّموها وألَّفوا بها كتبـــاً قيمة في المجالات العلمية والأدبية المختلفة التي ازدهرت في حضارة الإسلام قروناً عدَّة.

فلما جاء الاســـتعمار الغربي صـــرف اللغة العربية عن المجال الإداري، والسياســـي، والثقافي. وليضيِّق عليها أكثر،

أدخل كثيراً من الأولاد في مدارسه، وحصر اللغة العربية في مجال الأغراض الدينية.

ورغم ما قام به الاستعمار الغربي من أعمال يقصد بها القضاء على القرآن ولغته؛ فقد طُوِّر بعد الاستقلال التعليم الإسلامي المتمثل بالمدارس القرآنية والعربية، والعربية الفرنسية، ولم يتوقف المسلمون في النيجر في يوم من الأيام عن إدخال أولادهم مدارس تحفيظ القرآن الكريم.

والجدير بالذكر أن اللغة العربية في النيجر تمتاز عن غيرها من اللغات المحلية الوطنية الأخرى بأنها تدرَّس رسمياً في المدارس الحكومية وغيرها جنباً إلى جنب مع اللغة الفرنسية؛ لغة الإدارة الرسمية، والتي أصبحت بدورها حَلْقة وصل وتفاهم بين المثقفين بها من الشعب النيجري.

وصول الإسلام إلى النيجر:

كانت طلائع الفتح الإسلامي قد طرقت أبواب الصحراء منذ وقت مبكر، وقد لا يعلم كثير من الناس أن عقبة بن نافع القرشي الفهري بعد اختراقه الصحراء والواحات من فزان إلى كاوار قام بحصار (كاوار) عاصمة الإقليم، فامتنعت عليه بعد حصار دام شهراً، فتركها ليعود إليها ويفتحها بعد جولة في الإقليم لإخضاع الواحات الأخرى، وتقع (كاوار) في الشمال الشرقي من جمهورية النيجر (الحالية) على الحدود بينها وبين ليبيا.. وما زالت تحمل الاسم نفسه إلى يومنا هذا، وبنظرة خاطفة على خريطة جمهورية النيجر يظهر إقليم كاوار.

وقد بدأ الإسلام من ذلك الوقت ينتشر ببطء وبلا توقف مجتازاً المفازة التي وقف عقبة على مشارفها فارتدَّ قافلاً، كما فعل بعد ذلك عندما أدخل قوائم فرسه في البحر المحيط، في المغرب الأقصى.

ولكن الأفكار - خاصة إذا كانت تحمل الأنوار - لا تعوقها المفاوز ولا أمواج البحار المتلاطمة ولا قمم الجبال الشاهقة ولا كثافة الغابات المتراصة والرمال المتحركة؛ فقد ذهب الإسلام يتخطى كل العوائق الطبيعية: من صحارى وغيرها، والعوائق الفكرية: من الوثنيات المتوارثة، وينتشر بقوَّته الذاتية، ويسمو بالمُثُل التي يدعو إليها وينشرها ويُلِح على الالتزام بها وتطبيقها.

إلا أننا لا نستطيع الحديث عن جمهورية النيجر مبتورة عن منطقة الساحل الإفريقي؛ فهذه المنطقة يربطها تاريخ متشابك، وأحداثها تعمُّها كلَّها، كما أننا لا نستطيع ونحن نتحدث عن تاريخ انتشار الإسلام أن نفصل الحجاز عن المدينة المنورة ولا اليمن ومصر وفارس والشام عنها، ولا أن نترك جانباً دمشق وبغداد ونحن نتابع الفتوحات الإسلامية.

فقد كانت هذه المنطقة خاضعة في تاريخها لدول مهيمنة أسهمت إسهاماً كبيراً مُشْرِقاً في تاريخ الإسلام على مستوى العالم الإسلامي، بل بأبعاد الحضارة الإسلامية، وقدَّمت للإنسانية ما ينبغي أن يكون حتى اليوم، بل المستقبل نبراساً ينضم إلى ما قدَّمه الإسلام للبشرية ويصبُّ في هذا النهر العظيم العذب الذي أراد الإسلام أن يكون منهلاً ثَرّاً فراتاً للحياة البشرية السلمية؛ حتى آخر لحظة للحياة الإنسانية على الأرض؛ يوم يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

ولهذا وحتى نكون واقعيين لا بد من الإشارة إلى أن الانتشار الشامل الكثيف الراسخ المتوطن جاء من الغرب الإسلامي؛ فقد بدأ الإسلام ينتشر في شمال إفريقيا بعلماء وتجار دعاة منذ تم فتح شمال القارة واجتاز الإسلام إلى شبه جزيرة إيبرية التي سميت بعد ذلك بالأندلس؛ إلا أن الدعاة تجاراً وعلماء لم يحوِّلوا منطقة غرب إفريقيا إلى دولة أو دول إسلامية، إنما الفضل يعود في ذلك - بعد الله - إلى دولة المرابطين الذين احتلوا غانا وعاصمتها (كومبي صالح).

فقد اتجهوا إليها بقيادة الأمير أبي بكر بن عمر واقتحموها عام ٤٦٠ هـ وقضوا على الوثنية فيها، وعملوا على تحويلها كلَّها إلى بلاد إسلامية خالصة، وأقاموا عليها حاكماً مسلماً من الغانيين أنفسهم. ومن ذلك الحين أصبحت بلاد غانا كلُّها بلاداً إسلامية.

وهكذا يكون أبو بكر بن عمر قد حوَّل معظم بلاد إفريقيا الغربية المدارية إلى الإسلام، وعندما توفي مجاهداً سنة ٤٨٠هـ كان قد وقف بالإسلام على أبواب إفريقية الاستوائية عند منطقة الغابات الكثيفة، واستعد المسلمون للتوغل فيها.

ومنذ أن حوَّل المرابطون السلطات الحاكمة في غانا إسلامية أخذت تعمل على نشر الإسلام في البلاد بحماسة.

وشـــهد تاريخ الســـودان الغربي قيام إمارات ودول إسلامية تنشـــر الإسلام في معظمها، بل حوَّل (سنديانا كيتا) إمارات المنطقة إلى دولة واســـعة قويـــة تنشـــر الإســـلام في كل الأقاليم من المحيط الغربي إلى شـــرق النيجر؛ حيث توجد مملكة ســـنغاي، التي كان الإســـلام منتشـــراً فيها من قَبْل، وأســـلم ملكها قبل وصول ملوك مالي إليها واستيلاء منسا موســـى (المشهور بكنكن موسى) عليها عند عودته من الحج، ذلك الحج الذي أثار ذكريات عظيمة في البلاد التي مرَّ بها أثناء ذهابه إلى الحج عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، واشـــترى بيوتاً ومـــزارع وأوقفها على أهل تكرور فـــي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتـــرك في القاهرة آثاراً بقيـــت حديث الناس زمناً طويلاً.

وكان قادة دولة مالي يعملون لنشـــر الإســـلام. وقد زار الرحالة المغربي ابن بطوطة مالي في القرن الثامن الهجري في حياة منسا ســـليمان موســـى أخي كنكا موسى، وأشاد بالفضائل التي وجدها في هذه البلاد: كالأمان، والســـلام، وحِفْظ القرآن الكريم، والمواظبة على الصلاة ...

وكانت ســـنغاي قد قضت فترة من الزمن تحت سلطان مالي ثم تخلصت منه، بل ســـيطرت علـــى مالي وورثت كل ما لديهـــا وزادت عليه؛ حتى وصلـــت حدودها إلى المحيط الأطلســـي غرباً ومشـــارف بحيرة تشاد شـــرقاً، وإلى عمق الصحراء شمالاً وأجزاء من بوركينا فاسو وبنين (الحاليتين) جنوباً. وكان زعيمها الحاج أســـكيا محمد قد حج في القرن العاشر الهجري، وزار القاهرة والتقى بجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـــ). وفي مكـــة المكرمة لقَّبَه شـــريف مكة بخليفة المسلمين في تكرور وعاد بلقبه، وكان أسكيا متديناً.

وبعد هذه الجولة التاريخية الســـريعة عن تاريخ وصول الإسلام هذه المنطقة، نعود إلى جمهورية النيجر، ولا نحتاج إلـــى القول بأنها كانت جزءاً من إمبراطورية ســـنغاي؛ فكل المنطقة التي تحتها كانت من دولة أسكيا الإسلامية.

نسبة المسلمين وواقعهم في النيجر:

يتضـــح مما تقـــدم أن النيجر، بلد إســـلامي عريق في الإسلام؛ إذ استقر فيه الإسلام منذ قرون عدة، وشكَّل كثيراً من عادات الناس وسلوكهم. ويُقدَّر عدد السكان بحوالي (١٢) مليون نسمة، وتقدَّر نسبة المسلمين فيه بـ ٩٧ ٪ (سنَّة مالكية) حسب الإحصائيات الرسمية الأخيرة لحكومة النيجر.

وأما النصارى فنسبتهم قليلة جداً، بل يرى بعض الناس أنه لا نسبة لهم؛ فهم قليلون جداً، ومعظمهم - أصلاً - غير نيجريين.

وأما الوثنيـــون فهم أيضاً قلَّة. وقـــد صبغتهم المظاهر العـــامة بالتقاليد الإسلامية؛ بحيث لا يستطيع تمييـــزهم إلا أصحابُ البلد من جيرانهم.

وتنبغي الإشـــارة إلى أن الإبهام وعـــدم الوضوح الذي دفع الناس - قبل الاســـتقلال وبُعَيْدَهُ - إلى تقديرات مختلفة لنسبة المسلمين، وكذلك غير المســـلمين في النيجر، إنما يعود إلى أن الســـلطات الاســـتعمارية خلفت عادة لم يتخلـــص منها الناس بســـهولة، وهي عدم الإشـــارة أو عدم إثبات دين الشخص عند الإحصائيات التي يقومون بها. وقد ترسَّـــخ هذا العمل، فَجَرَت عليه الإحصائيات بعد رحيل الاستعمار.

فـــلا يوجد أحد أثبت أمام اســـمه ديانته فـــي الوثائق الرسمية، ولكن الذين أتيحت لهم الفرصة للطواف في البلاد طولاً وعرضاً وعمقاً يقولون: إن البلد كله مســـلم، ولا يوجد فيه غير المســـلمين تقريباً، وقد لاحظوا أن في المدن والقرى والبوادي مســـاجد كثيرة، وحتى في القـــرى التي لا تتعدى عدة بيوت، نجـــد فيها المســـجد والإمام ورئيسَ القـــرية الـــذي يتباهى أن قـــريته فيـــها مســـجد وإمـــام وكتَّاب؛ لتحفيـــظ القرآن.

ولارتباط رئيس القرية أو حتى المدائن الكبرى بالمســـجد والإمام، واجهت الذين أرادوا بناء مساجد جديدة مشكلة؛ حيث كانت معظم المســـاجد القديمة تحيط بها المساكن من الجهات الأربع، ولا تســـمح بتوسيعها؛ فرفض رؤساء المدن والقرى نقل المسجد بعيداً عن بيوتهم، وكذلك تغـــيير الإمام.

ونضرب مثلاً على ذلك بإصرار رئيس مدينة «دوســـو» وكـــذلك ســـلطان «زندر» على عدم نقل المســـجد إلى مكان واسع بعيداً عن داره؛ فاضطر الناس إلى هدم بعض البيوت المحيطة بالمسجد وتعويض أصحابها.

وهكذا نرى في النيجر كل مظاهر الإســـلام: من إقامة صلاة الجماعة والمســـاجد، والأعياد الإســـلامية، وافتخار الناس بلقب الحـــاج وما يعود به الحجـــاج من ملابس أهل الحرمين. ويظن بعض الناس قداســـة هذه الملابس، ويظنون

أن كل مـــا يأتي من بلاد الحرمين مبـــارك وفيه خير عميم لجميع الناس، وغير ذلك من المظاهر الإسلامية في النيجر.

وقـــد دفع هذا بعـــض البعثات المســـيحية التي وجدت البلد كلَّه مســـلماً تقريباً، إلى أن تنشـــــط في الأقلية غير المســـلمة، بل حتى في أوســـاط المســـــلمين؛ لتجرَّهم إلى ديانتها، مســـتغلة فقرهم وعوزهم ومرضهم وجهلهم، وسبّب ذلك قلاقل وعـــدم استقـــرار، وهـــو ما يسمح لها بالصيد في الماء العكر.

فقد نشـــطت هذه البعثات بما لديها من إمكانات مادية هائلة تغذِّيها الدول التي تنتمي إليها: نشطت في حفر الآبار وفي الصحة والإغاثة وتصريف منتجات الفلاحين وأصحاب المهن التقليدية، كل هذا لتجد مكاناً تضع فيه قدمها؛ لتنطلق بعد ذلك إلى العمق وهو غزو الجماهير المسلمة.

وقد لوحظ غيـــاب معظم المنظمات الإســـلامية وتَرْكُ المســـرح خالياً؛ ليعبث فيـــه من يحاولون بوســـائل مختلفة زعزعة المسلمين، وصرفَهم عن عقيدتهم؛ فلولا الله – تبارك وتعالى – ثم الحيوية التي يتمتع بها الإسلام، ومتانةُ عقيدته، وقوَّته الذاتية لرأينا ما لا يسُرُّ المسلمين.

غيـــر أننـــا مع ذلك، لا نســـتطيع أن نُغفِل مـــا تقوم به بعض المؤسسات الإســـلامية في هذا المجال: كرابطة العالم الإسلامي (الســـعودية)، والمؤسسة العالمية للإعمار والتنمية (الســـعودية)، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية (الكويتية)، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية (الليبية)، ولجنة مسلمي إفريقيـــا الكويتية (العون المباشـــر)، وجمعية قطر الخيرية، ومنظمة الدعوة الإســـلامية (الســـودانية)، والعمل الكبير الذي قامت به منظمة المؤتمر الإســـلامي من إنشاء الجامعة الإســـلامية في النيجر، التي تُعَدُّ منارةً للعلم والنور، وتعليم علوم العربية والشريـــعة. وثمة مؤسسات إســـلامية أخرى كثيرة.

وكان الإســـلام يصحـــب معه القرآن الكـــريم كلام الله – تعالى – الذي يمثل الطـاقة القوية المحرِّكة للمســـلمين، والنور الهادي الذي يقود خطاهم إلى الأمام، ويصوغ الضمير الحي الذي يخاف الله – تعالى – ويراقبه.

وترسَّـــخ الإســـلام ولغته في إفريقيا؛ إذ أثبته المؤرخون وذكروه فصار لا غموض فيه؛ فهـــذا الناصري يقول مؤكداً ذلك في كتابه: (الاســـتقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى): «قد تبيَّن لك ما قصصناه عليك من أخبار السودان (يقصد الغرب الإفريقي) وما كان عليـــه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإســـلام منذ وقت قديم، وأنهم أحسن الأمم إسلاماً، وأقومهم ديناً، وأكثرهم للعلم ولأهله تحصيلاً ومحبة. وهذا الأمر شائع في جُلِّ ممالكهم الموالية للمغرب...».

ومنـــذ ذلـــك الحـــين عُرِفـــت دول المنطقـــة – خاصة النيجر – باهتمامها بالتعليم العربي الإســـلامي، وإنشـــاء مدارس وكتاتيب قرآنية؛ لذلـــك (ولعله اعتراف بهذا الدور وتأكيد لـــه) كانت رغبة قادة الأمة الإســـلامية في اجتماع منظمة المؤتمر الإســـلامي في لاهور باكســـتان ١٩٧٤م في إنشاء جامعات إســـلامية، تُعنَى بالتعريف بالإسلام وعلومه واللغة العربية في القارة الإفريقية:

الأولـــى: تكون فـــي الشـــرق الإفريقي الناطـــق باللغة الإنجليزية، يكون مقرُّها أوغندا.

والثانية: لدول غرب إفريقيا، الناطقة باللغة الفرنســـية، واختيار جمهورية النيجر مقراً لها.

وبدأت الدراســـة في الجامعة الإســـلامية بالنيجر عام ١٩٨٦م، ويـــدرس بالجامعة حالياً طـــلاب وطالبات، يتجاوز عددهـــم الألف، وينتمون إلى عدد مـــن دول غرب إفريقيا، مثـــل: نيجيريا، والنيجـــر، ومالي، والكاميرون، وتشـــاد، وبوركينا فاســـو، وكوت ديفوار (ســـاحل العاج)، والسنـــغال، وغامبيا، وغانـــا، وموريتانيـــا، وغينيا كوناكـــري، والرأس الأخضر، وتوغو، وسيراليون، وليبيريا، وبنين، وغينيا بيساو، وإفريقيا الوسطى.

والمتخرجـــون منها الآن يُعدُّون بالآلاف، ولله الحمد. وهم سفراء للغة العربية وعلومها في مجتمعاتهم، وأصبح لبعضهم مواقع مرموقة في حكوماتهم كوزراء وما دون ذلك.

المـــراجـــع:

١ – الحضارة الإسلامية في النيجر، نشرته الإيسيسكو ١٩٩٤م.

٢ – المسالك والممالك، البكري.

٣ – قادة الفتح الإسلامي، محمود شيت خطاب.

٤ – نافذة على المرابطين، القاسم البيهقي.

٥ – إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، السلطان ابن فودي.

٦ – موجز تاريخ إفريقيا، آدم الألوري.

حرب دموية بمظلة توراتية

يوسف فرحات

إن الذي يقرأ القرآن الكريم، لا يعجَب كثيراً من الدموية في حروب الدولة الصهيونية؛ لأن هذا خُلُقٌ لليهود الذين وصفهم القرآن الكريم بأنهم: قتلة الأنبياء.

وهذا القتل تؤصِّل له توراتهم المحرفة؛ حتى إن ما جاء في هذه التوراة أصبح مرجعاً لبعض حاخامات اليهود؛ لتحريض الجيش الصهيوني على قَتْل الفلسطينيين كلهم (شباباً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً)، بل استهدفت هذه الفتاوى كل كائن حي يتحرك على الأرض. وقد ساهمت هذه الفتاوى بشكل كبير في إعلان الحرب على غزة؛ حيث شرع الحاخامات بتسخين الأجواء قبل اندلاع الحرب بَسَنة، وقد بدا هذا الدور واضحاً عندما رأى العالم على شاشات الفضائيات القوات البرية الصهيونية تجتاح قطاع غزة وفي صُحْبَتهم بعض الحاخامات الذين يحرضون الجيش على القتال.

في شهر مارس من عام ٢٠٠٨م نقل موقع صحيفة «هآرتس» على شبكة الإنترنت عن الحاخام (يسرائيل روزين) رئيس معهد «تسوميت»، وأحد أهم مرجعيات الإفتاء اليهودي أنه يتوجب تطبيق حُكْم «عملاق» «على كل من تعتمل كراهية إسرائيل في نفسه»؛ حيث إن هذا الحكم ينص على قَتْل الرجال والأطفال؛ حتى الرضع والنساء والعجائز، وسَحْق حتى البهائم.

وحسب التراث الديني اليهودي، فإن قوم «عملاق» كانوا يعيشون في أرض فلسطين وكانت تحركاتهم تصل حتى حدود مصر الشمالية. وحسب هذا التراث، فقد قام العماليق بشن هجمات على مؤخرة قوافل بني إسرائيل التي كان يتزعمها النبي موسى – عليه السلام – عندما خرجوا من مصر واتجهوا نحو فلسطين. ويضيف التراث أن «الرب» كلَّف بني إسرائيل بعد ذلك بشن حرب لا هوادة فيها ضد العماليق.



وتلا روزين الحكم الذي يقول: «اقضوا على عملاق من البداية حتى النهاية. اقتلوهم وجرِّدوهم من ممتلكاتهم، لا تأخذكم بهم رأفة؛ فليكن القتل متواصلاً: شخصاً يتبعه شخص، لا تتركوا طفلاً، لا تتركوا زرعاً أو شجراً، اقتلوا بهائمهم من الجمل حتى الحمار». وحسب توراة اليهود، فقد كان (يوشع بن نون) هو أول من طبَّق هذا الحكم عندما انتصر على العماليق؛ حيث قام بتدمير مدينتهم أريحا على مَنْ فيها.

ويضيف روزين أن «عملاق» لا ينحصر في عِرْق أو دين محدد، بل هو كل من يكره اليهود لدوافع دينية أو قومية. ويصل روزين إلى حد القول: «عملاق سيبقى ما بقي اليهود؛ ففي كل عهد سيخرج عملاق من عِرْق آخر لمناصبة اليهود العداء؛ لذا يجب أن تكون الحرب ضده عالمية». ويشدد روزين على أن تطبيق حكم «عملاق» يجب أن يقوم به اليهود في كل وقت وزمن؛ لأنه «تكليف إلهي». ويرى روزين أن الفلسطينيين هم عملاق هذا العصر.

هـــذا ولم يتوقف الحاخامات عـــن إصدار هذه الفتاوى التدميرية؛ فقد صدرت قبل مدَّة من الزمن فتوى عن الحاخام (مردخـــاي إلياهو) الذي يُعَدُّ من كبـــار رجالات الصهيونية الدينية؛ حيث أباح للمســـتوطنين سرقة زيتون الفلسطينيين؛ بحجة أنه زُرِع على أرض هي في الأصل ملك لليهود.

مما لا شك فيه أن هذه الفتاوى زادت من دموية الجيش الإسرائيلي، وفتحت شهيته للقتل والدمار والتخريب، بل إن المتابع لحال الجيش الصهيوني، يتوقع لهذا الجيش أن يخوض مزيداً من الحروب وســـيرتكب المزيد من المجازر؛ وذلك إذا علمنا أن أتباع التيار الديني الصهيوني بدؤوا يتغلغلون داخل الجيش الصهيوني؛ ففي دراســـة للصحفـــي صالح النعامي نشـــرها على موقعه الإلكتروني، ذكر أنه: «حسب المعطيات الصادرة عن قســـم القوى البشـــرية في الجيش الإسرائيلي لعـــام ٢٠٠٨، فإن ٦٠ ٪ من الضبـــاط في الوحدات القتالية في الجيش هم من أتباع التيـــار الديني الصهيوني. وترتفع نسبة أتباع هذا التيار في ألوية المشاة المختارة إلى ٧٠ ٪، في حين تصل نسبتهم في الوحدات الخاصة إلى حوالي ٧٥ ٪. وقد أكد نائب رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي السابق دان هارئيـــل أن أتباع التيار الديني الصهيوني يقودون معظم الكتائب والسرايا في ألوية المشاة المختارة، وهي: «المظليون» و «هناحل» و «جفعاتي» و «جولاني». ويحتكر أتباع هذا التيار قيادة وحـدات الصفوة بشكل مطلق، وهي: «سييرت متكال» التـــي تُعَدُّ أكثـر الوحدات نخبـوية في الجيش الإسـرائيلي، و «إيجوز» و «شمشون» و «دوخيفات»، فضـــلاً عن سيطرتهم علـــى الوحـدة المختـارة للشـــرطة والمعروفـــة بـ «يسام». ويتوقـــع قائـــد المنطقـة الشـــمالية الأســـبق في الجيش الإســـرائيلي (موشيه كبلينسكي) أن يسيطر أتباع هذا التيار على هيئة أركان الجيش فـــي غضون عقدين من الزمن في حال استمرار وتيرة اندفاعهم نحو المواقع القيادية على هذا النحو»؛ لذا «لا يمكن فَهْم الوحشـــية التي تعامل بها الجيش الإســـرائيلي خلال حربه الإجرامية على قطاع غزة من دون الانتباه إلى التركيبة البشرية للألوية والوحدات الإسرائيلية التي شـــاركت في هذه الحرب. وعلـــى الرغم من أن هناك تعليمات واضحـــة من قيادة الجيش باعتماد اســـتراتيجية «الأرض المحروقـــة» خلال الحـــرب؛ إلا أنه لا يمكن تجاهل حقيقة أن جميع ألوية المشـــاة التي شاركت في الحرب على القطاع، باســـتثناء لواء المظليـــين كان يقودها جنرالات من



أتباع التيار الديني الصهيوني الذين يتعرضون لتحريض فج على القتل لدوافع عنصرية؛ فقد كشفت صحيفة «هآرتس» الإســـرائيلية أن الحاخامية العســـكرية وزعت على الجنود المتدينـــين فتوى أصدرهـــا الحاخام (شـــلومو أفنير) مدير مدرســـة «عطيرات كوهنيم» المتطرفة في القدس تحث على قتل الفلسطينيين. وفي الوقت نفسه عكف الحاخام العسكري الرئيس للجيش الجنرال (آفي رونتسكي) على تفقُّد الجنود خلال الحرب وحثَّهم على قتل الفلســـطينيين مشـــدِّداً على أنه لا يوجد ثمة مدنيون بينهم، وقد حرص رونتســـكي على اصطحـــاب عدد من أكثر الحاخامات تطرفاً؛ لتعبئة الجنود على القتل. ويقول الصحفي الإســـرائيلي (عاموس هارئيل) نقلاً عن أحد الجنود الذين شاركوا في الحرب: إن الحاخام (شـــاؤول إلياهو) حاخام مدينة صفد الذي أعطى عدداً من «العظـــات» الدينية للجنود أثناء الحـــرب، حثهم على «قتل الفلسطينيين بدون إبداء أي قَدْر من الرحمة».

إن هذه الطبيعـــة الدموية التوراتية تأثـــر بها كثير من رؤســـاء الكيان الصهيوني؛ فهـــذا (مناحيم بيغن) يقول : أنا أحـــارب إذن أنا موجود. وقد ترجم قادة العدو هذه الطبيعة من خلال المجازر المتتابعة في حق الشعب الفلسطيني وغيره من الشعوب، مثل: مجزرة قانا، وبحر البقر.

إن الدمويـــة الصهيونية يجب أن تجعل المســـلمين اليوم أكثر وعياً بهذا الكيان، الـــذي أثبتت التجارب أنه لا يحترم قوة المنطق، وإنما يحترم منطق القوة.

ظهور المرجعية الشيعية
وعوامل التجاذب والتنافر فيها

فرست مرعي

لم يكن للطائفة الشيعية مرجعية متعارف عليها كما هي عليه الآن؛ فالطائفة الإمامية نَمَت وتطورت من حزب سياسي في منتصف القرن الأول الهجري إلى فرقة وطائفة لها مرتكزاتها العقدية الخاصة بها مع بدء القرن الثالث الهجري، وكانت النظرية الإمامية مفتوحةً وممتدة من عهد علي - رضي الله عنه - إلى يوم القيامة، وبعبارة أخرى: إنها لم تكن محصورة في عدد محدَّد من الأئمة أو فترة زمنية مختصة. والتراث الشيعي حافل بمئات الروايات التي تؤكد على استمرار الإمامة إلى يوم القيامة؛ لذا لم تكن هناك حاجة لمن ينوب عن الإمام؛ فسلسلة الأئمة تترى.

ولكنَّ وصول نظرية الإمامة إلى طريق مسدود بعد وفاة الإمام الحسن العسكري في سنة ٢٦٠هـ من غير ولد يَخْلُفه[١]، وقيام جعفر بن علي الهادي أخي الحسن بأخذ تَرِكَتِه، كل ذلك أدى إلى تفجُّر أزمة عنيفة في صفوف الشيعة الإمامية الموسوية الذين كانوا يعتقدون بضرورة استمرار الإمامة إلى يوم القيامة، وقد رافق هذه الأزمة حدوث نوع من الحيرة والغموض والتساؤل داخل صفوف الشيعة، وهو ما أدى إلى تفريقهم يومئذٍ إلى أربع عشرة فرقة[٢]، كلٌّ يقول برأي مختلف: فذهب بعضهم إلى القول بإمامة أخيه جعفر، بينما ذهب بعضهم للالتحاق بالمحمدية الذين قالوا باختفاء السيد محمد (محمد بن علي الهادي) وأنكروا وفاته، وقال قسم منهم بانقطاع الإمامة، وأنكر بعضهم وفاة الحسن العسكري، وقال بعضهم بعودته إلى الحياة مرة أخرى، وقال آخرون بوجود ولد له في السر، وُلِدَ في حياته - على اختلافٍ في الروايات في سِنِيِّ ولادته - أو بعد وفاته، وأنه المهدي المنتظر[٣].

وقد استطاع دهاقنة الشيعة أن يخرجوا الشيعة من هذا المأزق الخطير بأقل الخسائر من خلال الادِّعاء بأنه وُلِد للإمام الحسن العسكري قبل وفاته بسنتين، أو ثلاث، أو خمس، أو ست، أو ثماني سنين، ويقولون بأنهم قد شاهدوه في حياة أبيه وأنهم على

(١) أحمد الكاتب: تطوُّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص٩٦.
(٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص٢. الأشعري القمي: المقالات والفرق، ص ١٩.
(٣) تطوُّر الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (مرجع السابق)، ص ٩٦.



ويبدو أن دعوى النيابة كانت تجر مصالح مادية ومكانة اجتماعية سياسية للمدعي، ولا سيما أن المدعي كان يهمس بها في السر وينهى عن التحقُّق من دعواه، وقسم منهم كانوا يتعاطون أعمال السحرة؛ لإثبات دعوى نيابتهم

اتصال به، ويطلبون من عموم الشيعة التوقف وعدم البحث والتفتيش عنه أو التصريح باسمه ويحرسون ذلك، وكانوا يفسرون ادعاء جارية العسكري (صقيل) بوجود الحمل عند وفاة العسكري بأنه محاولة منها للتغطية على وجود الولد في السر.

ومنذ ذلك الوقت عُرِف هؤلاء الذين ادعوا بوجود ولد مغمور للإمام الحسن العسكري بـ (الطائفة الإثني عشرية).

وكان أصحاب ادعاء وجود ولد للحسن العسكري هم أنفسهم الذين ادعوا النيابة عنه ويطلق الشيعة عليهم: (النواب الأربعة) الذين ادعوا النيابة عن المهدي في فترة الغيبة الصغرى من سنة ٢٦٠هـ إلى سنة ٣٢٩هـ؛ إذ كان هؤلاء النواب يزعمون مشاهدة المهدي المنتظر واللقاء به، وإيصال الأموال إليه، ونَقْل الرسائل و (التوقيعات) منه إلى المؤمنين به. وهؤلاء النواب، هم:

١ - عثمان بن سعيد العامري، توفي سنة ٢٦٢ هـ.

٢ - محمد بن عثمان بن سعيد العامري الملقب بـ: (الخلاني)، توفي سنة ٣٠٥ هـ.

٣ - الحسن بن روح النوبختي توفي سنة ٣٢٥ هـ.

٤ - علي بن محمد السمري (الصيمري) توفي سنة ٣٢٩ هـ[1].

وإلى جانب هؤلاء (النواب الأربعة)؛ فقد ادعى النيابة حوالي أربعة وعشرين رجلاً آخر من أصحاب الإمامين: علي الهادي والحسن العسكري، أو مِن أتباعهم: كالحسن الشريعي، ومحمد بن نصير النميري، ومحمد بن علي الشلمغاني بن أبي العزاقر، وأبي دلف الكاتب، والحسين بن منصور الحلاج[2]... وغيرهم.

وقد اختلف الشيعة الإمامية القائلون بوجود الإمام الثاني عشر فيما بينهم حول صدق أولئك النواب وصحة ادعائهم

(١) الصدوق: إكمال الدين، ص٣ و ٥ .

(٢) لقد ادعى هذا الشخص حلول الله فيه وثبت للدولة العباسية أنه جاسوس باطني للدولة العبيدية (الفاطمية)؛ لذا حاكمته محكمة عباسية وأصدرت عليه حكماً بالإعدام في سنة ٣٠٩هـ، وغالبية المتصوفة يدَّعون أنه أحد أوليائهم، كما ثبت أن علي الشلمغاني ادعى هو الآخر القول بالتناسخ وأن الله حل فيه؛ ولذا حاكمته محكمة عباسية وأصدرت عليه حكماً بالقتل سنة ٣٢٢هـ.

النيابة؛ فذهب فريق إلى تصديق (النواب الأربعة) الأوائل، وذهب فريق آخر كالنصيرية (العلوية) إلى تصديق الحسن الشريعي ومحمد بن نصير النميري، بينما ذهب آخرون إلى تصديق مجموعة أخرى[1].

ولا بد من دراسة ظاهرة ادعاء النيابة عن الأئمة في التاريخ الشيعي؛ كالذين ادعوا النيابة عن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق الذي ادعى كثير من أصحابه استمرار حياته وغيبته ومهدويته، وكان منهم محمد بن بشير الذي ادعى النيابة عنه، ثم أورث النيابة أبناءه وأحفاده؛ مثلما فعل عثمان بن سعيد العامري الذي ادعى نيابة المهدي المنتظر - كما أسلفنا - ثم أورث النيابة ابنه محمداً.

ويبدو أن دعوى النيابة كانت تجر مصالح مادية ومكانة اجتماعية سياسية للمدعي، ولا سيما أن المدعي كان يهمس بها في السر وينهى عن التحقُّق من دعواه، وقسم منهم كانوا يتعاطون أعمال السحرة؛ لإثبات دعوى نيابتهم.

ومن الجدير ذكره أن أحد الباحثين الشيعة يقول بهذا الصدد: (إذا كنا نتهم أدعياء النيابة الكاذبين بجرِّ النار إلى قرصهم، وبالحرص على الأموال والارتباط بالسلطة العباسية القائمة يومذاك، فإن التهمة تتوجه أيضاً إلى أولئك (النواب الأربعة) الذين لم يكونوا بعيدين عنها)[2].

يقول أحد أدعياء النيابة، وهو محمد بن علي الشلمغاني الذي كان وكيلاً عن النائب الثالث الحسين بن روح النوبختي في بني بسطام: (ما دخلنا مع أبي القاسم الحسين بن روح في هذا الأمر (النيابة) إلا ونحن نعلم فيما دخلنا فيه، لقد كنا نتهارش على هذا الأمر كما تتهارش الكلاب على الجيف)[3].

وهكذا استطاع دهاقنة الشيعة تمرير مخططهم في ادعاء النواب الأربعة النيابة الخاصة عن المهدي المزعوم، وتمكَّنوا بهذه الطريقة من السيطرة على الموارد المالية للطائفة الشيعية: من زكاة وخُمُس... وغيرها للفترة من ٢٦٠هـ ولغاية ٣٢٩هـ؛ أي: ما يقارب السبعين عاماً.

وللباحث أن يتساءل: لماذا حدد فلاسفة الشيعة سنة ٣٢٩هـ لنهاية الغيبة الصغرى وبداية للغيبة الكبرى؟ علماً بأن تبريراتهم بخصوص بداية الغيبة الصغرى تجد القبول؛ على أساس أن الحسن العسكري قد توفي سنة ٢٦٠هـ،

(١) المرجع السابق، ص١٥٤.
(٢) أحمد الكاتب: ص ٢٢٥ و ٢٢٦.
(٣) الطوسي: الغيبة: ص ٢٤١.

لا بد من دراسة ظاهرة ادعاء النيابة عن الأئمة في التاريخ الشيعي؛ كالذين ادعوا النيابة عن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق الذي ادعى كثير من أصحابه استمرار حياته وغيبته ومهدويته

وابتكروا له النظرية الجنينية (أي: وجود جنين في بطن إحدى جواريه). ومهما يكن من أمر فلا توجد إجابات محدَّدة عند علماء الشيعة بخصوص تحديد بداية الغيبة الكبرى: هل جاءت من المهدي نفسه؟ أم أن هناك عوامل أو دوافع اقتضت هذا التاريخ، منها:

- الظرف الصعب الذي كانت تمر به الخلافة العباسية؛ حيث جرى سَمْل عيني الخليفة الراجي بالله في سنة ٣٢٩هـ وتولى الحكم المتقي بالله.

- أو أنهم حدَّدوا هذا التاريخ على أساس أن مجموعة من علمائهم تُوفُّوا في هذا التاريخ: منهم النائب الرابع علي ابن محمد السمري (الصيمري)، والكليني صاحب الكافي، وعلي بن الحسين بن بابويه القمي.

- أو أنهم كانوا على دراية بأن الوقت قد حان لمجيء البويهيين للاستيلاء على بغداد وجَعْل مقدرات الخلافة العباسية تحت حكمهم، وهو ما حصل؛ فقد سيطر البويهيون بقيادة أحمد بن بويه على بغداد في سنة ٣٣٤هـ؛ أي: بعد خمس سنوات من بداية الغيبة الكبرى.

- الظاهر أن بداية الغيبة الكبرى ترافقت مع الانتهاء من كتاب الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني ووفاته في السنة نفسها وتعليق المهدي - كما يدَّعون - على هذا الكتاب بأن: (الكافي كافٍ لشيعتنا)[4]، ولو أن الكليني انتهى من هذا الكتاب قبل

(٤) بلغ عدد أحاديث كتاب الكافي أكثر من ١٦ ألف حديث منها ٥٠٧٢ حديثاً صحيحاً مقابل ٩٤٨٠ حديثاً ضعيفاً انظر (الخوانساري: روضات الجنات، ص٥٥٣)، ومما تجدر الإشارة إليه أن النجاشي (أحد علماء الرجال عند الشيعة) ذكر أن الكليني جمع كتابه هذا في عشرين سنة. انظر (الرجال: ص ٢٦٦)، ويعلق أحد كتَّاب الشيعة على كثرة الروايات الضعيفة في كتاب الكافي، ووجود روايات تؤكد وقوع التحريف في القرآن قائلاً: لماذا لم يتصل الكليني بالمهدي عن طريق النائبين الثالث والرابع النوبختي والسمري (الصيمري)؟ انظر (أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، ص ٢٣٢).

هذه الفترة لكانت الغيبة قد تحددت في موعد آخر.

وبمجيء الغيبة الكبرى أصبح الشيعة - لأول مرة - بغير إمام معصوم وبغير نيابة واضحة، ولا سيما أن النواب الأربعة قد تُوفُّوا؛ لذا سادت في هذه الفترة نظرية الانتظار وهي النظرية التي جلبت للشيعة مآزق كثيرة، أقلها خروجهم من التاريخ؛ فلا جمعة، ولا جهاد ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر إلا بحضور الإمام الحجة المهدي المنتظر.

وكان الزمن كفيلاً بعلاج هذا المأزق عند علماء الشيعة؛ فما بين فينة وأخرى كان يخرج عالم بنظرية تؤكد أنه ينوب عن المهدي في مسألة معيَّنة: كالخُمُس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون سفك الدماء، أو صلاة الجمعة. وبعبارة أخرى: أصبح كبار علماء الشيعة هم مراجع للطائفة نيابةً عن المهدي، ولكن كثرة المراجع خلَّفت مأزقاً جديداً ولتلافي هذه المشكلة استحدث العلماء نظرية الأعلم؛ وفي الحقيقة لا توجد ضوابط مُحْكَمة يستطيع الباحث أن يدلي دلوه في ضوئها؛ فالمؤثرات الذاتية والعرقية لها أثرها في هذا الأمر.

وهكذا سادت نظرية الانتظار رغم قيام عدة دول شيعية: كالبويهيين من سنة ٣٣٤هـ ولغاية ٤٤٧هـ، والسربداريين في إقليم خراسان شرقي إيران، والدولة المشعشعية في أهوار العراق وإيران.

ومما تجدر الأشارة إليه أن الفكر السياسي الشيعي بعد الغيبة الكبرى عام ٣٢٩هـ أصبح يعيش خارج الزمن (التاريخ) رغم حكم بعض الدول الشيعية: كالبويهيين والمشعشعيين والسربداريين؛ غير أن اطلاع علماء ومتكلمي الشيعة[١] على النظرية السياسية الإسلامية عند علماء أهل السُّنة، ومحاولة إيجاد صيغةٍ مَّا توافقية بين الفكر السياسي السُّني وما يسمى بنظرية النيابة عندهم، جعلهم يحاولون الخروج من القوقعة التي أوقعوا أنفسهم فيها؛ فنظرية النيابة وانتظار الإمام الغائب التي التزموا بها أبعدتهم عن المساهمة بأي شكل من الأشكال في جهاد الكفار والمنافقين[٢] الذي هو ذروة سنام الإسلام فضلاً عن الإسهام في عملية التغيير الاجتماعي نحو الأفضل، وبعبارة أخرى: إنهم استبدلوا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قانون الأمر بالمعروف والنهي على المنكر باللسان واليد فقط دون

(١) لم ينجح متكلمو الشيعة في تطوير نظرية دستورية إسلامية تخدم أيَّ غرض عملي، انظر تراث الإسلام العدد ٢٣٤ الجزء الثاني، سلسة عالم المعرفة الكويتية.
(٢) الطوسي، محمد بن حسن: الغيبة، ص ٦٤.

كان متكلمو الشيعة وفلاسفتهم سبَّاقين إلى الاستفادة من الفكر المعتزلي الذي انكفأ على نفسه بعد أن بلغ الذروة في عهد المأمون العباسي المتوفى سنة ٢١٨هـ، والمعتصم المتوفى سنة ٢٢٧هـ، والواثق المتوفى سنة ٢٣٤هـ؛ فأحيوا هذا الفكر من جديد بما يخدم أصولهم كالإمامة وغيرها من النظريات التي طرحها متكلموا الشيعة

اليد التي تفضي إلى إراقة الدماء عن طريق السلطان[٣]. وهكذا ينطبق الأمر على تعليق مهمة تنفيذ الحدود؛ أي: تحريم إقامتها والانتظار الممتد إلى خروج المهدي[٤]، وإلى عدم إقامة صلاة الجمعة[٥].

ولكن الغريب أن الناحية المادية كالخمس وغيرها كان لها شأن آخر؛ فمع أن علماء الشيعة عطلوا كثيراً من الأحكام الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة: كالجهاد وإقامة الحدود وصلاة الجمعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إلا أنهم استطاعوا - إلى حدٍ بعيد - ابتكار نظريات اجتهادية الواحدة تِلْوَ الأخرى في الناحية المالية فقط، وهذا الذي يجعل الباحث في حيرة من أمرِه؛ فلماذا تعطيل الجهاد والحدود والجمعة، والإبقاء على الأحكام المالية كالخمس وغيرها؟

وآية الخُمُس نزلت في غنائم الحرب، وهي صريحة جلية واضحة وضوح الشمس؛ يعرف مدلولها كلُّ من لديه إلمام باللغة العربية، وهي: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [**الأنفال** : ٤١].

وكان علماء الشيعة إلى نهاية القرن الخامس الهجري موافقين في تفسيرهم للآية المذكورة لتفسير علماء أهل السُّنة، ولكنَّ متأخريهم حوَّروا الخُمُس من الغنائم في الحرب إلى أرباح التجارة (لغرضٍ في أنفسهم)؛ ففسروا الغنيمة بالأرباح وقالوا: «إن كل ربح يعتبر غنيمة ويشملها الخمس، ثم أضافوا أن هذا الخمس يجب أن يعطى إلى

(٣) الصدوق: إكمال الدين، ص ٩٤ - ٥٩.
(٤) المرتضى: رسالة في الغيبة (رسائل الشريف المرتضى، ٢/ ٢٩٨).
(٥) الطوسي: المبسوط في فقه الإمامية، ١/ ١٤٣.



الإمام الغائـــب؛ وبما أن الإمام غائـــب؛ فيجب إعطاؤه إلى الفقهاء (النواب) الذين هم نوابه»[١].

وهكـذا ألزمـوا الشـــيعة بدفـع الضريبـــة الماليـة التـي ما أنزل اللـه بهـا مـن ســلطان، وهكـــذا ضَمِـــن مراجـع الشيعة لأنفســـهم مورداً مالياً لا ينضب وكنزاً لا يفنى على حد تعبير الموسوي[٢].

وقُبَيل وفاة النائب الرابع علي بن محمد السمري بشهور قليلة يقال: إن رقعة وصلـــت إليه بتوقيع المهدي. جاء فيها: «لقـــد وقعت الغيبة التامة؛ فـــلا ظهور إلا بعد أن يأذن الله؛ فمن ادعى رؤيتي فهو كذاب مفترٍ»[٣].

ويلاحَظ أن فلاســـفة الشيعة ومتكلِّميهم كانوا السبَّاقين إلـــى النظرية الجدلية (الديالكتيكيـــة) قبل ظهورها على يد الفيلســـوف الألماني (هيجل)؛ فكلما تتولد نظريةٌ مَّا يلاحَظ بروز نقيضها بعدهـــا، وهكذا دواليك؛ فما إن ظهرت نظرية المهدي المنتظر حتى برزت إلى الوجود نظرية النيابة الخاصة بالنواب الأربعة، وما إن حلت الغيبة الكبرى ٣٢٩هـ حتى تولَّد نقيضها، وهي نظرية التقية والانتظار التي أثَّرت على الفكر الشـــيعي تأثيراً كبيراً؛ ولولا ظهور الدولة البويهية الشـــيعية بالتـــوازي مع بدء الغيبة الكبرى لـــكان مصير الفرقة الإثني عشـــرية إلى زوال كوصيفاتها من الفرق الشـــيعية الأخرى البائدة التي دخلت في ذمة التاريخ.

ولعله لم يكن مصادفة ظهور المصنفات الشيعية الكبيرة في العصر البويهي؛ حيث ازدهـــرت حركة التأليف عندهم بسبب تشـــجيع البويهيين لعلماء الشيعة وحمايتهم ودعمهم مـــن جوانب عديدة بعـــد أن كانوا مضطهديـــن ومطاردين من قِبَل الخلافة العباســـية؛ لأفكارهم الهدامة وطروحاتهم الغريبة عن الفكر الإســـلامي؛ فكان أن تفرغ علماء الشيعة لمباحثهـــم الفقهية ونظرياتهم الجدلية، ورافق حركة التأليف تلك إنشـــاء مدارس عديدة (حوزات)، كان من ثمارها ظهور المصنفات الحديثية الثلاثة:

- مـــن لا يحضره الفقيه، لعلي بن بابويه القمـــي الملقب بـ (الصدوق) والمتوفى سنة ٣٨١هـ.
- والاستبصار.
- وتهذيب الأحكام، لشـــيخ الطائفة محمد بن الحســـن الطوسي المتوفى سنة ٤٦٠هـ.

وكان متكلمو الشيعة وفلاسفتهم سبَّاقين إلى الاستفادة من الفكر المعتزلي الذي انكفأ على نفســـه بعد أن بلغ الذروة في عهد المأمون العباســـي المتوفى سنة ٢١٨هـ، والمعتصم المتوفى سنة ٢٢٧هـ، والواثق المتوفى سنة ٢٣٤هـ؛ فأحيوا هذا الفكر من جديد بما يخدم أصولهم كالإمامة وغيرها من النظريات التي طرحها متكلموا الشـــيعة، واستطاعوا - إلى حد بعيد - تطويعها لما يخدم توجُّهَهُم العقدي والتاريخي والفلسفي[٤].

وهناك نقطـــة على جانب كبير مـــن الأهمية، وهي أن الأفكار الغريبة تنمو وتتبلور في ظل الاضطراب السياســـي والقلق الاجتماعي؛ وهذا ما بدا واضحاً في العصر العباسي الثاني (فترة التدخل التركي) بعد ســـنة ٢٤٧هـ وما رافقها مـــن ظهور حركتَي: القرامطة والزنج اللتين عاثتا في الأرض فســـاداً وأرهقتا الدولة العباسية إرهاقاً شديداً؛ حيث ساد ذعر وقلق اجتماعي كانا كفيلين بانتعاش الأفكار والحركات الهدامة، واســـتطاع العالم الشيعي محمد بن يعقوب الكليني الاســـتفادة من هذا الوضع الحرج للأمة والمثالي بالنســـبة له، بتمريـــر أفكار غريبـــة وهدامة تتقاطع مـــع أبجديات الفكر والفقه الإســـلامي من خلال كتابه (الكافي)، ولم يكن باستطاعته فعل ذلك لو كان النظام السياسي مستقراً. وعلى الرغم من ذلك؛ فإن الدولة العباسية لاحقت في الوقت نفسه عدداً من هؤلاء الزنادقة والملحدين: كالحراج والشـــلمغاني: حيـــث تم إعدام الأول في ســـنة ٣٠٩ هـ والثاني في ســـنة ٣٢٢هـ بتهمة الزندقة وتناســـخ الأرواح والادعاء بحلول الله - جلَّـــت قدرته - فيهما، علماً بأن المذكورَين كانا من أدعياء النيابـــة الخاصة للمهدي المزعوم، وكان الشـــلمغاني ينافس النوبختـــي النائب الثالث على النيابة، فضلاً عن أن ســـيرة النواب الأربعة؛ حتى في المصادر الشيعية لم تكن سليمة إلى حد كبير وإنما يشوبها الدجل والشعوذة.

(١) موسى الموسوي: الصرخة الكبرى... عقيدة الشيعة في أصول الدين وفروعه في عصر الأئمة وبعدهم، ص ٦٥.
(٢) المرجع السابق، ص٦٥.
(٣) الصدوق: إكمال الدين، ص ٤٨٣.

(٤) للأمانة العلمية: فإن متكلمي الفرقة الزيدية استطاعوا الاستفادة من الفكر المعتزلي حتى وصل الأمر بالمؤرخين والباحثين إلى اعتبار الزيدية معتزلة في الأصول.

لغة الداعية

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

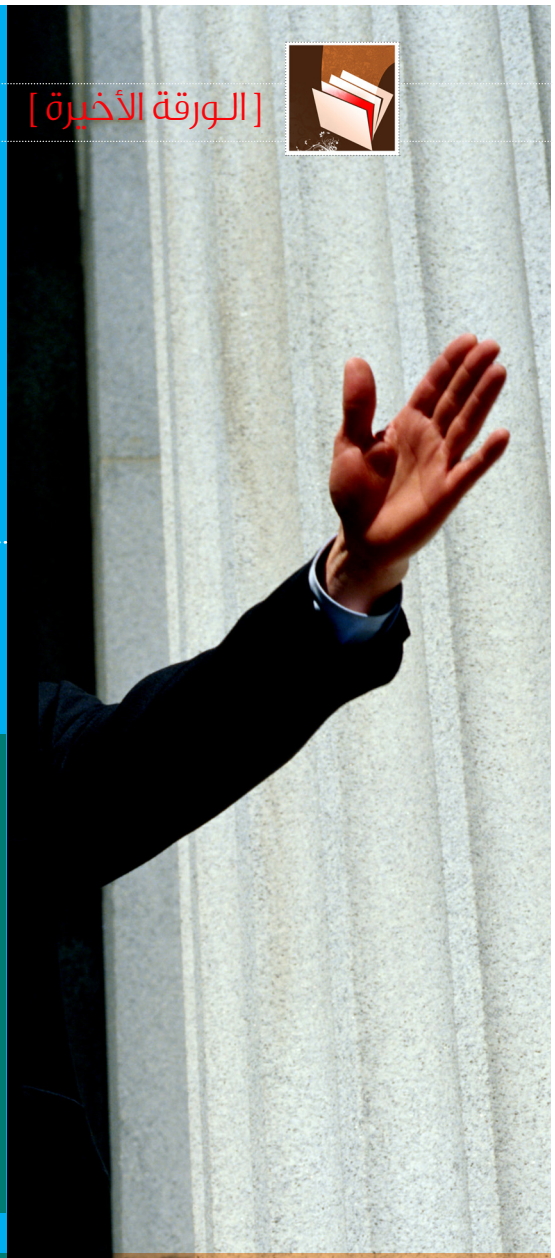

اللغة التي يستخدمها الإنسان في تواصله مع الناس من حوله هي علامة عقله وصلاح قلبه؛ فبقدر سموّ لغته وطُهرها وترفُّعها عن الفحش والبذاءة، يكون سموُّ عقله وشرفه. وقد سبق إلى بيان هذا المعنى عدد من العلماء الأجلاّء منهم: يحيى بن معاذ - رحمه الله - إذ يقول: (القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم؛ فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج؛ يخبرك عن طعم قلبه اغترافُ لسانه)[1]. ووصف ابن القيم اللسان بأنّه: (بريد القلب وترجمانه)[2]، وقال في موضع آخر: (إذا أردت أن تستدل على ما في القلوب، فاستدل عليه بحركة اللسان؛ فإنه يطلعك على ما في القلب؛ شاء صاحبه أم أبى)[3].

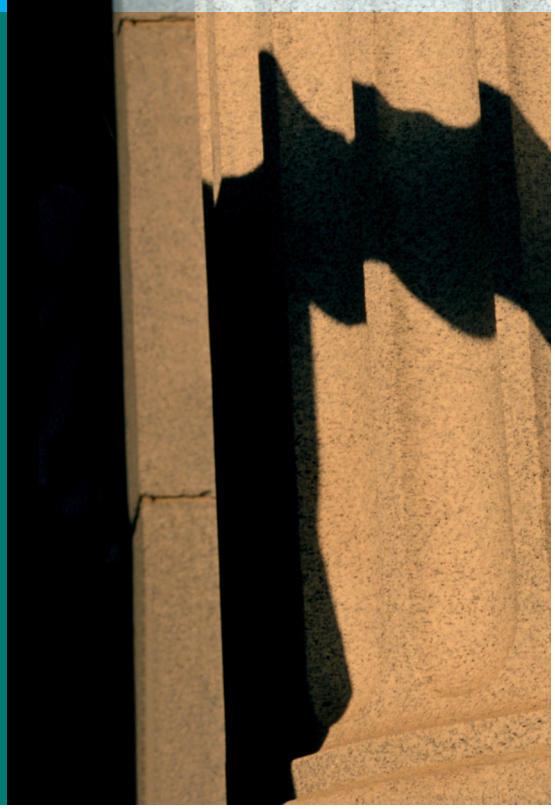

والمتأمل في لغة القرآن العظيم يلمس سموَّ الألفاظ وجمال التعبير كأجمل ما يكون السموُّ والجمال؛ فاقرأ - مثلاً - قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فقد كنى بالرفث والمباشرة عن الجماع. ونظائر ذلك في القرآن الكريم كثيرة، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله - تعالى -: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]؛ فعبر عن الجماع بالمس والملامسة. وانظر إلى جمال اللغة وأدب العبارة في قوله - جل وعلا -: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ

(١) حلية الأولياء: (١٠/٦٣).
(٢) الفوائد: (ص ١٠٦).
(٣) الجواب الكافي: (١٣٩).

لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣][١].

إنَّه تهذيب للإنسان وبناء للذوق اللغوي الذي يجعل المتكلم يختار أعف الكلمات وأسماها، ويترفع عن سفسافها وأدناها، وهذا المعنى أحد مقتضيات قول الله - عز وجل -: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقوله - جل وعلا -: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقوله - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

ولهذا جاءت وصية النبي ﷺ بمعاهدة اللسان وتربيته، فقال ﷺ: «أطب الكلام»[٢]، وقال: «أطيبوا الكلام»[٣]، وقال: «عليك بحُسْن الكلام»[٤]، وقال: «الكلمة الطيبة صدقة»[٥].

وكانت سيرة النبي ﷺ العملية أبلغ مثال في سموِّ اللغة ورقي التعبير؛ فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صَخَّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلَها، ولكن يعفو ويصفح)[٦]. وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وقال: «إن من أحبكم إليَّ أحسنكم أخلاقاً»[٧].

هذه البيئة التربوية الراقية هي التي نشأ فيها الرعيل الأول، سَمَتْ بالذوق العام للمجتمع كله؛ إذ خَلَت لغتهم من الخنى وسَلِمت أساليبهم من الإسفاف، ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يَعدُّ طيب الكلام إحدى الملذات التي لا يتمنى فراقها، فيقول: (لولا ثلاث: لولا أن أسير في سبيل الله، عز وجل، أو يغبرَّ جبيني في السجود، أو أقاعد قوماً ينتقون طيب الكلام كما ينتقى طيب الثمر، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله، عز وجل)[٨].

وكلما كان الإنسان أقرب إلى لغة القرآن وتربية النبي ﷺ، كان أعف لساناً، وأطهر كلاماً؛ ولهذا اهتم السلف بأساليب التخاطب وألفاظ التعامل؛ فنقَّوها من الفحش وصقلوها من السوء؛ وكان من اللطائف المستحسنة في ذلك ما نقله الحافظ السخاوي؛ حيث قال: (روينا عن المزني قال: سمعني الشافعي يوماً وأنا أقول: فلان كذاب، فقال لي: يا إبراهيم! أَكِسْ ألفاظك، أحسِنْها، لا تقل: كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء. ونحوه؛ إن البخاري كان - لمزيد ورعه - قلَّ أن يقول: كذاب أو وضَّاع، أكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه، ونحو هذا. نعم! ربما يقول: كذَّبه فلان، أو رماه فلان بالكذب)[٩].

وطيب الكلام يحتاج إلى تربية ومعاهدة[١٠]، ولهذا قال عبد الله بن عمر - رضي الله

هذه البيئة التربوية الراقية هي التي نشأ فيها الرعيل الأول، سَمَتْ بالذوق العام للمجتمع كله؛ إذ خَلَت لغتهم من الخنى وسَلِمت أساليبهم من الإسفاف

(١) أشار إلى هذا المعنى الثعالبي في كتابه: (فقه اللغة)؛ حيث عقد فصلاً (في الكناية عما يُستقبح ذِكْره بما يُستحسَن لفظه).
(٢) أخرجه: أبو نعيم في حلية الأولياء: (٩/ ٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (١٠٣٠).
(٣) أخرجه: الطبراني في الكبير، وقوَّى إسناده الألباني في الصحيحة، رقم: (١٤٦٥).
(٤) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد، رقم: (٨١١)، وابن حبان في صحيحه، رقم: (٤٩٠)، وصححه الألباني في الصحيحة، رقم: (١٩٣٩)، وقواه الأرنؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان.
(٥) أخرجه: البخاري، رقم: (٢٧٠٧ و ٢٨٩١ و ٢٩٨٩)، ومسلم، رقم: (١٠٠٩).
(٦) أخرجه: أحمد، رقم: (٢٥٤١٧ و ٢٥٩٩٠ و ٢٦٠٩١)، والترمذي، رقم: (٢٠١٦)، وقال: حسن صحيح. وصححه الأرنؤوط في تحقيقه للمسند. والصخب والسخب: الضجة واختلاط الأصوات للخصام، لسان العرب (٧/ ٢٩٤).
(٧) أخرجه: البخاري، رقم: (٣٧٥٩ و ٦٠٢٩)، ومسلم، رقم: (٢٣٢١).
(٨) أخرجه: ابن المبارك في كتاب الجهاد: (ص ١٨٤)، رقم (٢٢٢)، وحلية الأولياء: (١/ ٥١)، وروي نحوه عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - كما في الحلية: (١/ ٢١٢).
(٩) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ: (ص ٦٨ - ٦٩).
(١٠) روى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد: أن عيسى بن مريم لقي خنزيراً بالطريق فقال له: انفُذ بسلام. فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال عيسى: إني أخاف أن أعوِّد لساني النطق بالسوء. الموطأ: (٢/ ٩٨٥)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وآداب اللسان، ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا: (٧/ ١٩٥)، رقم: (٣٠٨).

عنهما -: (إن أحق ما طهَّر الرجل لسانه)[1]، وقد يكون هذا يسيراً في الأحوال العادية؛ لأن الإنسان قد يتكلف حُسْن المنطق والبعد عن الفحش، لكن قد يعرِض للمرء عوارض تكشف عن معدنه الحقيقي، وهو ما يتطلب مجاهدة وترويضاً للسان، ومن هذه العوارض:

أولاً: الغضب:

فالغضبان قد يطيش لسانه في السوء والفحش إذا لم يملك نفسه، وقد لا يستحضر من مخزونه اللغوي إلا أسفَّ الألفاظ وأسوأها، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب»[2]. وانظر إلى أخلاق النبي ﷺ السامية؛ فهو عفيف اللسان في كل حال من أحواله؛ فعن أنس - رضي الله عنه - قال: لم يكن النبي ﷺ سبَّاباً ولا فحَّاشاً ولا لعَّاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تَرِبَ جبينُه»[3].

حتى عندما آذاه رجل بقوله: والله إن هذه لقسمة ما عُدِل فيها، وما أريد بها وجه الله! كتم غيظه، وقال: «رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[4].

ثانياً: الاختلاف:

الاتفاق يبقي الإنسان هادئاً متزناً، لكن الاختلاف يكشف حقيقة الطبائع؛ لأن كثيراً من الناس لا يرضى بالمخالفة (مهما كانت يسيرة)؛ فيضطرب عندها لسانه ويفقد اتزانه وتزول رزانته، وربما قاده ذلك إلى الفحش أو الجَوْر أو البغي، وأحياناً ربما دفعه إلى اختزال الاختلاف في بعض الاجتهادات العلمية أو المواقف العملية في قضايا شخصية، ويتحول موقفه إلى ضجيج وصخب، ويصيِّر القضايا البسيطة تهماً وسلَّماً للاستهداف الشخصي. ولهذا جاء المنهج القرآني ليربي الإنسان على دفع السيئة بالحسنة، كما قال - تعالى -: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وكما قال - عز وجل -: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]، وفي هذا الباب نقل عبد الرحمن بن أبي عائشة: قول بعض الحكماء: (الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوانب)[5].

وانظر إلى أثر تلك التربية في موقف زينب بنت جحش - رضي الله عنها - لما سألها النبي ﷺ عن عائشة - رضي الله عنها - في حادثة الإفك، فقالت: (يا رسول الله! أحمي سمعي وبصري، والله! ما علمت عليها إلا خيراً). قالت عائشة تعليقاً على هذا الكلام: (وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع)[6].

ثالثاً: المزاح:

إن المبالغة في الممازحة قد تدفع المرء أحياناً إلى التفحش في بعض الحديث، رغبة في إضحاك الآخرين، وإذا كان هذا الفعل يُعد قبيحاً مذموماً عند عامة الناس؛ فإنه أشد قبحاً ومذمة عند الدعاة والصالحين، وقد رأيت بعض المنتسبين إلى الدعوة أنه إذا اختلى بخواصه توسع في الممازحة، وتلفظ بألفاظ يُستحيا من سماعها فضلاً عن نطقها وروايتها! وها هو ذا أبو هريرة - رضي الله عنه - يخبرنا عن سموٍّ أخلاق النبي ﷺ قائلاً: قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا! فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أقول إلا حقاً»[7].



فلسان الداعية في جده وهزله محفوظ بالورع من السقوط في مستنقع البذاءة أو الكذب.

إن الشريعة المطهرة لم تأت إلا لإصلاح الإنسان، وتهذيب سلوكه، والتسامي بفعله وقوله. وأَوْلَى الناس بذلك الدعاة والمصلحون؛ فَهُم الذين يحملون رسالة سامية، ويتعاملون مع شتى طبقات المجتمع الاجتماعية والثقافية. والكلمة الطيبة هي مفتاح للقلوب وأنجع أداة للتأثير.

وإذا كان بعض الدعاة يحرص على الارتقاء بمَلَكاته العلمية والفكرية، ويسعى لاكتساب القدرات المهنية والمهارات الفنية، التي تجعله أكثر نجاحاً وأرسخ إبداعاً في ميدان الدعوة، فإنَّ (طيب الكلام) أساس الأمر ومفتاحه.

---

(١) أخرجه: ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت وآداب اللسان): (٧/ ٨٠)، رقم: (٩٩).
(٢) أخرجه: أحمد: (١٨٣٢٥)، والنسائي: (٣/ ٥٤/ ٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (١/ ٤١١).
(٣) أخرجه: البخاري، رقم: (٦٠٣١ و ٦٠٤٦).
(٤) أخرجه: البخاري، رقم: (٣١٥٠ و ٣٤٠٥ و ٤٣٣٦)، ومسلم، رقم: (١٠٦٢).
(٥) الصمت وآداب اللسان (٧/ ١٩٧)، رقم (٣٢١).
(٦) أخرجه: البخاري رقم (٤٧٥٠)، ومسلم رقم (٢٧٧٠).
(٧) أخرجه: أحمد رقم (٨٤٨١ و٨٧٥٣)، والترمذي رقم (١٩٩٠)، وقوى إسناده الأرنؤوط.

مؤسسة أبا الخيل للمقاولات

مقاولات معمارية - حدادة - نجارة - خراطة

فلل للبيع والتقسيط



القصيم ـ البدائع ص.ب ١٥ ت: مكتب : ٣٣٢٠٢٩٦ فاكس : ٣٣١٠١٣٣ حدادة: ٣٣٢٢٢٣١ المنجرة : ٣٣٢٢١٤٧